أوراقي ... حياتي

(الجزء الثالث)

نوال السعداوي

أوراقي ... حياتي (الجزء الثالث)

أوراقي ... حياتي (الجزء الثالث)

تأليف
نوال السعداوي

هنداوي

أوراقي ... حياتي (الجزء الثالث)

نوال السعداوي

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي سي آي سي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره،
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٥ ١٣٥٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة هنداوي سي آي سي.
يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Copyright © 2017 Hindawi Foundation C.I.C.
All rights reserved.

المحتويات

ثمن الكتابة ٧

لحظاتٌ سَقَطَتْ فِي الْعَدَمِ ١٣
حَدَثَ مِنْ وَرَاءِ الْوَعْي ١٥
إِهْدَارُ الدَّم ٢٩
الصُّورَةُ الممزَّقَةُ ٤٣
المشرط والقانون ٦١
الهزيمة الكبرى ٧١
تضامن النِّساء ٨٥
الصَّديقات القَديمات ١٠٧
الشُّرفة في الدور السَّادس والعِشْرين ١٣٣
مِنْ مُفكرتي السِّريَّة عام ١٩٤٧ ١٤٣
الباحثة عن الحب ١٥٧
إجهاض الثورة ١٧٣
الطيران في الحلم ١٨٧

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجيد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحية، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس.

تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور.

لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحت أقل حُمرة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئة بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلًا في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصلحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها بِرقَّة ورثها عن أمه، يناولها كرسيًّا لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضوًا بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطمًا بصوتٍ غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواعٍ مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجُذام وأنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيرًا في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرك أفكارًا مدهشة في الرءوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التنهدات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوَّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمَّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضًا، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طباخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سرًّا.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن المماليك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، امال الزلازل والبراكين والبرق والرعد بييجوا منين؟

– منين يا حاج منصور؟

– لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.

يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو.

– الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.

– جاليليو خواجة يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.

– لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.

– سامعك يا خويا.

– جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكتر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعايشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.

– أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟

– أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.

– مين قال لك الكلام ده؟

– الباشا اللي باحلق له شنبه ودقنه.

– الباشا بنفسه يا سوسو؟

– أيوة يا حاج منصور.

– لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!

– لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

– مش معقول يا سوسو.

– مثلًا وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.

– لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟

– إيه يا حاج!

وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.

تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.

– أي عيد؟

الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسيخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.

لكن يظل الفسيخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.

كنت أحب الفسيخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن ذكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهمك في الكتابة.

– كم عمرك؟

– مش فاكرة.

– مش معقولة انتي.

– انتي اللي مش معقولة.

– ازاي؟

– إيه يهمك من عمري؟

– عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.

– ليه؟

– مش عارفة.

(انتهت المقدمة)[1]

نوال السعداوي

القاهرة

٢٢ مارس ٢٠١٧

[1] تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

لحظاتٌ سَقَطَتْ فِي الْعَدَمِ

حَدَثَ مِنْ وَرَاءِ الْوَعْي

القلم بين أصابعي، والصَّفحة تحت يدي بيضاء، يتحرَّكُ القلم دون أن يكتب شيئًا، ترمقني الصَّفحة البيضاء بسخرية، كأنَّما لم أكتب في حياتي سطرًا. تبدو اللغة غريبة، كلماتها مبنيَّة للمجهول، حروفها مقدسة، تخاطب المرأة بصيغة المذكر، كل شيء مُذكَّر في اللغة، حتَّى الإله والشَّيْطان والموت. الصَّفحة الخالية من الكتابة لونها أبيض بلون الموت، الكفن أبيض، وسرير المستشفى أبيض، معاطف الأطباء والطبيبات، ومرايل الممرضات والممرضين. عيناي مفتوحتان لا أعرف إن كنتُ الطَّبيبة أو المريضة، الكاتبة أو الصَّفحة البيضاء غير المكتوبة، المساحات الخالية بين السُّطور، السَّاقطة من حياتي والسِّنين، تسرُّب الروح من الجسد وغياب العقل.

هل عجزت عن الكتابة أم أشرفت على الموت؟ كانت هناك علاقة دائمة بين الموت وعدم الكتابة، فوق فمي كِمَامة، رائحة الأثير تملأ الجو، ربما هو المخدر، يلجئون دائمًا إلى المخدر في مواجهة الوعي، جسدي مصلوب فوق منضدة الجراحة في غرفة العمليات، أو ربما هي منضدة المشرحة في كلية الطِّب، مربوطة الذِّراعين والسَّاقين بخراطيم من المطاط. أسمعهم يتكلمون عنِّي بضمير الغائب، كلمة الضَّمير في اللغة مُذكَّرة مثل كلمة إنسان، لا يوجد في اللُّغة مؤنث كلمة ضمير. أصواتهم مُتشابهة، ملابسهم بيضاء، رائحتهم واحدة، مزيج من الأثير وصبغة اليود ودخَان سجائر. صوت ينادي اسمي واسم أبي، لم يكن لي أب واحد، هناك دائمًا أكثر من أب، اسم الأب الواحد أسطورة، في التَّاريخ يحجب الأصل تحت صورة أبٍ رمزي، لغة تجعلها كائنات مذكَّرة أو لا نكون، صورة مُقدَّسة تعيش على كبت الحقيقة، تحت تأثير المخدر تطل الحقيقة المكبوتة من تحت الماء مثل رأس جبل من الثلج.

– وأين هي أمي؟

أتلفَّت حولي أَبحثُ عن وجه أمي بين الوجوه، أصابع حديدية تثبِّت رأسي في المنضدة، تزحف الأصابع إلى عنقي تضغط عليه، أيحاولون خنقي لأني أسأل عن أمي؟ أين اختفت أمي؟ قتلوها؟ دفنوها في مقبرة ومعها اسمها؟ شطبوا على اسم أمِّي، مسحوه بالأستيكة، قالوا: ربما بعد الموت تحملين اسم أمك؛ لأنَّ الحقيقة بعد الموت تظهر، ويختفي اسم الأب المزيَّف.

الصَّوت يُنادي اسمي مرة أخرى، يرِنُّ الاسم في أذني مألوفًا، سمعته مرارًا في مراحل حياتي السَّابقة، رأيته فوق أغلفة كتبي ورواياتي، الصَّوت يُناديني بلهجة خشنة ذكورية، صوت رجل ملامحه غريبة، هذا الرَّجل لا أعرفه، مع ذلك يمسك يدي المثبتة فوق المنضدة، يقول للأطباء والطبيبات إنَّه زوجي.

– متى تزوجت هذا الرجل؟!

أرفع يدي لأمسك رأسي، يدي لا تتحرك، الصُّداع يقسم رأسي قسمين، ذاكرتي لا تسعفني، لحظات في حياتي سقطت في العدم، أحاول استعادتها دون جدوى، هذا الأثير يُخدرني، يستخدمون المخدر لقتل الذاكرة، أقاوم، أفتح فمي لأصرخ، صوتي لا يخرج.

مربوطة الذراعين والسَّاقين، فوق فمها كِمامة، تفتح فمَها نصف فتحة وتقول لهم: لا أريد مُخدرًا! لا أريد أن أفقد الوعي! أنا طبيبة ولست مريضة واسمي نوال وأمي اسمها زينب، أمَّا جدي السعداوي فأنا لا أعرفه، مات قبل أن أولد.

الصَّوت يُناديها باسمها وهي لا ترد، زوجها يقول لهم: إنَّها ليست نائمة، وليست غائبة عن الوعي، إنَّها فقط تكتب، وهي حين تكتب تصبح غائبة عن هذا العالم، لا تسمع أحدًا، ولا تردُّ على أحد.

قالت لزوجها بعد ليلة الزفاف المؤلمة: سأكتب ما لا يُكتب. كلَّ يوم تجلس إلى مكتبها من أوَّل النَّهار حتى آخرِ الليل، القلم بين أصابعها، والصَّفحة تحت يدها بيضاء، تمزِّق الورقة وراء الورقة، تُمزِّق شعرها، تفتح فمها عن آخره تطلب الهواء، تختنق، تشد الكِمَامة فوق فمها، تعَضُّ بأسنانها الأصابعَ الملفوفة حولَ عنقها.

جسمها فوق المقعد أصبح جزءًا من المقعد، مربوطة إلى المقعد بالحبال، نصفها الأسفل مربوط لا يتحرك، النِّصف الأعلى لا نرى منه إلا الرَّأس المطوَّق فوق المكتب، القلم بين أصابعها الطَّويلة السَّمراء يرسم على الورقة حروفًا سوداء مبتورة، يحتكُّ سِنُّ القلم

بالصَّفحة البيضاء، يصنع صَرِيرًا خافتًا، أذناها تلتقطان الصوت داخلَ الصمت، ينتصب رأسها وعيناها نصف مغمضتين.

كأنَّما لم أكتب في حياتي، لم تُمسك أصابعيّ القلم، لا أعرف اللُّغة، واللُّغة لا تعرفني، هذه الحروف ليست حروفي، لم أتعلمها من أمي، يقولون عنها: لغة الأم، وهي لغة رجل غريب مات قبل أن أولد. أحاول النهوض من مقعدي وراء المكتب، قدماي وساقاي مربوطة بالحبال، أسير نحو السَّرير بجسدي المربوط، أستغيث في النَّوم بلا صوت، شريف نائم إلى جواري مستغرق في النَّوم.

أرمقه بشيء من الحسد، منذ تزوجنا عام ١٩٦٤ وهو ينام بسهولة، يضع رأسه فوق الوسادة وينام في نصف ثانية، ضوء خافت يسقط فوق الجدار من خلال شقوق النافذة، نسمة خفيفة تحرك النتيجة المعلقة، التَّاريخ يشير إلى العام الجديد ٢٠٠٠، يبدو الرقم غريبًا، يفتح شريف عينيه، يرمق الرقم بدهشة، يا خبر بقينا في سنة ٢٠٠٠ كده بسرعة؟! أطفو فوق السَّرير كأنما أعوم فوق الزمان والمكان.

الزمن يمضي وأنا مُتجمِّدةٌ تحت الغطاء، أحاول النَّوم دون جدوى، كأنَّما نسيت كيف أنام، أحاول الكتابة دون جدوى، كأنَّما نسيت اللغة. شريف نائم إلى جواري، ترك سريره في غرفته وجاء إلى غرفتي، تحدثنا قليلًا قبل النَّوم، يكتب رواية جديدة وأنا عاجزة عن الكتابة، كأنَّما لم أكتب أبدًا، عيناي مفتوحتان كأنَّما لم أَنَمْ أبدًا، يفتح شريف جفونه، يراني مُحَمْلِقة في السَّقف.

– ما لك يا نوال؟

– مش عارفة أكتب يا شريف، لا يُمكن حاكتب أبدًا أبدًا، كل مرَّة تقولي كده يا نوال وتكتبين، المرة دي هي الأخيرة يا شريف، كل مرة تقولين هي دي الأخيرة، لأ خلاص هي دي الأخيرة، ولا يمكن حاكتب، خلاص فقدت القدرة على الكتابة، حاولي تنامي يا نوال، مش عارفة أنام، خلاص فقدت القدرة على النوم.

أنهض من السَّرير وأمشي في الظلمة، على أطراف أصابعي أمشي حتَّى لا يشعر بي شريف، أسير إلى الشُّرفة، نحن في الدور السَّادس والعشرين، في القرن الواحد والعشرين، أمدُّ قدمي إلى السور وأقفز في الهواء.

ثم أفتح عيني، أرى جسمي ممدودًا فوق السَّرير، إلى جواري القلم والصفحة البيضاء، تعلوها خطوط مُتعرِّجة بلا كلمات، بلا عبارة واحدة ذات معنًى.

يفتح شريف عينيه، يراني صاحية شاخصة إلى السَّقف. يرَبِّت على كتفي: نامي يا نوال. أهمس بصوت خائر: تفتكر يا شريف إن فيه تناقض بين الزَّواج والإبداع؟ يضحك شريف، جايز يا نوال ... لكن خلاص نعمل إيه بعد خمس وثلاثين سنة؟!

الكتابة في حياتي كانت تأخذني إلى بئر عميقة في بطن الأرض، إلى مكان يخلو من البشر، إلى مساحة لا يشاركني فيها أحد، لا أسمع صوتًا، لا شيء يتحرك، صمتٌ مطبق كالموت. كنت أحمل قلمي وأوراقي وأغادر البيت، أمشي وأمشي دون توقف، أتلفَّت حولي كأنَّما أبحث، أتطلَّع إلى الأرض والسَّماء والبيوت والشوارع والعمارات والأزِقَّة، أبحث عن شقٍّ أهرب فيه، أختفي داخلَه وأُغلق ورائي سبعة أبواب، لا يكفي بابٌ واحد لطرد الأصوات، أبحث عن الصَّمت داخل الصَّمت. أتلفت حَوَالَيَّ لا أعرف إلى أين أذهب، أسير بحذاء نهر النيل، أتوقَّف لحظة أُحَمْلق في المياه، أمدُّ قدمي فوق السُّور وأقفز.

أصحو من النَّوم مبللة بالعرق، الأوراق مُبعثرة فوق السَّرير، والقلم في يدي، إلى جواري رجل نائم.

النتيجة فوق الجدار مكتوب عليها التَّاريخ، اليوم والشهر والسنة، أحملق في الرقم ١٩٥٦، هل عادت عقارب السَّاعة إلى الوراء أربعة وأربعين عامًا وأنا غارقة في النَّوم؟ الرَّجل النَّائم يفتح عينيه، الظُّلمة شديدة لا أرى من ملامحه إلا العينين، من خلال الضَّباب الأسود يبرز الأنف، عظمة كبيرة تتوسط الوجه مقوسة قليلًا، تحت الأنف شارب أسود كبير.

لا شيء ينفِّرني في الرجال مثل الشَّعر فوق وجوههم، يُذكرني بالفصائل السَّابقة لنشوء الإنسان.

كان نائمًا على جنبه الأيسر، ظهره ناحية الحائط، وجهه ناحيتي، التَّاريخ فوق الحائط يُشير إلى عام ١٩٥٦، قُشعريرة باردة تزحف إلى جسدي، ذاكرتي تعود إلى السَّطح بالتَّدريج، أخرج من بطن الأرض جزءًا جزءًا، أصحو فوق شيء يهتز، جفوني ثقيلة أفتحها بصعوبة، التَّاريخ فوق الحائط ثابت عند عام ١٩٥٦، النَّافذة مفتوحة بدون زُجاجٍ ولا شيش، الهواء البارد ينفذ إلى جسدي، وأنا راقدة فوق ظهري، أسناني تصْطَكُّ، أرتجف بالحمَّى، في حَلْقي غُصَّة وفي أنفي رائحة دمٍ، عيناي تدوران فوق الجدران، المكان غريب لم أَرَهُ من قبل، الحائط بلا طلاء لونه أسود تعلوه بقع أكثر سوادًا، الشُّقوق في الجدران تُشبه الشُّقوق في الأرض، يتدلى من السَّقف سلك كهربي مات فوقه ذباب أسود. عيناه مغمضتان

والزَّمن لا يتحرك، التَّاريخ ثابت عند عام ١٩٥٦، بالضَّبط يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٦، أشدُّ جفوني لأصحو، عيناي مفتوحتان من قبل، لم أغمضهما لحظة واحدة طول الليل، كنت أُفكِّرُ في الهروب، كيف أهرب وإلى أين؟

الليل كان طويلًا بلا نهاية، مسمار في الحائط يتدَّلى منه معطف أبيض تعلوه بقعة دم، حقيبة صغيرة من الجلد الأسود، ملقاة في وسط الغرفة، من حولها تبعثرت أدوات طبيَّة، سماعة لها خرطوم أسود طويل، حقنة لها إبرة طويلة، أربطة شاش وقطن، وصورتي فوق بطاقتي ممزَّقة ومعها اسمي.

لا يزال نائمًا على جانبه الأيسر، وجهه ناحيتي، ذراعه اليُمنى ممدودة فوق السَّرير. كنت أترك مساحة كبيرة بيننا، مسافة طويلة أطول من ذراعه الممدودة، يده ضخمة كبيرة، أصابعه غليظة، لم أرَ في حياتي أصابع غليظة بهذا الشكل. أتلفَّت حولي أبحث عن مكان الباب، الظُّلمة شديدة لا أرى الباب، كأنَّما الغرفة بدون باب، أربعة جُدران عالية سوداء، ولا منفذ للهروب.

هذه الليلة صيف عام ١٩٥٦ تعود إلى ذاكرتي، ومعها ليلة أخرى في صيف عام ١٩٤١، بالضَّبط ٣٠ أغسطس ١٩٤١، أردت الهرب من بيت أبي وأنا في العاشرة من العمر، لم تكن الليلة مُفزعة مثل تلك الليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٦. اللحظات المنسية في حياتي تطفو فوق سطح الذاكرة، عيون سوداء صغيرة تلمع وسط خِضَمٍّ من السَّواد، نجوم تظهر في الليل من وراء سحابة كثيفة سوداء. الهروب من بيت الأب أقل إفزاعًا من الهروب من بيت الزَّوجيَّة. كلمة «زواج» تعني باللغة العاميَّة «الجواز»، كانت جدتي تقول: «ربنا كتب علينا الجواز يا بنت ابني، مصيرك الجواز زي كل البنات، القدَر والمكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين، جوازتي كانت جنازتي يا بنت ابني، نحمدك يا رب على كل المصايب ولا يُحمد على مكروه سواك.»

منذ السَّادسة من عمري، وأنا أحفظ هذه الكلمات الثَّلاث عن ظهر قلب، أنطقها في نفَس واحد: «ربنا، المصائب، الجواز.»

كلمة الحب لم تكن هي الجواز، كنت أغنِّي مع الرَّاديو للحبِّ، لم نكُفَّ نحن البنات عن الغناء للحب، لم أسمع في حياتي أغنية واحدة عن الزَّواج.

الحب مصيدة الفئران تدخلها البنات آمنات مغمضات العيون مثل القطط المغمضة، يفتحن عيونهن مفزوعات، تحول الحبُّ إلى أربعة جدران سوداء في بناء آيل للسُّقوط هو بيت الزَّوجيَّة.

في العاشرة من عمري خفق قلبي بالحب الأول، لم أكن أرى من الرَّجل إلا عينيه، كان يمكن أن أموت من أجله، اختفى الرَّجل لحسن حظِّي قبل أن أهرب من بيت أبي، سافر ولم يترك إلا صورة ضوئية اختفت هي الأخرى، وسقطت في العدم. التقيت به صدفة بعد ثلاثين عامًا، رأيت وجهًا غريبًا له أنف طويل مُدبب وشفتان رفيعتان إلى حد التَّلاشي، أيمكن أن يقبِّل بهما امرأة؟! عيناه صغيرتان غائرتان بلا بريق ولا ضوء، كيف كانت عيناه تغرقني كالشَّمس، لم أستطع الحملقة فيهما، كنت أسقط في ما يُشبه الإغماءة إنْ رنَّت حروف اسمه في الجو.

في العشرين من عمري خفق قلبي بالحب الثَّاني، عيناه كالحب الأوَّل كانتا هما الشَّمس، هربْتُ من بيت أمي وأبي، تركت كتبي وأوراقي وأقلامي وملابسي وصور طفولتي، سرت في الطَّريق إليه لا ألتفت ورائي، تحوَّل الحبُّ لسوء الحظِّ إلى زواج، فتحت عيني على الجدران الأربعة السَّوداء، داخل مطبخ في بيت قديم آيل للسُّقوط في حيٍّ بمدينة القاهرة اسمه المنيل.

بالأمس رأيت فيلمًا مُفزعًا مخرجه «ستانلي كوبريك»، مأساة الجنود الأميركيين في حرب فيتنام، مكنة الحلاقة ذات الموسَى الحادَّة تدور على رءوس الشَّباب في ربيع عمرهم، تجتزُّ شعورهم عن فروة الرَّأس، الخراف يسلخون جلودها في المذبح. يتحول الشاب الفنان الرقيق إلى قاتل سفاح، يدرَّب على القتل دون أن يَطْرِفَ له جَفْن، يقول له المدرب العسكري: سلاحك في يدك مثل سلاحك بين فخذيك منبع القوة والرجولة.

تدور الكاميرا على أجسام الشَّباب في معسكر التدريب، يُمْسِكون باليد اليمنى البندقية، وباليد اليسرى يُمْسِكون العضو الذكري أسفل البطن، يسيرون في صف طويل يشبه القطار الطويل يسير فوق القضبان، كل منهم يمسك قضيبه.

كنت جالسة فوق الكنبة الزرقاء العريضة في الصالة، إلى جواري شريف يتابع الفيلم، دخل المدرب العسكري غاضبًا إلى أحد الشَّباب يأمره أن يسلِّم سلاحه، نهض الشاب واقفًا يرمقه بعينين يختفي سوادهما تحت الجفن، تحولت العينان إلى مساحة من البياض بلون الثلج، المدرب العسكري يقترب منه، يأمره أن ينزع سلاحه، الشاب واقف في مكانه ثابت، البياض في العينين ثابت، النني الأسود الصغير اختفى تمامًا تحت الجفن، اللون الأبيض في العينين كالثلج، تحرك إصبع واحد على الزناد، انطلقت الرصاصة في صدر المدرب العسكري، سقط إلى الأرض غارقًا في دمه، توقَّف الشَّاب يلهث، جلس فوق الْمِرْحاض،

وضع فوهة البندقية في حَلْقِه، ضغط بإصبع واحد، تفجر الدَّم من حوله، فوق الجدار الأبيض اللامع من السِّيراميك، فوق السَّقف الأبيض، وبلاط الأرضيَّة الأبيض، غرق البياض في دم أحمر.

منذ طفولتي يُفزعني الدَّم الأحمر فوق الْمُلاءة البيضاء، دم العذرية والحيض والختان، قطعة دم متجلطة تنزلق من جسدي وأنا أمشي في الشَّارع، نقطة دم تتركها الإبرة فوق ذراعي بعد أن ينزعها الطَّبيب، وجه الطَّبيب يُشبه وجه المدرِّب العسكري في الفيلم، وجه ممسوح الملامح رمادي اللون كالجرانيت، والعينان ممسوحتان إلا من البياض الأبيض بلون الثَّلج، يقف أمامي شاهرًا الإبرة في وجهي مثل البندقية.

انتهى الفيلم بعد منتصف الليل، أطفأ شريف جهاز الفيديو، ذهبنا معًا إلى النَّوم، أصبح لكلٍّ منَّا غرفة نوم مستقلة، داخل كل غرفة مكتب صغير ومكتبة لها رفوف تحمل الكتب والأوراق والصُّور وخطابات الحب السِّريَّة، تعودت الكتابة والنَّوم داخل غرفة خاصَّة، لها باب لا يفتحه أحد، الكتابة مثل النَّوم تحتاج إلى الصَّمت المطبق، الصَّمت داخل الصَّمت.

منذ الطفولة تفزعني الأفلام كأنَّما هي الحقيقة، يفزعني الظَّلام في الليل، أتسلَّل من سريري لأنام بجوار أمي أو أختي، تجاوزت السِّتين عامًا والطِّفلة في أعماقي هي الطِّفلة، أخاف الظَّلام حين أمشي وحدي في الليل، منظر الدَّم في الأفلام يرتعد له جسدي، يسألني شريف كيف اشتغلتِ طبيبة وجرَّاحة في مستشفى الصَّدر بالجيزة؟ وكيف أمسكتِ المشرط في يدك وفتحت الصَّدر والبطن دون أن يَطْرِفَ لكِ جَفْن؟

وأقول لشريف: إنَّها امرأة أخرى تلك التي اشتغلت بالطِّب والجراحة، أو ربما يختلف الدَّم المراق تحت أيدي الأطباء والطَّبيبات عن الدَّم المراق تحت أيدي العساكر والأزواج.

صور من الماضي ماتت وراحت في العدم، أحاول استعادتها دون جدوى، اللون الأحمر القاني يلطخ السَّطح الأبيض، مشهد أراه في النَّوم حين يغيب الوعي، حين يتسرَّب اللاوعي إلى الوعي، منذ الطفولة يرتعد جسدي لمنظر الدَّم.

قطرة حمراء فوق مُلاءة السَّرير البيضاء، من أين يأتي الدَّم في الطُّفولة؟ ولماذا يتكرَّر دون انقطاع؟ منذ التَّاسعة من عمري رأيت الدَّم في الفراش، تعودت رؤيته الشَّهر وراء الشَّهر، السَّنة وراء السَّنة حتَّى أدبرت طفولتي.

لم تعد البقعة الحمراء فوق الملاءة تُفزعني، أصبح غيابها هو المفزع، أفتح عيني كلَّ صباح وأبحث عن البقعة الحمراء فوق الملاءة، في ملابسي، في ثنايا النَّسيج الأبيض أبحث عن قطرة واحدة حمراء.

تمُطُّ سامية شفتيها الرَّفيعتين وتقول: هذه أشياء غير مُهمَّة يا نوال، المهم قضية تحرير العمال والفلاحين من الرَّأسماليَّة والإمبرياليَّة. ويضحك شريف حين يسمعها تنطق هذه العبارة في نفَس واحد، يعرف أنَّها صديقتي منذ المدرسة الثَّانوية في حلوان الدَّاخلية، وقد أصبحت زميلة له في حزب اليسار منذ أكثر من نصف قرن.

رغم الاختلاف تستمر صداقتي بها، الصَّداقة القديمة منذ الطُّفولة تصبح مثل علاقات الدَّم، حين كتبت عام ١٩٦٥ عن الختان ومشاكل المرأة الجنسيَّة قالت: إنَّنِي أخون القضيَّة الوطنيَّة. وفي عام ١٩٧٢ حين كتبتُ عن النِّظام الطَّبقي الأبوي، قالت: لا يوجد إلا النَّظام الطَّبقي فقط أو المشكلة الاقتصادية. وفي عام ١٩٨٢ حين بدأنا نُشكِّل تنظيمًا للنِّساء اعترضتْ، وقالت: لا تمثل النِّساء طبقة ولا يحق لهن تكوين تنظيم مُستقل. ثم نطقت كلمة «فيمنيست» وهي تمطُّ شفتيها الرَّفيعتين بامتعاض.

لكن سامية تغيرت مع مرور الأعوام، وفي عام ١٩٩٥ حضرت مؤتمرًا للمرأة في نيويورك، ثم عادت تتحدث عن النِّظام الطَّبقي الأبوي. وفي عام ١٩٩٧ أصبحت ترأس تنظيمًا نسائيًّا مُستقلًّا، ومجلة للمرأة من النَّوع الفيمنيست. وفي عام ١٩٩٨ بعد أن أصدر وزير الصِّحَّة قرارًا بمنع ختان البنت فتح شريف الجريدة ذات صباح، رأى صورة سامية تتلقى الجائزة أو الوسام باعتبارها الرائدة في مجال النِّضال ضد الختان.

في المدرسة الثَّانوية كانت البنات يبحثن في ثنايا ملابسهن الدَّاخلية عن القطرة الحمراء، كان اختفاء الدَّم في حياة البنت يعني كارثة، تخشى البنات الحمل السِّفَاح.

لا يغسل العار إلا الدَّم، الرِّجَال يقومون بالغسيل، والنِّساء يفقدن الدَّم، يتحول القاتل إلى بطل يحمي الشَّرف، تُدفن البنت في الخفاء، ويُدفن معها اسمُها واسمُ أمها، يتألق اسم الأب بعد مقتل البنت.

منذ قصَّة العذراء الطَّاهرة في التَّاريخ تخشى البنات الحمل السِّفاح، يدور السُّؤال في رءوسهن وهن نائمات: أيمكن أن تتكرر القصَّة في التَّاريخ؟ هناك قِصص تكررت وجاء ذكرها في كتب الله، كم مرة تكرر عصيان بني إسرائيل لأوامر الله؟ كم مرة تكرر غفران الله لبني إسرائيل؟ كم مرة أرسل الله إلى البشر رسولًا يحثُّهم على الإيمان به؟ كم كان عدد

الأنبياء والمرسلين؟! كم مرة تكرر نزول الأنبياء إلى النَّاس؟ كم مرة أرسل الله مندوبه إلى سيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد؟! لماذا إذن لا يتكرر نزول مندوب الله إلى إحدى البنات لتحمل كما حملت ستنا مريم العذراء؟!

في المدرسة الابتدائية ورد السُّؤال إلى ذهني وأنا نائمة، كالحُلم الآثم كتمتُه في أعماقي، ثم اكتشفتُ أن جميع البنات أحلامهن آثمة. وفي المدرسة الثَّانويَّة أيضًا همستْ لي الزَّميلات بما يدور في عقولهن أثناء النَّوم، قالت صفية: إنَّها منذ قرأت قصَّة العذراء مريم وهي تحلم بمندوب الله يهبط إليها في اللَّيل. وقالت سامية: إنَّها لا تُؤمن بالله مع ذلك يأتيها المندوب في الحُلم. وفي كلية الطِّبِّ قالت صديقتي بطة: أما أنا يا نوال فقد جاءني المندوب في الواقع والحقيقة وليس في الحُلم. ثم كركرت بالضَّحك، بالشَّهقات المتقطعة كهواء محبوس يخرج من عنق زجاجة ضَيِّق.

كنتُ غارقة في النَّوم حين التفَّت الأصابع الغليظة حول عنقي، كما يحدث في الأحلام حاولت أن أفتح فمي لأصرخ، صوتي لا يخرج، الأصابع الغليظة قويَّة، أقوى من أصابعي، أفتح فمي طلبًا للهواء، أشهق بصوت مكتوم، كان يمكن أن أستغيث وأوقظ الجيران، لكني رأيت أنَّ الموت أهون من الفضيحة.

كلمة «الفضيحة» كانت تخرق أذني منذ ولدت، ولادة الأنثى كانت في حد ذاتها فضيحة تتكتم الأسرةُ الخبر، تتخفى الأم الوالدة عن عيون النَّاس، يغرق بيت المولودة الأنثى في الصَّمت.

كلمة «أنثى» في حد ذاتها فضيحة، إن قال لي أحدٌ أنتِ أنثى أصفعه على وجهه. كلمة «جنس» ترنُّ في أذني نابية. لا أستطيع أن أنطق كلمة «جوزي» بالعامية، أنطقها باللغة الفصحى المحترمة وأقول زوجي. كنت قد تزوَّجت للمرة الأولى تحت اسم الحب الكبير، قصة طويلة بدأتْ وأنا في العشرين من العمر فتاة عذراء، وانتهت وأنا في السَّادسة والعشرين زوجة عذراء، تحولت إلى أم عذراء، ثم تحررت بالطَّلاق.

لماذا لم أفقد عذريَّتي حتى اليوم، بعد أن تجاوزت السِّتين عامًا؟ لكن العذريَّة مثل القضاء والقدر، مكتوبة على جبين النِّساء، ليس في مقدور البشر أن يَهْتِكوا عِرْض المرأة الصَّالحة التي تعرف الله، وتعرف أنَّه اصطفى العذراء مريم من نساء العالمين، هي الوحيدة ذكر اسمها في كتابه الكريم، ولها سورة كاملة في القرآن باسمها «مريم»، تتطلع النِّساء إلى هذا النَّموذج الأمثل للطُّهر والنَّقاء؟!

منذ الطفولة أرى السَّيِّدة مريم العذراء النَّموذج الأعلى، أُم المسيح، الوحيدة دون النِّساء أجمعين تمَّ تعريفها بالاسم في القرآن، جميع النِّساء الأخرَيَات مجهولات الاسم، حواء زوجة سيدنا آدم، وزوجات سيدنا محمد عليه السلام لم يُذكر اسم واحدة منهن في القرآن، حتى السَّيِّدة خديجة لم يُذكر اسمها.

كان طبيعيًّا أن يتجه طموح الفتاة المسلمة المثالية إلى مريم العذراء وليس أي امرأة أخرى، منذ أدركني البلوغ في سن التَّاسعة من العمر أقسمتُ بيني وبين الله، أنَّنِي سوف أكون مثل ستنا مريم، وسوف أحمل وألد دون أن أمارس الجنس وأصبحت أنتظر كلَّ ليلة مندوبَ الله.

وطال الانتظار العام وراء العام، ثم جاءني رجل يتخفى في الظَّلام، وهمس في أذني أنَّه مندوب الله. كنت فتاة مثالية يرتعد جسدي حين أسمع كلمة «الله»، أُغمض عيني وأهمس: يا رب أرجو أن تذكر اسمي في كتابك الكريم كما ذكرت اسم ستنا مريم، ولماذا تصطفيها هي وحدَها، ألا يمكن يا رب أن تصطفيَ امرأتين وقد اصطفيْتَ أكثرَ من عشرين رجلًا من الأنبياء الصالحين؟!

كان ذلك في الطُّفولة السَّاذجة والمراهقة الأولى، ثم دخلت كلية الطب، أصبحت أفصل بين الحُلم والواقع، بين الوهم والحقيقة. وقعت في حب حقيقي وتزوجت زواجًا حقيقيًّا على سنة الله والرسول، وحملت وولدت وأصبحت أمًّا حقيقية غير عذراء وغير طاهرة. كان هناك شيء غير طاهر يحدث لي في الليل، شيء لا يبعث على اللَّذة بل الألم والإثم، كان زوجي الأوَّل رجلًا مكتمل الرُّجولة، كان فدائيًّا شجاعًا يُضحِّي بحياته من أجل الوطن، عاد من جبهة القتال كافرًا بالوطن.

– الخيانة يا نوال!

– خيانة الحكومة يا أحمد.

– الحكومة هي الوطن يا نوال.

– الحكومة شيء والوطن شيء آخر.

– هذا وهْمٌ يا نوال.

– هذه حقيقة يا أحمد.

– لأ، وهْم، كل شيء وهْم يا نوال، خلاص أنا اكتشفت الحقيقة، كنت مخدوعًا.

جسدي يرتعد حين سمع صوته في الليل يردد: «وهْم يا نوال»، كان يصحو طول الليل، يحقن نفسه بجرعة مضاعفة من الماكسيتون فورت، يجلس وراء المكتب ويمسك

القلم بين أصابعه، يكتب كلمتين اثنتين لا غير: «الثلاثة وهم» ثم يشطبهما ويبدأ من جديد «الثلاثة وهم» يشطبهما بالقلم ثم يكتبهما أول السطر.

كان يكتب بقلم رصاص، ويشطب بالقلم ذاته، حين ينقصف القلم يضعه في البرَّاية، يحركه المرَّة وراء المرَّة حتى يصبحَ له سِنٌّ طويل رفيع مدَبَّب. يكوِّر الورقة القديمة ويرميها في الصفيحة تحت المكتب، تمتلئ بالورق المكوَّر، يُفرغها في صفيحة الْقُمامة في المطبخ، ويعود يجلس إلى المكتب.

يُفرغ البرَّايةَ من النُّشارة بعد أن يبري القلم وراءَ القلم، لا يترك القلم إلا بعد أن يصبح أقصرَ من عُقلة الإصبع. لم يكن يخرج من البيت إلا ليشتريَ أقلام الرصاص، رُزَم الورق الأبيض، وعُلبة الماكسيتون فورت من الصيدلية في شارع المنيل.

كنت قد تخرجتُ واشتغلت طبيبة في مستشفى قصر العيني الجديد أو مستشفى المنيل الجامعي، يبعد عن بيتنا مسافة نصف ساعة على القدمين، أخرج في الثَّامنة صباحًا وأعود في الثَّالثة بعد الظهر، أراه جالسًا وراء المكتب في غرفة النَّوم، كانت الشَّقة صغيرة، بها غرفة واحدة، وصالة صغيرة للطَّعام، ومطبخ صغير، وشرفة صغيرة تطلُّ على فرع النِّيل الصَّغير، يتكوَّن البيت من أربعة أدوار، في كل دور شقتان متقابلتان، ونحن في الدور الثَّالث.

كان راتبي الشَّهري عشرة جنيهات ونصفًا، أشتري بها الطَّعام ومصاريف البيت، كانت أمه تعطيه تسعة جنيهات كلَّ شهر، نصيبه من ميراث أبيه، ينفق الجنيهات التسعة على شراء الأقلام الرَّصاص والورق وعُلب الماكسيتون فورت. قبل الطَّلاق بفترة قصيرة لم تَعُدِ الجنيهاتُ التسعة تكفي، كان يَحْقِن نفسه بجرعة تتزايد يومًا وراءَ يوم، وهذا أمر معروف في الطِّب، إن الجسد قادر على التَّغلب على أي سموم تمشي في الدم، مخدرات أو منبهات، يدخل الماكسيتون فورت تحت المواد المنبهة، يحتاج المدمن إلى زيادة الجرعة حتى يتغلب على مقاومة الجسم للمادة الكيميائية.

كان يفتح حقيبتي ويأخذ منها ليشتري الماكسيتون فورت، أصبحت أخبئ الحقيبة في مكان لا يعرفه، بدأ يبيع أثاث البيت، لم يكن عندنا إلا أشياء قليلة، لم يبقَ إلا السَّرير الصَّاج الأسود العريض، والمكتب الخشبي والمقعد الواحد الذي يجلس فوقَه طول الليل يكتب عبارة واحدة من كلمتين:

«الثَّلاثة وهم»، ثم يكوِّر الورقة ويلقيها في الصَّفيحة.

قبل الطَّلاق بثلاثة أيام خلع الشِّيش والزُّجاج من النَّافذة، وعاد يحمل عُلبة الماكسيتون فورت، نمت طول الليل أرتجف بالبرد، كان السَّرير تحت النَّافذة، لم يكن عندنا إلا بطانية واحدة، فتحت عيني قرب الفجر، رأيته جالسًا يكتب ويشطب ويرمي الورق في الصَّفيحة.

حين رآني أفتح عيني رمقني بنظرة غريبة، رأيته رجلًا غريبًا، صوته أصبح غريبًا.

– صحيتي يا دكتورة؟

– أيوه.

– قوليلي: الثَّلاثة دول وهم ولا لأ؟

– الثلاثة مين؟

– الأب، الوطن، الحب.

– حقيقة وهم ... لا يهم، المهم هو أنَّك تبطل هذا السُّم الَّذي تحقن به نفسك!

– لا يعالج السم إلا السم ... وداوني بالَّتي كانتْ هِيَ الداء.

– لا يمكن حياتنا تستمر بهذا الشَّكل.

– طبعًا خلاص الحب راح يا دكتورة!

– مش عارفة.

– أنا عارف، الحب وهم كبير.

– لأ.

– يعني مؤمنة بالحب؟

– أيوه.

– مين هو الرَّجل السَّعيد يا دكتورة؟ لا يُمكن أكون أنا؛ لأنِّي أنا خلاص انتهيت!

– كل شيء يتوقف على إرادتك أنت.

– انتهت الإرادة وكل شيء، لم يبقَ إلا الموت، وكما كنا نقول أيام الحب: نعيش سَوا ونموت سَوا، إيه رأيك نموت سَوا؟

ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٦ قبل أن يطلع الفجر.

العالم يحتفل بعيد الثَّورة الرَّابع وأنا أختنق، أصابع غليظة تلتفُّ حول عنقي في اللَّيل، أحاول أن أصرخ، صوتي لا يطلع كما يحدث في الحُلم، أفتح فمي طلبًا للهواء، أشهق بصوتٍ مكتوم، كنت أُفضِّل الموت على أن يسمع صوتي أحد.

في حياة النِّساء كان الموت أفضل من الاستغاثة، المرأة في الشَّقة المجاورة كانت تستغيث، أسمع صوتها في الليل وأنا نائمة، يفتح الجيران نوافذهم يسمعون صوتها. امرأة أخرى تستغيث في العمارة المجاورة، في الصَّباح أسمع النَّاس يتهامسون.

أبٌ يضرب ابنته؛ لأنَّها تأخرت في اللَّيل، رجل يضرب زوجته؛ لأنَّه وجد حصوة في صحن الأرز، زوج يقتل زوجته؛ لأنَّه يشكُّ في سلوكها، يتهامس النَّاس: وما له؟ الشَّرف فوق كل حاجة، كل رجل حر في بيته، الرِّجَال قوَّامون، ربنا قال: «واضربوهن»، بنات حواء، ربنا قال: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

يغلق الجيران نوافذهم وينامون، تصحو المرأة على الفضيحة، سيرتها على كل لسان، تكف بعد ذلك عن الاستغاثة. لم أصرخ تلك الليلة، منذ الطفولة لم ألجأ إلى الصُّراخ حين يقترب الموت، كنت أُفكِّر في طرق المقاومة أو الهرب.

منذ صيف عام ١٩٥٦ حتى صيف عام ١٩٦٠ فقدت جزءًا من ذاكرتي، أربعة أعوام كاملة نسيت ملمس الأصابع الغليظة حول عنقي، سقطت في العدم كأن لم تكن، لم يبقَ منها إلا ظلال سوداء فوق جدار أسود، ثم اختفت هذه الظِّلال أيضًا وراحت في العدم.

في النَّوم وأنا غائبة عن الوعي، تبدأ الظِّلال في الظُّهور من بطن الخضم الأسود مثل قمة جبل الثلج تحت الماء.

إِهْدَارُ الدَّم

بِدَايةُ عَام ٢٠٠٠.

القلم بين أصابعي والصَّفحة تحت يدي بيضاء، مساحة من الفضاء تنتظر كلماتي، النَّافذة مفتوحة أمامي على السَّماء، أُحَمْلِق في مساحات من الْخَوَاء، أبحث عمَّا كان أبي يقول إنَّه الحقيقة. منذ الطفولة كنت أجادل أبي، لم يكن عقلي يقبل أي شيء دون برهان، يغضب أبي ويقول: هناك حقائق ليس لها برهان، يرمقني بنظرة حمراء لأكف عن الجدل، ولم يكف عقلي عن التساؤل.

كان عقلي مشكلة حياتي، أردت التَّخلص منه منذ الطُّفولة. في سنِّ المراهقة أصبحت بلا عقل، فتاة وادعة مطيعة لا تجادل، لا يدور في رأسها سؤال، أشياء أخرى تدور في جسدها، رغبات عارمة يرتجُّ لها الجسد، أحلام في اليقظة والنَّوم عن الحب، أشياء لها ملمس مادي، الجسد يُعانق الجسد في اللَّيل، ترمقني أمي بنظرة حمراء لأكفَّ عن الحب، لم يكن جسدي يكف عن رغباته.

أصبح جسدي مشكلة حياتي، أردت التَّخلص منه منذ المراهقة، في سِنِي الشَّباب الأولى أصبحتُ بلا جسد، امرأة ناضجة مثالية حسنة السيرة والسلوك، زوجة مُطيعة لزوجها في البيت، مُطيعة لرئيسها في العمل، تُضحِّي بحياتها من أجل الأسرة، وإن قامت الحرب تُضحِّي بالأسرة وتموت فداء الوطن.

مرت بي أيام أمشي في الطَّريق مثال الخيال، شبح من الأموات، شاحبة الوجه مُطبقة الشَّفتين في صمت، لا شيء يتحرَّك في عقلي أو جسدي، منذ زمن طويل فقدتهما، أترنَّح وأنا أمشي مثل خيال. كان الموت قريبًا مني أكاد ألمسه بيدي، الموت من أجل الوطن، من أجل

الله، من أجل زوجي. يعلو الله فوق الجميع، من بعده يأتي الوطن أو المِلك أو الرَّئيس، بعد ذلك يأتي الزَّوج.

في اللَّيل، كنت أهتف يسقط الملك يسقط الزَّوج يسقط الإنجليز. كان ذلك في طفولتي، تغيرت الأسماء في مرحلة الشَّباب، أسمع الشَّباب يهتفون، يسقط الرَّئيس يسقط الأمريكان، أشاركهم الْهُتاف وأضيف من عِندي ويسقط الزَّوج.

صديقتي صفيَّة تهتف معي يسقط الزَّوج، تنضم إلينا الصديقات الأخريات سامية وبطة، الثَّلاث زوجات مطيعات يحلمن بالطَّلاق في الليل، أربعة وأربعون عامًا يحلمن بالطَّلاق، يتكرَّر الحلم كلَّ ليلة حتَّى انتهى القرن وجاء القرن الجديد الواحد والعشرون.

ذاكرتي تروح وتجيء في الزَّمن على نحو عجيب، يتلاشى نصفُ قرن في لحظة، واللَّحظة الحاضرة تمتدُّ أمامي لا نهائية، يلتحم الماضي بالحاضر في لحظة واحدة، الصَّوت يتسرَّب إلى أذني واضحًا كأنَّنِي أسمعه الآن، اقتلوها الكافرة عدوَّة الله. أهبُّ من النَّوم على الصَّوت يزعق في شارع الجيزة، النَّافذة مُغلقة بالشيش الخشبي والزجاج المزدوج، شريف نائم في سريره المجاور لسريري، كان لنا سريران مُنفصلان في غرفة نوم مشتركة، الجدران بيضاء نظيفة والملاءة ناصعة البياض، الأرض من البلاط النَّاعم، أنزلق فوقه حين أمشي، فوق المنضدة السَّاعة تشير إلى الواحدة، النتيجة فوق الحائط ثابتة عند ٣١ ديسمبر ١٩٩٨، عيد رأس السنة الجديدة، أشياء مُفزعة تحدث دائمًا ليلة العيد، منذ طفولتي لا أحب الأعياد، يمتلئ قلبي بالحزن حين يتألَّق العالم بالفرح.

أهدروا دمها الكافرة عدوَّة الله.

جفوني مثقلة بالنَّوم، يسري الصَّوت إلى أذني قبل أن أفتح عيني، أضواء خافتة تتسرَّب من شقوق الشِّيش، أمشي إلى النَّافذة على أطراف أصابعي، أتوقَّف لحظة لألتقط أنفاسي، أُطل من بين الشَّق، الشَّارع ليس فيه أحد، عربة كارو يجرُّها حِمار، صاحبها راقد فوق ظهره يهتز مع اهتزاز العربة، سيارات مُسرعة تظهر أنوارها ثم تختفي، الشَّق ضيِّق، أخشى أن أفتح النَّافذة، الصَّوت يزعق، يردد بعض الأسماء، يرنُّ اسمي واسمُ أبي وجدي السعداوي الَّذي مات قبل أن أُولد.

– اقتلوهم الكفرة أعداء الله.

أذناي من وراء النَّافذة المغلقة تلتقطان الأسماء واحدًا وراء الآخر، يرنُّ اسمي في الجو: نوال السعداوي. يخترق رأسي مثل طلقة الرصاص، يفتح شريف عينيه، يراني واقفة وراء النافذة جامدة مثل تمثال.

– فيه إيه يا نوال؟

– سامع الصُّوت؟

يفتح شريف النَّافذة، من أين ينبعث الصَّوت، الميكروفون فوق مئذنة الجامع المجاور لنا، أو الجامع الآخر الجديد في الشَّارع الخلفي، أو الجامع القديم وراء الكنيسة، أو المئذنة الجديدة بدون جامع، تبرز بين البيوت من فوق ميكروفون ضخم، يربِّت شريف على كتفي: نامي يا نوال وبكرة الصبح نعرف إيه بيحصل في البلد.

يأتي الصُّبح ولا نعرف شيئًا. لا أحد في الكون يعرف الحقيقة إلا الله والسَّيِّد الرَّئيس. هكذا قال يوسف إدريس لشريف عبر أسلاك التِّليفون، يضحك ويقهقه بصوت يهزُّ الأسلاك. أيوه يا شريف محدش عارف حاجة، البلد على كف عفريت، فاكر حريق القاهرة في يناير اثنين وخمسين، الحكومة والإنجليز حرقوا البلد عشان يضربوا العمل الفدائي في القنال، أنا مُتوقع حرايق في البلد مش حريق واحد، الجماعات الإسلامية دي عملها السَّادات عشان يضربنا يا شريف، عشان يضرب اليسار كله، وطبعًا معاه الأمريكان، أنا باسمع اسمي في الميكروفونات فوق الجوامع، الجوامع دي كلها بنتْها الحكومة بفلوس أمريكا، عشان يتخلصوا منا يا شريف، أنا عارف إن الحكومة والأمريكان عاوزين يخلصوا مني أنا بالذَّات؛ لأن مقالاتي في الأهرام أخطر من المقالات في صحف المعارضة، عاوزين يقتلوني يا شريف.

– مش أنت لوحدك يا يوسف، فيه ناس كثير عاوزين يقتلوهم أكثر منك، لو كانت الحكومة عاوزة تتخلص منك كانوا شالوك من الأهرام يا يوسف.

– أيوه يا شريف، لكن أنا عارف إن الحكومة سايباني أكتب عشان تكون عندنا معارضة وديموقراطية، لكن المسألة تطورت وخلاص مش عاوزين أي معارضة، على فكرة أنا سمعت اسم نوال، مش عارف إزاي يهدروا دم امرأة؟

– زي ما بيهدروا دم الرَّجل يا شريف.

– لكن المرأة غير الرَّجل يا شريف.

– مش فاهم.

– في الصَّعيد مثلًا دم الرَّجل هو المطلوب في الثأر، وفي السِّياسة أيضًا دم الرَّجل هو المطلوب.

– ليه يا يوسف، هو الرَّجل فقط اللي عنده دم؟!

كان الجدل يدور بين شريف ويوسف عبر أسلاك التليفون، يضحك يوسف بصوت عالٍ، تهتز الأسلاك مع قهقهته ويتحول الحديث من السِّياسة إلى المرأة.

كان يوسف إدريس زميلًا لأحمد حلمي في كلية الطِّب وأحمد المنيسي وفؤاد محيي الدين وغيرهم من الطلبة، لماذا بدا أحمد حلمي مختلفًا عن الجميع؟! الصَّوت الهادئ المنخفض، الكلام القليل، الخطوة فوق الأرض الواثقة غير المتسرعة؟ العمل في صمت دون ضجَّة، في الاجتماعات في المدرج الصَّغير كنت أراه جالسًا في الصَّف الأخير، يتنافس زعماء الطَّلبة على الميكروفون وهو في مكانه جالس، يدقُّون بقبضة اليد على الْمِنَصَّة ويُلقون الخُطب، يثرثرون بأصوات عالية وهو صامت، يتكلمون في وقت واحد يقاطعون بعضهم بعضًا، وإذا تكلم أحمد حلمي صمت الجميع.

حين التقيت لأول مرة بشريف حتاتة عام ١٩٦٤ تذكرت أحمد حلمي عام ١٩٥١، برزت ملامحه من العدم، الجبهة العريضة، والشَّعر الأسود الغزير، الحاجبان الكثيفان، العينان، الأنف، الصَّوت، المشية فوق الأرض، الكلام القليل والعمل في صمت، مات أحمد حلمي بعد أن عاد من الحرب مهزومًا، ماتت الروح قبل أن يموت الجسد، كان يحقن نفسه بالسم لينسى الخيانة، مات شهيد الوطن مثل أحمد المنيسي دون أن يُقام له حفل تأبين.

كان زعماء الطلبة مثل زعماء الأحزاب السِّياسيَّة، تعلموا منهم قواعد اللعبة، لم يُستشهد منهم أحد، لم تسقط من أحدهم قطرةُ دم، أصبح فؤاد محيي الدين وزيرًا للصِّحة ثم رئيسًا للوزراء، كان في كلية الطِّب ضمن اليسار، عضو لجنة العمال والطلبة، وفي عهد عبد النَّاصر كان يخطب عن الاشتراكية والقطاع العام، وفي عهد السَّادات لم يعترض على شيء، جلس في مقعد رئيس الوزراء، يتلقى التوجيهات من السَّيِّد الرَّئيس، الانفتاح والرَّأسمالية والسُّوق الحرة والقطاع الخاص، ثم سقط في مكتبه ومات بالسَّكتة القلبيَّة وهو رئيس الوزراء في عهد حسني مبارك.

التقيت بفؤاد محيي الدين لأوَّل مرة عام ١٩٥١، في اجتماعات طلبة كلية الطِّب بالمدرج الصَّغير، تخرَّج قبلَنا بعِدَّة سنوات وتخصَّص في الأشعة، طويل القامة نحيف الجسم أنيق الملابس يشبه الطاووس، عيناه تتجاوزان كلية الطِّب إلى وزارة الصِّحَّة ومجلس الوزراء. التقيت به أكثر من مرة وهو وزير للصِّحة، كنا نتحدث في الأدب والإبداع، تتجاوز عيناه جدران مكتبه ويتنهد قائلًا: كنت أتمنى أن أكون أديبًا مبدعًا مثلك ومثل يوسف إدريس. ثم يضحك، إيه رأيك يا نوال نتبادل المواقع، تبقي أنتِ وزير الصِّحَّة وأنا أديب مشهور في العالم زيك. أضحك وأقول له: إذا بقيت وزيرة الصِّحَّة لازم يرفدوني بعد أسبوع.

صوت أبي الميت كان يهمس في أذني، الوزير يأتي بقرار ويذهب بقرار، والأديب لا أحد يعيِّنه ولا أحد يعزله إلا قلمه.

لم يكن فؤاد محيي الدِّين صديقًا، رغم حديثنا عن الأدب والفن، كان هناك حاجز زجاجي يقف بيني وبينه، ربما كنت أحس أن ميوله السِّياسيَّة تحجب ميوله الأدبية، أن طموحه في المنصب العالي أكثر من طموحه الأدبي. يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ كان لقائي الأخير بفؤاد محيي الدِّين، كان جالسًا إلى جوار رئيس الدَّوْلة حسني مبارك فوق الكنبة المذهَّبة في قصر العروبة، إلى جواره محمد حسنين هيكل، ثم فؤاد سراج الدِّين، وشخصيات أخرى ممن أدخلهم أنور السادات السِّجن قبل اغتياله بشهرٍ واحد. هذه الاعتقالات عُرفت باسم مذبحة سبتمبر الأسود عام ١٩٨١، كنت واحدةً من المسجونات، ثم أصدر حسني مبارك قرارًا بالإفراج عن الدفعة الأولى من المسجونين بعد اغتيال السادات بشهرين، انفتح بابُ السِّجن في صباح ذلك اليوم وحملوني من الزنزانة داخل سيارة فولكس فاجن إلى قصر العروبة، حيث استقبلَنا رئيس الدَّوْلة ورئيس الوزراء فؤاد محيي الدين.

كنت أرتدي حذائي الكاوتش، أخفيت داخلَه رسالة إلى رئيس الدَّوْلة أطالبه بالتَّحقيق في جريمة اعتقالي دون سبب إلا كتابة رأيي، قبل الاجتماع أخرجت الرسالة من حذائي وناولتها لرئيس الدَّوْلة، قرأها كلها حتى آخرِ سطر ثم قال لي: معلهش يا دكتورة نوال.

رنَّت كلمة «معلهش» في أذني غريبة، هل يضعونني في السِّجن دون جريمة ثلاثة شهور ثم يقولون لي معلهش؟ ألقى رئيس الدَّوْلة علينا خطبة عن نظامه الجديد في ظل الدِّيموقراطيَّة والحرية والقانون، علينا أن ننسى الماضي ونتطلع إلى المستقبل، قال بلغته هذه الحروف: بلاش ننبش القبور. وكان يعني أن ننسى فترة السِّجن، أن ننسى ما فعله السَّادات بنا، وأن ننتظر ما يفعله الرَّئيس الجديد.

لم يقنعني هذا الكلام، كنت أرى أن تقييمَ الماضي ضرورة لعدم تكرار الأخطاء، وأن التَّحقيق فيما حدث يتمشَّى مع القانون، ثم لماذا ينتظر النَّاس دائمًا ما يفعله رئيس الدَّوْلة، لماذا لا يعملون بدلًا من مجرد الانتظار؟ ولماذا يصبح رئيس الدَّوْلة هو الفرد الوحيد الذي يعمل والذي يتخذ القرار ونحن علينا أن نجلس في بيوتنا وننتظر؟

بدأ فؤاد سراج الدِّين يتكلَّم بعد أن انتهى رئيس الدَّوْلة من كلمته، قال فؤاد سراج الدين: يا سيادة الرَّئيس، لقد أنابني زملائي لأتكلم عنهم. دُهشت لهذه العبارة الأولى؛ لأنَّ أحدًا لم يأخذ رأيي في موضوع الإنابة هذه، كان عددنا ثلاثة وعشرين شخصًا، منهم واحد وعشرون رجلًا، وامرأتان فقط، أنا واحدة منهما، سألت زميلتي: هل تعرفين شيئًا عن هذه الإنابة؟ هزَّت رأسها بالنَّفي، سألت الزَّميل الجالس إلى جواري، فقال: لا أعرف شيئًا يا دكتورة نوال، لكنِّي سمعتُ أنَّ محمد حسنين هيكل اقترح على اثنين من أصدقائه

المقربين إنابة فؤاد سراج الدين للتَّحدث نيابة عن الجميع، وأبلغوا رئيس الوزراء الدُّكتور فؤاد محيي الدين بهذا القرار لإبلاغه للسَّيِّد الرَّئيس، وبالطبع لم يأخذ رأينا أحد. قلت: كيف ينوب عنَّا أحد دون أن نعلم؟ هذا تصرف غير ديموقراطي ... كيف نقبله نحن الذين دخلنا السِّجن؛ لأننا اعترضنا على التَّصرفات غير الدِّيموقراطيَّة؟ ابتسم الزميل في أسًى وقال: يا دكتورة نوال الأفضل أن نسكت وإلا أعادونا إلى السِّجن!

لم يُعبِّر فؤاد سراج الدين عما كان يَجِيش في صدري، رفعت يدي وطلبت الكلمة بعد أن انتهى من كلمته، رمقتني بعض العيون بشيء من الضِّيق، ثلاثة أو أربعة من كبار الأسماء الذين كانوا داخل السِّجن بالأمس ثم أصبحوا اليوم شيئًا آخر، يتطلعون إلى رئيس الدَّوْلة ورئيس الوزراء ويرمقون المساجين الآخرين شَزْرًا.

أعطاني رئيس الدَّوْلة حق الكلام، تكلمت، قلت كل ما عندي في أقل من خمس دقائق، تشجَّع بعض المسجونين الآخرين وطلبوا الكلمة، ربما تَلَعْثَمَ أحدُهم خوفًا أو رعبًا، إلا أنَّه فتح فمه وعبَّر عن رأيه، زميلتي المسجونة تكلمت وطلبت حماية النِّساء الحوامل في السِّجن، وتكلَّم شابٌّ عن رعاية صغار السِّن وعدم تعريضهم للضَّرب أو التَّعذيب ... وفجأة رأيت محمد حسنين هيكل ينظر في ساعته فوق معصمه، وقال هذه العبارة: أظن أنَّ وقت السَّيِّد الرَّئيس ثمين ولا يسمح بمزيد من الكلمات وأقترح قفل باب الحديث.

في لقاء لي مع محمد حسنين هيكل بعد بضعة شهور سألته: لماذا قلت هذا الكلام، وهل وقت الرَّئيس أثمن من وقت ثلاثة وعشرين شخصًا دخلوا السُّجون دون جريمة؟ وإذا كان هو لم يقفل باب الحديث لماذا تقفله أنت وكنت مسجونًا معنا؟ ثم لماذا لم تأخذوا رأينا في موضوع إنابة فؤاد سراج الدين ليتكلم عنا؟ ألم تفعلوا بنا ما يفعله أي حاكم دكتاتور رغم أنَّكم تكتبون عن الدِّيموقراطيَّة؟!

كان شريف معي في هذا اللقاء وسمعني أقول هذا الكلام، نظر إليه محمد حسنين هيكل وقال: الدُّكتورة نوال صعبة أوي مش كده ولا إيه يا دكتور شريف؟ ابتسم بهدوء وقال: نوال تُعبِّر عن رأيها وهذا حقُّها.

بعد اللِّقاء مع رئيس الدَّوْلة يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٨١ خرجت من قصر العروبة، قالوا لنا داخل القصر: إنَّ قرار الإفراج صدر ويُمكننا العودة إلى بيوتنا. اجتزت حديقة القصر الكبيرة أشم رائحة الزهور، رمقني أحد الصَّحافيين فأقبل نحوي، نظر إلى حذائي الكاوتش مندهشًا، وقال: أتقابلين رئيس الدَّوْلة بهذا الحذاء الكاوتش؟! قلت: ولماذا تنظر إلى حذائي يا أستاذ؟!

وقفت عند محطة الأتوبيس أنتظر سيارة أجرة تحملني إلى بيتي في الجيزة. فوق الأرض وضعت حقيبتي بها ملابس السِّجن، أرمق النَّاس وهي تمشي في الشَّارع، كيف يمشون هكذا دون أن تقبض عليهم الشُّرطة، كأنما لم أمشِ في الشَّارع أبدًا بهذه الحريَّة؟ كأنَّما رجال البوليس سوف يأتون بعد لحظة لإعادتي إلى السِّجن. لم تكن كلمتي أمامَ رئيس الدَّوْلة هي الكلمة المطلوبة، انتزعتُها من بين بَراثِن السُّلطة وزملاء السِّجن. لم يطلبها أحد، لم يرغب في سماعها أحد. تقلصت وجوه الرِّجَال حين تكلمت، بما فيها وجه رئيس الدَّوْلة، كيف تتكلم امرأة بهذا الشَّكل في أمور لا يتكلم فيها أحد. كلمة فؤاد سراج الدين لم تخرج عن تقديم الشكر والامتنان لرئيس الدَّوْلة؛ لأنَّه أطلق سراحنا. كلمة زميلتي لم تخرج عن طلب حماية المرأة الحامل في السِّجن باسم الشَّفقة، كلمة الشفقة تطرب لها آذان الرِّجَال، الشَّفقة بالمرأة الحامل الضَّعيفة، ضَعف النِّساء يُؤكِّد قُوة الرَّجل، الرُّجولة هي القوة والقوامة، الرِّجَال قوامون على النِّساء. زميلة السِّجن كانت ترتدي الحجاب، تؤكِّد به هوية الأنثى التي يطلبها الرِّجَال. لم تتقلص الوجوه حين تكلمت الزميلة المحجبة، خرجت من السِّجن وأصبحت صورتها في كل مكان، تكتب في صحف الحكومة والمعارضة، تتحدث باسم الإسلام والتراث والحجاب، أصبح لها مقال أسبوعي في إحدى الصُّحف الحكومية الكبرى، صورتها بالحجاب على رأس المقال، على وجهها ابتسامة أنثوية ناعمة، شفتاها متوردتان.

أمام باب الشَّقة في الجيزة وضعت حقيبتي على الأرض، رأيت اسمي فوق رقعة نحاسية صغيرة، ضغطت على الجرس، فتح شريف الباب، مش معقول! أي مفاجأة! كان يظن أنَّني في السِّجن، لم يُنشر الخبر بعدُ في الصُّحف. ألقيت ملابس السِّجن في صفيحة القُمامة، وأخذت حمَّامًا ساخنًا، تمددت فوق السَّرير النَّظيف الدافئ، الْمُلاءة بيضاء ناعمة تفوح برائحة صابون معطر، أدفن رأسي في الوسادة النَّاعمة، أغمض عيني كأنِّي في حُلم سأصحو منه بعد لحظة، وأجد نفسي في زنزانة السِّجن.

جاءني ابنتي منى وابني عاطف من المدرسة آخرَ النهار، أخفاني شريف في الغرفة ليصنع لهما المفاجأة، أراهما من ثقب الباب جالسَيْنِ في الصالة، سحابة من الحزن تطفو فوق الوجهين الحميمين، عيون أطفال خطف بريقَها غيابُ الأم، خيالهما قادر على اختراق جدران السِّجن، يكسر القضبان الحديد، يرى الأم جالسة فوق الأرض، تكتب بأصابعها فوق التراب رسالةً إلى أطفالها.

في صباح اليوم التالي قرأ شريف الصُّحف، خبر الإفراج عن المسجونين في الصفحة الأولى، برقيات التهنئة إلى السَّيِّد رئيس الدَّوْلة يتبارى على نشرها الكتَّاب المعروفون، ذَوُو الأعمدة اليومية الثابتة أو المقالات الأسبوعية الطويلة، لم يفتح أحدُهم فمَه حين صدر قرار الاعتقال، وتم حبس أكثر من ألف شخص دون تحقيق ودون جريمة، كتب أغلبهم يؤيدون قرار الحبس، وصمت الباقون. قلت لشريف: الصمت في مثل هذا الوقت جريمة أو على الأقل مشاركة في الجريمة.

في جريدة الأهرام ظهرت برقية التهنئة لرئيس الدَّوْلة بقلم يوسف إدريس، الكاتب الكبير، ظهر اسمه بالبنط العريض، كأنما هو بطل الإفراج عن السِّجناء، لا يفوقه بطولة إلا رئيس الدَّوْلة، أصبح البطلان محَطَّ الأنظار، واختفى المسجونون داخل البيوت أو بين السُّطور، لا تُنشر أسماؤهم إلا بالبنط الصغير جدًّا، لا يكاد يُرَى بالعين المجرَّدة.

حين كنت في السِّجن كتبت رسالة إلى توفيق الحكيم ويوسف إدريس، قلت لتوفيق الحكيم: أنت رئيس اتِّحاد الكتَّاب، ورئيس لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وأنا عضوة باتحاد الكتَّاب، وعضوة بلجنة القصة، وقد دخلت السِّجن دون تحقيق ودون جريمة، أرجو أن ترفع صوتك ضد هذا الحبس غير القانوني، وأن ترسل مندوبًا من اتحاد الكتاب ليكتب تقريرًا عن حالة الزنزانة التي أعيش داخلَها.

وفي الرسالة نفسها إلى يوسف إدريس قلت له: أنت زميل لي في اتحاد الكتاب ولجنة القصة، ولك مقال أسبوعي بجريدة الأهرام، أرجو أن تكتب شيئًا ضد قرار الحبس دون تحقيق ودون جريمة.

لم ينطق توفيق الحكيم أو يوسف إدريس بكلمة واحدة، لم يجتمع اتحاد الكتاب ليقرر إرسال مندوب ليرى حال الزنزانة، وفجأة بعد قرار الإفراج يخرج يوسف إدريس عن صمته ويرسل إلى رئيس الدَّوْلة يهنئه بعبارات التمجيد والولاء.

بعد أيام جاء يوسف إدريس إلى بيتنا في زيارة، قال: إنَّه جاء للتَّهنئة، وكان يريد أن يشتري لي باقة ورد، لكن جميع محلات الورد كانت مغلقة. وضحك شريف، يا يوسف بلاش مبالغة، معقول كل محلات الورد قفلت؟! سهر معنا يوسف إدريس تلك الليلة، ربما كان تحت تأثير مادة الماكسيتون التي أدمن عليها مثل أحمد حلمي، يصبح لسانه ثقيلًا في الكلام، يحتقن وجهه ويتورم قليلًا، يداه أيضًا تتورمان، يميل إلى السهر والكلام دون انقطاع، يصور له الوهم أنه بطل.

– عارف يا شريف مين السبب وراء صدور قرار الإفراج عن المساجين؟

– مين يا يوسف؟
– أنا يا شريف، أنا اللي ...

شريف يستمع إليه، يبتسم بهدوء ونوع من السُّخرية الخفيفة، يعرف أن يوسف إدريس لم يرُدَّ على رسالتي، ولم يكتب كلمة واحدة ضد قرار الحبس، وأنَّه يعيش وهم البطولة منذ كان طالبًا في كلية الطِّب، وأن مادة الماكسيتون المنبهة تَسري في دمه، تصور له الوهم كأنَّما هو الحقيقة.

كان يوسف إدريس يجلس أمامي منفوخًا بالماكسيتون وغرور العظمة، أصبح يحمل لقب الكاتب الكبير، وأصبحت أنا السجينة رقم ١٥٣٦. الألم في عمودي الفقري، والنَّوم فوق أرض الزنزانة، صمت الزُّملاء والزَّميلات من الكُتَّاب والأدباء، وصمت نقابة الأطباء، أرسلْتُ رسالة إلى نقيب الأطباء فلم يرد.

تلك الليلة لم يَكُفَّ عن الكلام، يقول إنَّه السَّبب وراءَ خروجنا من السِّجن. وكان شريف يتثاءب ويريد أن ينام، وأنا أيضًا مللت كلامه عن بطولته الوهميَّة، وقلت وأنا أتثاءب: أعتقد يا يوسف أنَّك في حاجة إلى الذهاب إلى بيتك لتنام. قال: ولكني لا أريد أن أنام. قلت: ولكننا نريد أنا وشريف أن ننام. نهض متثاقلًا واقفًا فوق قدميه، وقال: عرفتِ يا نوال أنَّنِي كنت السَّبب وراءَ قرار الإفراج عنكم؟ قلت: وكيف أعرف وأنت لم تنطق بكلمة واحدة حين كنَّا في السِّجن؟!

مثل البالونة المنفوخة بالهواء تثقبها إبرة رفيعة، انكمشت البالونة وجلس يوسف إدريس بعد أن كان واقفًا، رمقني بشيء من الغضب، لم أنسَ أنَّه صَمَتَ حين كان الكلام واجبًا. أكثر ما كان يغضبه أنه لم ينس هو أيضًا، أكان ضميره يؤرِّقه؟! أكان يحقن نفسه بالماكسيتون لينسى دون أن ينسى؟! كان أحمد حلمي يقول: الماكسيتون ليس مثل المخدرات يُضعف الذاكرة، إنَّه أخطر المنبهات جميعًا، يُشعل الأحاسيس، تلتهب خلايا العقل إلى حد نسيان كل شيء، مع ذلك تظل الذاكرة مشتعلة لم تنسَ شيئًا.

أوَّل مرة أسمع عن قائمة الموت أو إهدار الدم كان عام ١٩٨٨، أرسلت الحكومة حراسة أمام بيتي في الجيزة، وبودي جارد لحماية حياتي، لم أكن أدرك فكرة إهدار الدم، لم أسمع اسمي يرنُّ في الليل من فوق الجوامع. وقال شريف: ما رأيك أطلب لطيفة الزَّيَّات في التليفون، لا بد أن لديها بعض معلومات؟

لم تشأ لطيفة الزَّيَّات أن تتكلَّم عبر الأسلاك. أنت عارف يا شريف، التليفونات عليها رقابة، أنا جاية الجيزة ويمكن أمر عليكم بالبيت، بوسلي نوال يا شريف.

كانت لطيفة الزَّيات صديقتي منذ نهاية السِّتينات نلتقي بصفة منتظمة في اجتماعات لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وكان لها أخ يحتل منصبًا كبيرًا في الدَّوْلة، يلتقي بالسَّادات أحيانًا، يهمس لأخته لطيفة أحيانًا بمعلومات لا يعرفها أحد. حين فقدت منصبي في وزارة الصِّحَّة في أغسطس عام ١٩٧٢ همست لطيفة في أذني: السَّادات بيقول لسانك طويل. وأطلقت ضحكتها العالية على شكل قهقهات متقطعة، ومدت يدها البضَّة النَّاعمة وأمسكت يدي، وراحت دون انقطاع، يتورَّد وجهها الممتلئ، يقفز الخدان المكتنزان إلى أعلى، يضغطان على العينين الصغيرتين، تنغلق الجفون إلا من شق ضيق يطلُّ منه جزء من النِّني على شكل خط أسود، يصبح وجهها مستديرًا كوجوه الأطفال، يهتز جسمها المربع الممتلئ. أسمع ضحكتها في الشَّارع قبل أن أدخل بيتها، تذكرني بضحكة أمي، لكن جسد أمي لم يكن يهتز، وكان لضحكتها رنين في الجو يشبه رنين الفضة المجلوَّة. لم تكن أمي تدخن ولم يكن صوتها مبحوحًا أو مشروخًا بالدخان. كنت أضحك مع لطيفة وأقول لها: أنتِ مدخنة يا لطيفة. تموت على نفسها من الضَّحك، ثم تصمت فجأة، تكسو وجهَها سحابةُ حزن وتقول: أعمل إيه يا نوال، خلاص ما فيش لذة في حياتي إلا دي. وتشير إلى السيجارة بين شفتيها.

كانت تجلس إلى جواري في لجنة القصة، يجلس توفيق الحكيم عند رأس المائدة؛ فهو رئيس اللجنة، يجلس نجيب محفوظ وثروت أباظة عن يمينه، ويجلس يوسف إدريس ويوسف الشاروني عن يساره. يفتح توفيق الحكيم الحديث عن الاشتراكية والرَّأسمالية، ثم يطرح السؤال: هل الله اشتراكي أم رأسمالي؟ يقهقه يوسف إدريس ويقول: أعتقد أنه من أهل الوسط يا أستاذ توفيق. تقهقه لطيفة الزَّيات وتقول: يعني قصدك من الحكومة؟

لم يكن مثل هذا الحديث يعجب بقية الأعضاء، لكن أحدًا لم يكن يعترض على الرَّئيس، منذ الإله أخناتون ورمسيس الأول، يحترم المصريون الملوك والرؤساء. يدرك توفيق الحكيم هذه الحقيقة ويسترسل في حديثه متجاوزًا الخطوط الحمراء، يحكي بعض الفكاهات عن الملك فاروق، يضحك يوسف إدريس ويقول: النكتة دي فيها إسقاط يا أستاذ توفيق؟ إسقاط على مين يا يوسف؟! وينفجر أعضاء اللجنة بالضَّحك، تتصاعد القهقهات مع دخان السَّجائر حتى السَّقف.

ثم ينتقل توفيق الحكيم من السِّياسة إلى المرأة، لا يمل الحديث عن المرأة، رغم أنه كان يحمل لقب عدو المرأة. تلمع عيناه وهو يتحدث، تدوران على وجوه الرِّجَال أعضاء لجنة القصة، ثم تثبتان على وجه واحدة من الأديبات.

رغم كهولة توفيق الحكيم كان يتمتَّع بحيوية تفوق الشَّباب، شعره الأبيض مع البريق في العينين يُضفي عليه جاذبية خاصَّة. تنقضي السَّاعة وراءَ السَّاعة وهو يحكي النَّوادر والفكاهات عن أيام شبابه، يحرك رأسه ويديه في حماس ويقول: المرأة ملاك أو شيطان ولا ثالث لهما. يهتف أعضاء اللَّجنة في نفَس واحد على رأسهم يوسف إدريس: تمام يا أستاذ!

يرمقني توفيق الحكيم بطرف عين، يراني صامتة مترفعة عن الرَّد، أفكِّر في شيء آخر، تطلق لطيفة الزَّيات ضحكتها، القهقهة المتقطعة المتصلة، تشعل سيجارة جديدة بأصابع ترتعش قليلًا، يهتز جسمها مع الضَّحك، تمد يدها المهتزة تحت المائدة وتمسك يدي، تقرب فمها من أذني وتهمس: عينه عليكي يا نوال!

– مين يا لطيفة؟

– يعني مش عارفة؟!

حين دخل اسمي قائمة الموت عام ١٩٨٨، همستْ لطيفة الزَّيات في أذني: بيقولوا يا نوال روايتك سقوط الإمام فيها إسقاط!

– إسقاط!

– أيوه يا نوال.

– إسقاط على مين؟!

– على السَّادات.

– ده مات يا لطيفة من سبع سنين!

– بيقولوا لسه عايش.

وأطلقت ضحكتها الطَّويلة المتقطعة الأنفاس، أشعلتِ السِّيجارة وراءَ السِّيجارة، تحكي لي الحكاية المرة بعد المرة، تنسى أنَّها حكَتْها من قبل، ترتعش أصابعها وهي تُشعل عود الكبريت، تضحك بعد كل عبارة تنطقها وتمد يدها لِتُمسك يدي.

عام ١٩٩٢ دخل اسمي قائمة الموت مرَّة أخرى، وضعتِ الحكومةُ حراسةً مُسلَّحة أمام بيتي في الجيزة، وبودي جارد يُرافقني ليل نهار، قال شريف: حياتك في خطر يا نوال، ولا بد من السَّفر إلى مكانٍ بعيد.

لم نكن نعرف من أين تنطلق الرَّصاصة، من الجماعات الإسلامية أم من الحرَّاس؟ كانت صديقتي القديمة بطَّة في مؤتمر إعلامي دولي في لندن، وكانت سامية في نيويورك في مؤتمر نسائي دولي، جاءت صفية إلى بيتي وسألتني: هل لطيفة الزَّيات صديقتك يا نوال؟ قلت لها: نعم، هي صديقتي. قالت صفية: غريبة أوي، ليه هي بتقول كلام ضدك يا نوال؟ كلام ضدي؟ يمكن مجرد إشاعات يا صفية. لأ يا نوال، ده كلام مكتوب في المجلة، خدي اقري يا ستِّي!

كانت مجلة أدبيَّة عربيَّة، وحوار أجرتْه إحدى الصَّحافيات مع لطيفة الزَّيات، سألتْها هذا السُّؤال: كيف تفسرين نجاح روايات نوال السعداوي المترجمة إلى اللُّغات الأجنبية؟ جاء رد لطيفة الزَّيات؛ لأنَّ نوال السعداوي تكتب للغرب!

قبل ذلك بأيام قليلة كانت لطيفة الزَّيات في بيتي، كانت تقول لي: إنَّنِي أهم روائيَّة عربيَّة، وإنَّها سوف تُصدر كتابًا نقديًّا عن أعمالي الأدبيَّة. كانت تتحدث بحماسٍ، وتضحك مع شريف وتقول له: أنت يا شريف كاتب مبدع، روايتك «الشبكة» جميلة جدًّا، هل تنوي ترجمتها إلى الإنجليزية؟

– دي رواية طويلة جدًّا يا لطيفة.
– وما له؟
– أنا مشغول بترجمة روايات نوال.
– اشمعنى يعني؟
– روايات نوال بتعجبني.

عام ١٩٨٠ ظهر أوَّل كتاب لي باللغة الإنجليزية، كان شريف هو الذي تحمَّس لترجمته، نجح الكتاب وتُرجم إلى لغاتٍ مُتعددة، ومن بعده بدأ النَّاشرون في أنحاء مختلفة من العالم يطلبون ترجمة كتبي الأخرى.

وأصبح جرس التِّليفون يَرن في بيتنا، الأدباء الكبار يأتون إلينا في زيارات مفاجئة، جاء عبد الرحمن الشَّرقاوي يحمل عددًا من كتبه، أَهْدَاها لِي ولشريف. بعد أن انتهت الزِّيارة، قال لشريف وهو يودِّعه على الباب: «عندك كارت بلانش، إذا شفت إن كان كتاب من كتبي ممكن ترجمته ونشره في لندن!» وقال شريف بهدوء: «أنا روائي ولست مُترجمًا يا عبد الرحمن.» كانت الزِّيارة الأولى والأخيرة لعبد الرحمن الشَّرْقاوي، قرأنا نَعْيَه في جريدة الأهرام بعد شهور قليلة. وكان يوسف إدريس يضحك مع شريف، يُداعبه ويقول: يعني اشمعنى نوال يا أخي اللي أنت نازل ترجمة لرواياتها، ما تترجم لي رواية أو مجموعة

قصص يا شريف! ويضحك شريف معه ويقول: لازم تعملي شوية إغراءات يا يوسف، ثم أنت عندك الحكومة كلها ومؤسساتها والمترجمين بتوعها.

قرأ شريف معي ما كتبته لطيفة الزَّيات عنِّي، وبدأ عددٌ من الماركسيين والماركسيات يُردِّدون ما قالته لطيفة، وعدد من النُّقاد الأدباء والأديبات العاجزين عن نشر أعمالهم في الخارج. كان نجاح روائية مصرية خارج البلاد أمرًا غير مألوف، وهي لا تتبع لا الحكومة ولا حزبًا ولا المجلس الأعلى للثقافة.

حين عادت سامية من الخارج قالت لي: واللهِ يا نوال حاجة تفرَّح إنْ كاتبة مصرية تحصل على هذا التَّقدير والاحترام في العالم. قلت لها: وما رأيك فيما أشاعته صديقتك لطيفة؟ مطَّت سامية شفتيها الرَّفيعتين وقالت: شيء طبيعي يا نوال، أنا كمان باحقد عليكي، الغيرة تنهش قلبي وأحيانًا أقول يا رب تموتي يا نوال!

يضحك شريف، ويقول: أنا باحب صراحتك يا سامية، لكن المشكلة ليست الغيرة أو الحقد، المشكلة إن نوال كاتبة مستقلة لا تستند إلا على قلمها، ويمكن أن تنقد الشرق والغرب والحكومة والمعارضة واليسار واليمين، والمشكلة أيضًا تتعلق بالْمُناخ العام والإحباط ... لطيفة الزَّيات ويوسف وكثير من الأصدقاء كانوا زملاء لي في الحركة الدِّيموقراطيَّة للتَّحرر الوطني، حين بدأنا الحركة عام ستة وأربعين ضد الملك والإنجليز كان الْمُناخ العام أفضل من اليوم، كنَّا في مرحلة الشَّباب عندنا مبادئ وحماس وأمل، الْمُناخ الجيد يُبرز أحسن ما في الإنسان، لكن الحركة ضُربت ودخلنا السُّجون، لم يهزمنا السِّجن لكننا انهزمنا من الدَّاخل، تفكَّكت الحركة، وتفرَّق الزُّملاء، وانتشرت الإشاعات، الْمُناخ السيئ يُبرز أسوأ ما في الإنسان، وأنتِ يا نوال من جيل آخر جاء بعدنا.

أمَّا جيلنا فقد تمزَّق بين الطُّموح والإحباط، بين تأييد السُّلطة ومعارضتها، لطيفة الزَّيات هي المثل على ذلك، هذه الضَّحكة العصبيَّة دليل على التَّمزُّق والإحباط، رعشة الأصابع والإفراط في التَّدخين، وابتلاع حبوب الفاليوم. إنَّها تعرف تمامًا أنَّك ناقدة للغرب أكثر منها، وتعرف أيضًا أنَّ الغرب ليس شيئًا واحدًا، وهناك في الغرب من هم أكثر تقدُّمًا وأكثر اشتراكية من الاشتراكيين عندنا، المسألة ليست غرب وشرق، هي تعرف ذلك، ويوسف إدريس يعرف ذلك، لكن المسائل الشَّخصيَّة تتغلَّب على المسائل العامَّة، والإحباط يُولِّد الإشاعات، وما معنى أن يكتب أديب أو أديبة للغرب أو للشَّرق. وأغرب شيء هؤلاء الَّذين يقولون: إنَّ الأعمال الأدبية النَّاقدة لمجتمعنا تسيء إلى سمعة مصر في الخارج! أعظم الأعمال الأدبية لا بد أن تكون ناقدة لمجتمعها، أهم أعمال يوسف إدريس أو نجيب محفوظ

الأدبية هي التي نقدت النِّظام الحاكم، وأشكال الظُّلم أو القهر في بلادنا؛ لكن يوسف إدريس ونجيب محفوظ في الأهرام، أكبر جريدة حكوميَّة في مصر، وهما جزء من النِّظام، يتمتَّعان بحصانة السُّلطة، وقد ترجمت أعمالهما إلى اللغات الأجنبية عبر وزارة الثَّقافة أو المجلس الأعلى للثقافة، وكلها مؤسسات حكومية؛ لكن أعمالهما لم تنجح في الخارج كما نجحت في مصر؛ لأنَّ النَّجاح الأدبي في بلادنا لا يعتمد على جودة العمل فقط ولكن على الدعم الحكومي أيضًا، ولا يمكن للكاتب أن يَشْتَهِر ويحمل لقب كاتب كبير دون أن تكون له علاقات طيبة بالمسئولين الكبار، وهذه هي المشكلة بالنسبة لك يا نوال أو غيرك من الأديبات أو الأدباء الذين لا يسيرون في فلك السُّلطة.

إنَّ السُّلطة في مصر تملك كل مؤسسات الثَّقافة والنشر والإعلام والتَّرجمة، ويُمكنها أيضًا مُصادرة أعمالك، وتشويه سمعتك، لكنَّها لا تملك مصادرة أعمالك المترجمة في الخارج. شاءت الصُّدف يا نوال أن تتزوجي شريف حتاتة، وأن يقوم شريف بترجمة رواياتك! أتعرفين يا نوال آخر إشاعة عنك؟ يقولون: إنك تزوجتيني لأترجم أعمالك! كان شريف يضحك، يحاول أن يُخفف عني وطأة الألم.

كنت في بداية يناير ١٩٩٢، نتأهَّب للرَّحيل إلى المنفى، أصبح الخطر يحوطنا من كل جانب، يتحدث النَّاس كلَّ يومٍ عن قوائم الموتى، الأسماء التي تم إهدار دمها، جرائم تحدث دون أن يُقبض على القتلة، الهمس يدور بين النَّاس، لا يعرفون الوهم من الحقيقة، ولا الإشاعات من الحقائق. كانت الحراسة المسلحة أمامَ بيتنا، والبودي جارد يتبعني حيثما أذهب، لا أعرف من أين تنطلق الرَّصاصة. في النَّوم أرى دمي مهدرًا فوق أسفلت الشَّارع، تزحف قشعريرة باردة إلى جسدي من الرَّأس إلى بطن القدمين، والصَّوت يزعق: اقتلوها الكافرة عدوة الله والإسلام.

الصُّورَةُ الممزَّقَةُ

كنتُ غارقة في النَّوم، رأيت أبي جالسًا في الصَّالة يقرأ، رفع عينيه إليَّ واندهش قليلًا. نوال؟! متى جئتِ؟ كيف كان الحفل؟ تساءلْتُ في دهشة: أي حفل؟ قال: حفل نقابة الأطباء. عادت ذاكرتي في الحُلم أربعين عامًا إلى الوراء، قلت لنفسي: هل يذكر هذه الليلة؟! إنَّها الليلة التي مات فيها، الخميس ١٩ فبراير ١٩٥٩، أراه جالسًا في الصَّالة يُحدِّثني وأعرف أنَّه ميِّت. انتهى القرن العشرون أصبحنا في القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة، الرقم ٢٠٠٠ إلى جوار تاريخ اليوم يبدو غريبًا، ياه، سنة ٢٠٠٠؟! لم أكن أعرف أنني سأعيش حتى القرن الواحد والعشرين، كأنَّما أختلس من الزَّمن قرنًا جديدًا وأعود طفلة في السَّابعة من العمر أتذكر طفولتي. تبدو أقرب مما كانت، وكانت تبدو بعيدة في الماضي، كان الأمس يبدو كأنَّه العام الماضي أو القرن الماضي، ثم تَغَيَّر الزَّمن مع التَّقدُّم في العمر، أصبح القرن الماضي كأنَّه الأمس، أرى وجه أبي الميت قريبًا، أكاد ألمسه بأطراف أصابعي رغم مرور نصف قرن، أكاد أسمع وقع قدميه على البلاط في الصَّالة، في المرآة يُطالعني وجهه كأنَّما لم يَغِب أبدًا. يقول لي شريف: إن الحزن على فراق أبي لم يفارقني. ربما هو يعرف حقيقتي أكثر مني، ربما كان حبي لأبي أكبر حب في حياتي، لا يفوقه إلا حبي لأمي، قلبي يَنُوء بحبها بعد أن فرَّقنا الموت، أيكون الفراق هو شرط الحب؟!

أفقْتُ من النَّوم على جرس التِّلفون، صوت سامية يقول: أنتِ نائمة والمظاهرات مشتعلة في جامعة الأزهر، وقد أذاعوا اسمك ضمن من أهدروا دماءهم من الأدباء، صوتها يأتيني كأنَّما في الحُلم، ألم يُهدروا دمي من قبل؟! ماذا تقولين يا لطيفة؟! أنا لست لطيفة يا نوال، أنا سامية، لطيفة ماتت من ثلاث سنين.

أفقت من النَّوم، النتيجة فوق الحائط مكتوب عليها التَّاريخ بخطٍّ واضح، ٩ مايو عام ٢٠٠٠، سمَّاعة التِّليفون لا تزال في يدي، صوت سامية يسري إلى أذني، وهي تقول: الشَّيخ في الجامع اللي جنب بيتنا عمل خطبة في الجمعة عليكي يا نوال، قال: إنَّ كتبك كلها كفر في كفر، والجماعات الإسلامية حركوا الطلبة في الأزهر عشان يعملوا مظاهرات ضد رواية نشرتها وزارة الثقافة، بيقولوا فيها كلام ضد القرآن، والطلبة في الأزهر هتفوا ضد وزير الثقافة وضد السَّيِّد الرَّئيس، يعني المسألة مش رواية، المسألة النظام كله، والطلبة غلابة مش عارفين حاجة، بيروحوا في الرِّجْلِين! وأنت يا نوال يُمكن يعملوك كَبْش فداء. الشَّيخ في الجامع كان بيحرَّض النَّاس ضدك، لكن تعرفي إيه اللي حصل؟ أخويا كان في الجامع بيصلي معاهم، قال لي: النَّاس خرجوا من الجامع بعد الصلاة وراحوا المكتبات يشتروا كتبك! قلت بصوت أبي الميت: رُبَّ ضارَّةٍ نافعة يا سامية. تنهدت بصوت حزين وقالت: يمكن اشتروها عشان يحرقوها مش عشان يقروها.

– يحرقوها يحرقوها، يا سامية!

– خسارة الكتب تنحرق يا نوال.

– الحريق يأكل الورق وليس الكتب يا سامية!

– الكتب مصنوعة من الورق ولا إيه؟

– أيوه في القرن الماضي، لكن إحنا في القرن الواحد والعشرين، يا سامية، والكتب أصبحت غير قابلة للحرق، تعبر القارَّات عبر الأثير دون الحاجة إلى ورق أو مطبعة.

– ممكن يحرقوا الكمبيوتر.

– الكتب ليست في الكمبيوتر.

– أمال فين يا نوال؟

– في اللوح المحفوظ من مادة غير قابلة للحرق.

– واللوح المحفوظ ده فين؟

– في السماء يا سامية.

– عند ربنا؟! (ضحكة قصيرة مكتومة تنمُّ عن عدم الإيمان في الطفولة، والإيمان في الكهولة).

– لأ يا سامية.

– أمَّال فين يعني؟

– اللوح المحفوظ ده اسمه «الديسك» من مادة صلبة قوية، وفيه ملايين النسخ، بلايين النسخ، تنتشر في الكون زي الفيروسات في الجو وتتكاثر عبر الإنترنت والويب، والقوى الإلكترونية المعروفة والمجهولة.

– وإيه القوة المجهولة؟

– فيه حاجة جديدة اسمها الكوارك أصغر من الإلكترون ويحمل طاقة أكبر، فيه قوى مجهولة داخل الذرة، وداخل خلية المخ، لا زال المخ مجهولًا يا سامية، مخ الإنسان، والخلية الحية والجينوم والذرة والكواكب والشمس والقمر والنجوم، لكن أهم حاجة إن الكتب لم تعُدْ قابلة للحرق!

كانت جدتي آمنة والدة أمي ترمقني بغضب وأنا في السَّابعة من عمري، تقول عني إنَّنِي لا أطيع مثل البنات في عائلة شكري بيه. كلما كانت جدتي تقول شيئًا غير مقنع أسألها ليه؟ تلسعني بالعصا الخيزران وتصرخ: مش عاوزة أسمع منك كلمة ليه دي أبدًا يا بنت ... فاهمة؟!

لم أكن أبكي كما تبكي البنات، أدق الأرض بقدمي بغضب، وأقول ليه تضربيني؟! يشتد غضب جدتي حين تراني أدق الأرض بقدمي، وحين تسمعني أُردِّد كلمة ليه، أكثر ما يغضبها أنَّها لا ترى في عيني أي دموع، إنَّها جدتي زوجة شكري بيه مدير القرعة العسكرية عاشت مقهورة وماتت مقهورة حبيسة البيت كالقصر وقبر من الرُّخام، لم يكن لها أن تُنَفِّسَ عن غضبها المكتوم إلا بلسع الأطفال بالعصا الخيزران، لم أعرف في طفولتي ماذا كان يغضبها، حتى همست أمي في أذني بالثالوث المقدس، الرب والأب والزَّوج، كنت أراها ترمق السماء بغضب وتقول: يا رب! لم تكن تنطق الكلمة الثَّانية ولا الثالثة، وسألت أمي: ليه مش بتنطق جدي، وضعت أمي يدها على فمي وقالت: اسكتي.

في الليل أصحو مختنقة بالدموع الحبيسة، تتجمع في حلقي كالغصة، أسمع شخير جدتي وهي غارقة في النَّوم، ملامحها تبدو مستسلمة بلا حول ولا قوة. في النهار تبدو قوية قاسية أتمنى موتها، في النَّوم تبدو ضعيفة مستسلمة، أكره قوَّتها بمثل ما أكره ضعفها، أود ألا تصحو وتموت وهي نائمة. أعود إلى النَّوم وأحلم أن جدي هو الذي مات، أكره جدي أكثر من جدتي، أدعو الله أن يأخذَه، أراه في الحلم نائمًا يشخر، أود أن أُطْبِق أصابعي حول عنقه. أنتفض من نومي مذعورة، أنهض من السَّرير وأمشي على أطراف أصابعي، أجلس في الفرندة الواسعة، أتذكر أن جدي مات منذ سنوات، الذي ترقد إلى جواري في السَّرير

هي خالتي فهيمة، وهي التي أسمعها تشخر في الليل، وهي التي أريد أن أُطْبِق على عنقها بأصابعي.

في ضوء مصباح الشَّارع كتبت في مفكرتي السِّريَّة: حين تراودني فكرة القتل أُمْسِك القلم وأكتب، أرى كلماتي فوق السُّطور تنتفض، لولا الكتابة لأمسكت السَّاطور وقتلتها أو قتلت نفسي.

بيت المرحوم جدي، ضاحية الزيتون، ١٩ أبريل ١٩٤٥

بعد ستة وثلاثين عامًا من هذا اليوم، وجدت نفسي داخل زنزانة في سجن النِّساء بالقناطر، كانت لي مفكرة سرية أخبئها تحت الأرض كما كنت أفعل في بيت جدي وأنا في الرابعةَ عشرةَ من عمري، يدي ترتعش بالغضب وأنا أكتب هذه الفقرة في مذكرات السِّجن: تتطلب الكتابة شجاعة مثل القتل، لو لم تعرف أصابعي القلم ربما عرفت الفأس أو الساطور، يدها، فتحية القاتلة، حين أمسكت الفأس وقتلت زوجها، تشبه يدي وهي تُمسك القلم، لا شيء في حياتي أثمن من القلم، الكتابة تتطلَّب شجاعة مثل القتل وأكثر.

سجن النِّساء بالقناطر، ١٤ نوفمبر ١٩٨١

كنت جالسة أكتب تلك الليلة من شتاء عام ١٩٦٠، حين دخل زوجي إلى غرفتي. أمامي فوق المكتب تراكمت الأوراق، رواية طويلة سهرت عليها طوال الليالي والشُّهور والسنين، كانت تنمو في أحشائي كالجنين، أحوطها بذراعي، أهدهدها في سكون الليل، رأسي يسقط وينام فوقها وأنا جالسة، أهبط معها إلى بطن الأرض حيث الصمت داخل الصمت.

كانت الرِّوَاية تأخذني إلى عالم آخر، أنسى فيه نفسي وابنتي وإخوتي وأقرب النَّاس من دمي ولحمي، فما بال رجل ليس من دمي ولا لحمي ولا يربطني به شيء، إلا ورقة زواج.

حين اقتحم غرفتي فجأة لم أتعرف على ملامحه، هذا الوجه الأبيض السمين المتورِّد لم يكن يجذبني في الرِّجَال، هذا الجسم المربع الممتلئ باللحم ينفرني في النِّساء فما باله بالرِّجَال، والعينان ليس فيهما ما أبحث عنه، والأنف ليست له الارتفاعة التي أحبها، والصوت ليست فيه النبرة التي تجذب أذني، كل شيء فيه ليس ما أريد في الرجل، فما بال أن يكون زوجي؟!

لا بد أنَّها امرأة أخرى تقمَّصت جسمي واسمي وذهبت معه إلى مكتب المأذون ووقعت العقد، امرأة غيري ساخرة عابثة لا تؤمن بالحب، ترتدي معطف الأطباء دون أن تؤمنَ بالطِّبِّ، تكره الرِّجَال والأمراض ورائحة المستشفيات، لم تدخل كلية الطِّب إلا من أجل أبيها الميت وأمها الميتة، تكره الزَّواج منذ الطفولة، لم تتزوَّج للمرَّة الثَّانية إلا لتمسح من ذاكرتها المرة الأولى.

كان زوجها الأول فدائيًّا، مات بعد أن عاد من الحرب، لم يبقَ منه إلا خيال رجل، وهذا الخيال أيضًا راح وسقط في العدم. قبل الزَّواج بدأت رواية طويلة. بعد الزَّواج كفَّت عن الكتابة، رقدت الأوراق فوق مكتبها مثل جثة هامدة.

كل ليلة حين أنام أظن أنَّنِي لن أصحو، في الصَّباح تعود إليَّ ذاكرتي مع ضوء الشَّمس، أرتدي ملابس الخروج، أحمل حقيبتي الجلدية السَّوداء الَّتي تُشبه حقائب الأطباء، أتذكَّر أنَّني تخرَّجت في كلية الطِّب وأصبحت طبيبة. السَّاعة فوق معصمي تُشير إلى الثَّامنة، أسرع الخَطْو في الطَّريق إلى المستشفى، أتوقَّف لحظة ألتقط أنفاسي، أتذكَّر أنَّني تزوَّجت ولي طفلة تحتاج إلى كوب لبن وزوج يحتاج فخذ دجاجة محمَّرة.

ذاكرتي مثل جبل الثلج تحت الماء، لا أكاد أعرف الزَّوج الأوَّل من الثَّاني، كلاهما كان يُحب فخذ الدجاجة المحمرة. صديقتي بطة تكركر بالضَّحك وتقول: حين ينطفئ النُّور يتساوى جميع الرِّجَال. تعترض صفية وتقول: لا يفرق بين الرَّجل والرجل إلا الحب. لم تكن سامية تؤمن بالحب، تقول عنه رومانتيكية طفولية، الحب وهم كبير يا نوال، الحب قبل الزَّواج يفسده، والحب بعد الزَّواج ينتهي بالطَّلاق، تزوَّجيه يا نوال لأنك لا تحبينه، لا يصلح للزواج إلا رجل لا يخفق له قلبك، على الأقل حين يخونك مع واحدة ثانية لا تشعرين بالألم!

وامتلأت عيناها بدموع محبوسة، كانت تنتفض بالغضب، صوتها يتقطع وأنفاسها تلهث: تصوَّري يا نوال ... تكرر هذه العبارة مع اللهاث: تصوَّري!

– أتصور إيه يا سامية؟

– شيء لا يمكن أصدِّقه!

– إيه يا سامية؟

– تصوري يا نوال ...

صوتها يختنق تكفُّ عن الكلام، تنشج بصوت مكتوم، أنفاسها تتقطَّع مع كلماتها، تصوري يا نوال ... مش قادرة أتصور يا نوال ... تصوري رفاعة جوزي، الرجل المثالي

صاحب المبادئ، الرجل اللي دخل السُّجون عشان المبادئ، تصوري رفاعة ... هل ممكن حد يصدق أن رفاعة يعمل كده؟! من يوم ما مسكوه ودخل السِّجن وأنا زي النَّحلة رايحة جاية عشان يطلَّعوه.

– عمل إيه رفاعة يا سامية؟

– تصوري إنَّه له علاقة بواحدة تانية!

– وعرفتِ إزاي؟

– وقع في إيدي جواب كتبه لها باين مسكوه قبل ما يبعت لها الجواب.

– مجرد جواب يا سامية.

– رسالة حب يا نوال!

– مجرد حب عذري حب طاهر رومانتيكي.

– رفاعة رجل مادي جدلي ماركسي لا يمكن يؤمن بالكلام الفارغ ده!

حين سمعت بطة القصة أطلقت ضحكتها الساخرة وقالت: كل الرِّجَالة خائنين يا سامية يمين ويسار ووسط، وكل النِّساء خائنات، بنات حواء أو بنات مريم العذراء، الفرق الوحيد بينهم أن الرجل خيانته مكشوفة، لكن المرأة بير من جوه بير. والعلاج الوحيد إنك تخونيه زي ما خانك، وربنا قال العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم. وكمان من حظك السعيد أنه محبوس في السِّجن! ترددت صفية في التعليق، أطرقت قليلًا تفكر، ثم رفعت إلينا وجهها شاحبًا وقالت: الطَّلاق عندي أحسن من الخيانة؛ لأنك يا سامية حتخوني نفسك مش أي حد تاني.

صوت صفية كان يرتعش قليلًا، وهذا الشحوب بدا غريبًا، أتعيش صفية المأساة نفسها؟! لم تكن صفية مثل سامية وبطة، تميل أكثر إلى الكتمان. كان في شتاء عام ١٩٦٠، وكان لا بد من مرور أربعين عامًا حتى أسمع صفية تقول: خلاص يا نوال أنا قررت الانفصال عن مصطفى.

كنت أقول لنفسي لا يمكن أتزوَّج دون حب، كيف يجمعني فراش واحد مع رجل لا أحبه، وتسألني بطة: وليه مش بتحبيه يا نوال، رجل محترم من رجال القانون مركزه مرموق وعنده عربية وشقة وفلوس وواقع في غرامك لشوشته، ليه ترفضيه؟ عيبه إيه يا نوال؟

هذا السؤال «عيبه إيه» ظل يحيرني نصف قرن، كنت أسمعه من أبي وأمي وجدتي وخالاتي وعماتي، عيبه إيه العريس يا نوال؟ سؤال لم أعرف جوابه، وبطة تلح في السؤال.

– مش عاوزة تتجوزيه ليه؟

– مش عارفة.

– عيبه إيه؟!

– يمكن ...

– يمكن إيه؟!

– عينيه ...

– ما لها عينيه؟!

– مطفية.

– حاتعملي بعينيه إيه في الجواز يا نوال؟!

تكركر بطَّة بضحكتها المتقطعة، شهقاتها ترنُّ في أذني مثل هواء محبوسٍ يندفع من عنق زجاجة ضيق، ضحكتها مُعْدِية، أضحك رغم الثقل في القلب، رغم أنني لا أحبه سأتزوجه، رغم انطفاءة عينيه، رغم أنني أكره رجال القانون، يصبُّهم القانون في قالب واحد كالأسمنت. السؤال يدور في رأسي، لماذا أتزوجه وأنا لا أريد أن أتزوجه؟ قوة في السماء أو الأرض تدفعني إلى الزَّواج رغم إرادتي؟! قوة غامضة كالوهم، كضغط الهواء الجوي، قوة إلهية أو شيطانية تدفعني إليه رغم أنفي وأنا في كامل الوعي.

تلك الليلة من شتاء عام ١٩٦٠ تأخرت في العيادة، جلست إلى مكتبي بعد أن انتهيت من آخر مريض، وضعت رأسي بين يدي الاثنتين وسقطت في ما يشبه النَّوم، هذه الحالة المتأرجحة بين النَّوم واليقظة، اللحظة التي يغيب فيها العقل الواعي، تختفي الأنا العليا تحت سطح البحر، يبرز رأس جبل الثلج من تحت الماء، يرمقني مثل عين في السماء، عين مفتوحة لا يطرف لها جفن، ساهرة طوال الليل لا تنام. أمسك القلم وأكتب كلماتي فوق الورق متقطعة أنفاسي ألهث، ذؤابة ضوء يضربها الهواء تكشف عن الشيء المتخفي في الظلام، لا ينتمي إلى طقوس اللغة أو الكتابة، يتمرَّد على كل ما هو مألوف، يخلق من حوله اضطرابًا وقلقًا وتشكيكًا في كل ما درجْتُ على الإيمان به، يفرض عليَّ القطيعة مع مفردات اللغة، والاستغناء عن الثواب والعقاب، يدفعني نحو المجهول خارج المفهوم.

أفقت على صوت سامية، كانت تمر عليَّ بالعيادة حين تشتد بها الأزمة، زوجها رفاعة في السِّجن مع أسعد شقيق صفيَّة. منذ الأحداث الأخيرة في العراق امتلأت السُّجون بكل من رأى أنَّ الوحدة الفيدرالية مع العراق أفضل من الاندماج الكامل، كان جمال عبد النَّاصر يرى أنَّ الوحدة الاندماجية أفضل، دخل السُّجون كل المعارضين في الرأي.

جاءت سامية وراحت تشرح لي الفرق بين الوحدة الفيدرالية والوحدة الاندماجية. كان لصوتها نبرة خطابية تؤلم الأذن، إن ارتفع صوتها أو انخفض تظل هذه النبرة المؤلمة، إن فرحت أو ضحكت يظل لصوتها رنين متشائم يوشك على البكاء. منذ المدرسة الثانوية كانت صديقتي، يجذبني إليها اختلافها عن بطة وصفية وبقية الزميلات، وجهها النَّحيل الشَّاحب دون مساحيق، شفتاها الرَّفيعتان المزمومتان بقوة غير أنثوية، أحاديثها عن ماركس والفرق بين الدياليكتيكية المادية وغير المادية، ولينين وعبد الناصر. تغيرت سامية قليلًا قبل زواجها من رفاعة أيام الحب، بدأت تكحِّل عينيها قليلًا، تضفي على خديها وشفتيها شيئًا من اللون الأحمر الشاحب، لم تتغير نبرة صوتها بل زادت حدَّة. وتواصل حديثها، أستمع إليها ورأسي بين يدي الاثنتين: تفتكري عبد الناصر مخلص للبلد يا نوال؟ الوحدة العربية فشلت بانفصال سوريا عن مصر، والدِّيموقراطيَّة فشلت بدخول المعارضين السُّجون، والاشتراكية فشلت، لا فيه تنمية ولا فيه تذويب الفوارق بين الطبقات، والأموال اللي عادت لمصر بعد تأميم قناة السويس وتأميم الشَّركات كلها راحت في جيوب الطبقة الجديدة من ضباط الجيش وأعوانهم، لا يمكن عبد النَّاصر يكون مخلص للبلد يا نوال!

يزداد صوتها تشاؤمًا حين تنتقل من حديثها عن عبد الناصر إلى زوجها رفاعة.

– تفتكري رفاعة مخلص يا نوال؟

كنت منشغلة بسؤال آخر يدور في رأسي، لماذا أتزوج رجلًا لا أحبه؟

– هل عبد النَّاصر مخلص يا نوال؟ هل رفاعة مخلص؟ هل الإخلاص الزَّوجي منفصل عن الإخلاص الوطني؟

– إيه اللي يجبرني يا سامية إني أتجوز رجلًا لا أحبه؟ أهي خيانة له أم خيانة لنفسي؟

– المناخ العام الفاسد يؤدي إلى حياة خاصة فاسدة.

– الفساد في الحياة السِّياسيَّة والثقافية والاقتصادية يؤدي إلى فساد في الحب والجنس؟! خيانة النفس هي خيانة الآخر.

– يا خسارة يا نوال، كان بيني وبين رفاعة حب جميل قبل ما نتجوز، المشكلة في مؤسسة الزَّواج يا نوال؟

– المشكلة في النِّظام كله يا سامية.

– عشان كده الراجل منهم ممكن يكون يخون مراته، والواحدة فينا ممكن تكذب على نفسها وتقول لجوزها أنا باحبك وهي مش طايقة تشوفه، أو تقوله أنت الرجل الوحيد في حياتي وهو مش الوحيد!

أطبقت شفتي في وجوم، تذكرت أنني قلت لزوجي الأول إنه أول حب في حياتي مع أنه كان الحب الثَّاني، وسوف أقول لزوجي الثَّاني إنني أحبه مع أنني لا أحبه، قوًى غيبية تدفعني إلى الكذب، تختفي وراء سحابة في السماء، أو ربما هو عام ١٩٦٠ عام الهزيمة الصغرى، كما كان صديقي رجاء الشاعر يقول. تنبأ بوقوع هزيمة ١٩٦٧ قبل أن تقع بسبعة أعوام، وفي إحدى الندوات الأدبية بالعيادة ألقى قصيدة مطلعها هذه الأبيات:

كل شيء من حولنا ينبئ بالهزيمة،
السُّحب في السَّماء ووجوه الرِّجَال العسكرية،
لا أمل في هذه الطبقة الجديدة ولا في كتابة الشعر،
الكلية الحربية لا تخرِّج إلا الجهلاء،
إن أصبحوا هم الوزراء
فليس أمامَنا إلا الموت أو السِّجن
أو المنفى خارجَ البلاد.

قوة تشبه اليأس أو الهزيمة تدفعني إلى الموت أو الزَّواج، كان العريس صالحًا في نظر الجميع، حتى أم إبراهيم أصبحت تلح عليَّ كل يوم: إتجوزيه يا ضكطورة ده الجواز سُترة وعشان تجيبي للمحروسة بنتك أخ أو أخت. وفي حفل الزَّواج الصَّغير همست صفية في أذني: نظره سليم ستة على ستة ومش لابس نظارة نظر زي جوزي. وكركرت بطة بضحكتها وقالت: عينيه مطفية أحسن يا نوال عشان ما يشوفش حاجة! ومطَّت سامية شفتيها في امتعاض، الواقع يا أخواتي أنَّ الإخلاص انتهى من الوجود!

لم يكن يتركني أكتب داخل غرفتي، لا يكف عن فتح الباب والدخول، يحاول قراءة ما أكتب، لا شيء يجهض الرِّوَاية قبل أن تكتمل إلا العين الغريبة، لا أحد يقرأ ما أكتب داخل غرفة بابها مغلق. لا أحب النور الكهربي الشديد الإضاءة، يكفيني الضوء المتسرب من المصباح في الشَّارع، أو لمبة صغيرة يسمونها سهَّارة، أو لمبة جاز حين تنقطع الكهرباء. يكفيني أن أرى حروفي فوق الورق، ويغرق بقية المكان في الظلمة. تنمو الرِّوَاية في خيالي كالظِّلال المتحركة في الأركان، تبدأ ذاكرتي تصحو حين ينام الكون. أجلس في الظُّلمة ساكنة داخل الصَّمْت، لا تصحو ذاكرتي إلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات أنسَى فيها مشوِّشات النَّهار. أنزع قشرة المخ، الأنا العليا والكذب، أشدها بأصابعي مثل خصلة شعر أو قطعة من فروة

الرَّأس، أحسها تحت يدي مثل الندبة، أو الجرح القديم المفتوح، يلتئم في الظلمة مع مرور الزمن داخل السكون. تبدأ ذاكرتي تصحو، يتحرك القلم فوق الورق، يندفع وحده فوق السطور، صوت في أعماقي كالوحي تمليه الكلمات، تتدفق الرِّوَاية كمياه النهر الهادئ، يصبح شلالًا الساعة بعد الساعة، ينتفض القلم بين أصابعي، يسري في ذراعي تيار ساخن يصعد إلى رأسي ويهبط إلى القدمين، شحنات من الدم تتدفق إلى جسدي كالمصابة بالحمى، أنتفض وأنا جالسة في مقعدي وراء المكتب.

لم يكن يتركني لأكمل الكتابة، كأنما الرِّوَاية جنين في أحشائي من صلب رجل آخر يريد إجهاضها، يفتح الباب ويدخل، إن وجد الباب مغلقًا يدقه بقبضة يده، يفتح الراديو بأعلى صوت، يطرقع بالقبقاب فوق بلاط الحمام، يجلس في الصالة ويتحدث في التليفون بصوت يصل إلى الجيران، أو يتحدث مع الزوار في غرفة الاستقبال ويقهقه بصوت يرجُّ الجدران.

كانت أمه تزورنا كثيرًا، أسمع صوتهما من وراء الباب المغلق، يشكو لها مني: «اتجوزت يا ماما واحدة مجنونة، تصحى في نص الليل تكتب.»

تمصمص الأم شفتيها في حسرة، «معلهش يا ابني كل شيء قسمة ونصيب، وأنت اللي اخترتها، والكتابة مافيهاش ضرر، أحسن ما تخرج زي النسوان التانية في الشوارع وتصرف الفلوس على مافيش، كان لازمك يا ابني واحدة تانية مكسورة العين تكون بين إيديك وتحت رجليك، لكن خلاص أهي بقت مراتك، يمكن ربنا يهديها لما تولد، ربنا يرزقك بابن يقولك يا بابا، ويقول لي يا نينة، ياما نفسي أعيش وأشوف ابنك يا رب يا كريم، وأهي حامل في شهرين.»

– حامل في شهرين؟!

ترن الكلمات في أذني وأنا منكفئة أكتب، أرفع رأسي من فوق المكتب، أتلفَّت حولي كمن تصحو من الحُلم، أو كمن تسقط في النَّوم، صوت يتحدث عن امرأة حامل في شهرين، صوت غريب لم أسمعه من قبل، والمرأة الحامل أيضًا لا أعرفها، ليست هي أنا بالتأكيد، إن كانت هي أنا فالأمر شديد الخطورة، كارثة! كيف يحدث الحمل دون حب ودون زواج، دون أن أفقد العذريَّة؟!

ربما هو حلم، منذ الطفولة يراودني هذا الحلم، في السابعة من عمري كنت أتحسس بطني تحت الغطاء، أخشى أن يرتفع بالحمل. كانت البنات في المدرسة يتهامسن بكلمة لا أفهمها، الحمل السِّفاح، تشرحها لي البنات دون جدوى، الشَّيْطان إبليس هو وراء الحمل

السِّفاح، قبل أن أنام أسد شقوق النافذة بالصُّحف القديمة حتى لا يتسلل منها إبليس، صديقتي القبطية إيزيس لم تكن تسد شقوق نافذتها، كانت تؤمن بالحمل المقدس، وليس الحمل السِّفاح، تشرح لي الفرق بينهما، ستنا مريم العذراء، تسلل إليها مندوب الله في الليل وحملت بسيدنا المسيح، هذا هو الحمل المقدس، أتحسس تحت الغطاء ارتفاعة بطني، كنت في السابعة من عمري أنشد المثالية في كل شيء حتى الحمل.

– حامل في شهرين؟!

الصوت الغريب يخرق أذني مثل رصاصة، أنتفض في مقعدي وراء المكتب، يسقط القلم من يدي، أرفع وجهي من فوق الأوراق، أرى أمامي امرأة عجوزًا تلف رأسها بطرحة سوداء، بشرتها بيضاء ووجهها سمين مستدير، عيناها صغيرتان غائرتان في اللحم، ترمقني بنظرة الحدأة، نظرة فاحصة مدققة تهبط إلى بطني تخترق جدار الرحم، تستكشف الجنين في أحشائي، تفتح فخذيه تبحث عن عضو الذكر، تريد التأكيد أنه طبق الأصل من صلب أبيه وليس من صلب رجل آخر.

منذ تزوجت كان الغثيان يصيبني كلَّ صباح، أغلق الباب وأُفرغ معدتي في الحوض. في طفولتي سمعت جدتي تقول: إنَّ الزَّواج يصد النفس عن الأكل، وقالت أمي: إنه الحمل وليس الزَّواج، عرفت أنَّ الحمل يعني انقطاع الدَّم.

حملت في الزَّواج الأول وأنجبت طفلة جميلة، كانت ابنة الحب وليس الزَّواج، لم أكن أُومِن إلا بالحب، تصورت أنَّ الزَّواج بدون حب ينتج عنه أطفال مشوهون. أتحسس بطني وأنا جالسة وراء المكتب، في أحشائي حمل غير مقدس، جنين مصنوع من الكذب، نطقت كلمة «أحبك» لرجل لا أحبه، يقاسمني الفراش تحت اسم الزَّواج، بشرته بيضاء، وجهه سمين ممتلئ مثل أمه وأنا أحب الوجوه النحيفة الرشيقة، قامته قصيرة، جسمه مربع مكتنز باللحم وأنا أحب القامة الطويلة الممشوقة، يداه صغيرتان بيضاوان ناعمتان خجولتان، أصابعهما قصيرة مضمومة، وأنا أحب اليد الكبيرة الشُّجاعة المفتوحة.

كل صباح أفتش عن قطرة حمراء في ملابسي أو فوق الملاءة، أفتح عيني كل يوم أبحث عن نقطة دم، تظل الملاءة نظيفة بيضاء ناصعة البياض، يصدمني اللون الأبيض، يذكرني بالموت والمرض والكفن الحريري ومعاطف الأطباء والأسرَّة البيضاء ورائحة المستشفى.

بدأت أرى في الحُلم مُلاءة حمراء بالدم، منذ طفولتي كرهت دم الحيض، ويسألونك عن الحيض قل هو أذًى، ولا تقربوا النِّساء حتى يطهرن. كان الغثيان يصيبني منذ الطفولة حين أرى بقعة الدم في ملابسي أو فوق الملاءة، أصبحت أنشدها في النَّوم واليقظة، أحلم

بها، أستحضرها، أشدها من براثن القضاء والقدر، أضرب بطني بقبضة يدي، أقفز من فوق السور في الشرفة، كنا نسكن في الدور الأول في بيت أبيض كبير من دورين، لم يكن ارتفاع الشرفة كافيًا لإسقاط الجنين، إنه جنين شرس يتشبث بجدار الرحم كالقملة تلتصق بجلدة الرَّأس، جنين مكتنز الوجه عيناه صغيرتان غائرتان في اللحم مثل أبيه وأم أبيه.

حاولت طرد الجنين الغريب من جسدي، ابتلعت حبوبًا سامة لأقتله داخل الرحم، حقنت نفسي بعقاقير الإجهاض، قفزت من الشرفة فانكسرت ذراعي اليمنى دون أن يسقط الجنين. أخذتني بطة بسيارتها البويك إلى مستشفى قصر العيني، أصبح زوجها الدُّكتور حمدي رئيس أحد أقسام الأمراض الباطنية، صورة الأشعة كشفت عن كسر في عظمة «الريدياس»، علق الدُّكتور حمدي ذراعي في عنقي برباط من الشاش. أخذتني بطة إلى قسم الجراحة لعمل جبيرة من الجبس حول ذراعي، سرت إلى جوارها في الممر الطويل، النوافذ الكبيرة المطلة على النيل، وجوه الممرضات الشاحبة، وجوه المرضى والمريضات الأكثر شحوبًا، وجوه الأطباء ممتلئة باللحم رغم الشحوب، تعرَّفت على بعض الأساتذة وزملاء الدراسة، توقف أحدهم وهتف: مش معقول؟ دراعك ما له يا نوال؟

تذكرت صوته الناعم الرقيق، حين كان يقول عن الطالبات الآنسات الكوارير «القوارير» يقلب القاف إلى كاف كنوع من الرقة. إزيك يا ست بطة، وإزي الدُّكتور حمدي، إيه الحكاية يا نوال دراعك فيه إيه؟

كنت في حالة من الإعياء، الألم والحزن وغثيان الحمل غير المقدس. ثلاث سنوات مضت منذ جاء إلى بيتنا يطلب يدي من أبي، كان يومًا حارًّا مليئًا بالغبار، وكانت أمي في فراش المرض. في غرفة الصالون جلس مع أبي يتحدثان في السِّياسة. كانت له سيارة شيفروليه زرقاء طويلة، يرتدي بدلة بيضاء لامعة من الشاركسكن، شعره لامع، حذاؤه لامع، الدبوس في الكرافتة لامع، الفص اللامع في الخاتم حول إصبعه، النظارة الزجاجية تلمع فوق عينيه، كل شيء فيه يلمع، لا شيء فيه منطفئ إلا العينان.

كان يرمقني من تحت النظارة بنظرة فاحصة، يرمق ذراعي المعلق في عنقي برباط الشاش، لا بد أن وجهي كان شاحبًا؛ لأنه قال: إنتي عيانة ولَّا إيه يا نوال؟ تطوعتْ بطة بالرد نيابة عني، عندها كسر في الريدياس يا دكتور رشاد.

– ورايحين على فين يا بطة؟ تعالوا معايا ع القسم لازم دراعك يتجبس يا نوال؟

كان ذلك منذ أربعين عامًا، التقيت بالدُّكتور رشاد عدة مرات أخرى، في اجتماع بوزارة الصِّحَّة، أو نقابة الأطباء، أصبح له منصب كبير في الجامعة وفي الدَّوْلة وفي المجلس الأعلى

للبحوث الطبية. يرمقني من تحت النظارة بنظرة مخلبية. كان من أعوان عبد الناصر، ثم أصبح من أعوان السادات. حين دخلْتُ السِّجن عام ١٩٨١ قال لصديقتي بطة: نوال تستاهل السِّجن عشان تبطل كتابة! وفي عام ١٩٩٣ حين عرف أنني أعيش في المنفى خارج مصر قال لصديقتي بطة: تستاهل عشان الكلام اللي كتبته ضد حرب الخليج! ده كلام فارغ!

منذ عامين سألتْه إحدى الصُّحفيات في حوار طويل نُشر في جريدة كبرى، سألتْه عن رأيه في كتابات بعض النِّساء، سهير القلماوي وأمينة السعيد ولطيفة الزيات وغيرهن. قال إنهن نساء عظيمات تستحق كل منهن ما حصلت عليه من جوائز. ثم سألته الصَّحفيَّة: وما رأيك في كتابات نوال السعداوي؟ وجاء رده: كتاباتها تستهين بالقيم الإسلامية والتَّقاليد الشَّرقية، نحن هنا في الشَّرق نؤمن بالروحانيات لكن القيم في الغرب مادية وإباحيَّة، وهي تكتب للغرب.

لم أقرأ هذا الحوار في الجريدة، لكن بطة قرأت لي هذه الفقرة عبر الأسلاك، ثم قالت: الدُّكتور رشاد لم يغفر لك أنك رفضتِه، الرجل لا ينسى المرأة التي رفضتْه، يظل الجرح مفتوحًا لا يلتئم. على العموم يا نوال الدُّكتور رشاد أحسن من غيره، إنتي عارفة زكريا، الدُّكتور زكريا اللي كان بيدرس لنا الفسيولوجي، الراجل ده هو الوحيد اللي أشاع إنه عمل معايا علاقة مع إني لا حبيته ولا فكرت فيه يوم واحد، كان لازم ينفِّس عن إحباطه بالإشاعات، أي راجل يعلن إنه عمل علاقة بامرأة تأكدي إنها الوحيدة اللي رفضته! والغريب يا نوال إن الدُّكتور زكريا بقى من كبار الأدباء فجأة، عملوه عضو في اللجنة الأدبية العليا أو معرفش المجلس الأعلى للقصة والرِّوَاية، حاجة زي كده مع إنه عمره ما نشر كتابًا واحدًا في الأدب أو كتب قصة واحدة! المسائل بقت كلها عك في عك؛ وأكبر دليل على العك إن الدُّكتور رشاد كمان بقى يفتي في الأدب النسائي مع إنه مالوش في الأدب ومالوش في النِّساء!

كركرتْ بطة بضحكتها المتقطعة المرحة، لكن صوتها أصبح مبحوحًا مشروخًا، تتخلله بعض الشهقات من حين إلى حين، تشكو الشيخوخة وآلامًا مجهولة السبب، وصداعًا في مؤخرة الرَّأس، فحصها زوجها الدُّكتور حمدي وقال لي: إنها مثل الحصان ولا شيء فيها مريض إلا عقلها.

– تصوري يا نوال صاحبتك بطة اللي عمرها ما عرفت ربنا سافرت مكة ورجعت لابسة طرحة وماسكة سبحة؟

أمام المرآة في غرفة نومي رأيت الوجه الطَّويل الشَّاحب، الذِّراع اليمنى الملفوفة في الجبس الأبيض، مُعلَّقة في عنقي برباط من الشَّاش، البطن المرتفع قليلًا تحت الثَّوب الواسع، عادت إليَّ الذاكرة شيئًا فشيئًا، مثل قطرات الماء البارد يتساقط فوق رأسي.

هذه المرأة داخل المرآة؟ أهي أنا؟ زوجة لرجل لا تحبه، طبيبة في مهنة ليست مهنتها، تحمل في أحشائها جنينًا ليس جنينها، تعيش في بيت ليس بيتها، تخرج كلَّ يوم رغم أنفها إلى مرضى لا تطيق رائحتهم.

النتيجة فوق الحائط ثابتة عند العام ١٩٦٠، هذه الذراع الملفوفة بالجبس تعود بي إلى بداية عام ١٩٥٥، بالضبط أول يناير ١٩٥٥. صحوت من النَّوم مشرقة متألقة كالشمس في اليوم الجديد، ارتديت ثوبي الجديد بمناسبة العام الجديد ونجاحي في كلية الطب بتفوق، أصبحت طبيبة امتياز في المستشفى الجامعي (قصر العيني الجديد). أرى نفسي في المرآة داخل ثوب أبيض فيه زهور وردية، عيناي السوداوان يكسوهما البريق، قلبي يخفق بالحب، حول إصبعي خاتم الخطوبة يحمل اسمه، لمحته من النافذة قادمًا في الطريق يحمل باقة ورد، أدخلتْه الخادمة إلى غرفة الاستقبال. كان هناك باب من الزجاج يفصل الصالة عن غرفة الاستقبال، وستارة فوق الباب صنعتها أمي بإبرة التريكو. كان أبي جالسًا في الصالة يقرأ، سأل الخادمة مَنْ جاء؟ قالت الدُّكتور أحمد. كانت تعرفه من الزيارات السابقة، وحفل الخطوبة الصغير منذ عامين. خلع أبي نظارة القراءة ونهض. تصورت أنها سيدخل إلى غرفة الاستقبال ليسلِّم على الدُّكتور أحمد، لم يكن طبيبًا بعد، طلبة السَّنة النِّهائيَّة في الكلية كانوا يحملون لقب دكتور. كان أبي غاضبًا؛ تأخر أحمد عن زملائه في التَّخرُّج بسبب سفره مع الفدائيين إلى جبهة القتال في القنال.

طلب مني أبي أن أردَّ إليه خاتم الخطوبة وأطلب منه ألا يزورنا في البيت. قال ذلك بصوت منخفض لا يصل إلى غرفة الاستقبال، الباب الزُّجاجي بين الصَّالة والغرفة كان مغلقًا، أبي كان هادئًا بالطَّبيعة، صوته لا يرتفع إلا عند الغضب الشَّديد، لم يكن غاضبًا هذه اللَّحظة، أصدر قراره في هدوء كامل، ابنته الطَّبيبة لن تتزوج طالبًا فاشلًا تخلَّف عن زملائه عامين.

تطورت الأمور على نحو غريب سريع، لا أعرف ماذا حدث بالضبط، رأيت أمي تأتي إلى الصَّالة مرتدية ثوبها الأزرق، في قدميها شبشب أزرق تسميه البانتوفلي، سارت بخطوة سريعة إلى الباب الزُّجاجي وأغلقته بالمفتاح، وضعت المفتاح في جيبها ثم عادت إلى غرفتها،

جاءت الخادمة وقالت: إنَّ الدُّكتور أحمد ترك باقة الورد فوق المنضدة في غرفة الاستقبال ثم انصرف.

كان لغرفة الصالون باب آخر يقود إلى الحديقة الصغيرة والباب الخارجي من دون المرور بالصالة، هل سمع صوت أبي؟ هل سمع صوت المفتاح يدور في الباب الزجاجي حين أغلقتْه أمي؟!

كنت واقفة في الصالة متجمدة، جسمي متجمد وعقلي متجمد، ارتدى أبي ملابسه وخرج، واقفة في مكاني لا أتحرك، رعدة خفيفة أصابتني من قمة رأسي إلى قدمَيَّ، كأنما ماء ساقع ينسكب من السقف فوقي وأنا واقفة، الدقات تحت ضلوعي تتصاعد، الدموع تتراكم في حلقي كالغصة، والغضب المتراكم منذ ولدتني أمي أربعًا وعشرين سنة. كنت أدق الأرض بقدمي حين أغضب في السابعة من العمر، لم أعد أدق الأرض بقدمي، لم يكن أمامي شيء قابل للكسر إلا الباب الزُّجاجي المغلق، وجدتني أندفع نحوه، أضربه بقبضة يدي اليمنى ضربة واحدة هائلة.

لم أفقد الوعي هذه اللحظة، كنت في كامل الوعي، كامل الانتباه، لم أحس بأي ألم، فقط دخلتْ قبضة يدي في الباب الزُّجاجي وخرجت من النَّاحية الأخرى.

بقي معصمي داخل اللوح المكسور، حركت ذراعي لأشد يدي خارج الزُّجاج، سقط اللوح الكبير بكل ثقله فوق معصمي مثل السِّكِّين، سقطت قبضة يدي إلى أسفل فجأة، رأيتها تتدلى لا أستطيع رفعها مهما حاولت، كفَّ قلبي عن الدَّق وتفجَّر الدَّم بلونٍ أحمر يُلطِّخ الباب الأبيض والبلاط وثوبي الأبيض.

اللون الأحمر القاني فوق السطح الأبيض أعادني إلى الحُلم الطفولي القديم، رأيت نفسي طفلة تحبو تمسك أمُّها يدها حتى لا تسقط، رأسي أثقل من جسمي لا أستطيع أن أرفعه فوق عنقي، لا أستطيع أن أرفع يدي، ذراعي ثقيلة مخدرة. شددت جفوني لأصحو من النَّوم، رأيت وجه أمي أوَّل ما رأيت يبرز وسط الضَّباب، كان شاحبًا رَماديًّا بلون الضَّباب، انفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة، سمعت صوتها يأتي من بطن الأرض: الحمد لله جت سليمة يا نوال. كانت ترتدي الثوب الأزرق والبانتوفلي الأزرق في قدميها. ثم رأيت وجه أبي، كان طويلًا شاحبًا، يردد ما قالته أمي: الحمد لله جت سليمة يا نوال. من حولي معاطف الأطباء البيضاء، مرايل الممرضات، الجدران البيضاء، رائحة المستشفى، وأنا راقدة في السَّرير الأبيض، داخل ثوب أبيض، ذراعي اليمنى ملفوفة بالجبس الأبيض.

أفقت من البنج ورأيت الدُّكتور عبد العظيم، كان أستاذًا بقسم الجراحة في مستشفى القصر العيني الجديد، عاد لتوِّه من لندن بعد أن تخصص في جراحة الأعصاب والعضلات الدقيقة، طويل نحيف له وجه مبتسم، قال: مبروك يا دكتورة نوال، العملية نجحت تسعين في المائة والباقي عليكِ أنت. لم أفهم شيئًا مما يقول، في اليوم التالي شرح لي الحقيقة: العملية كانت صعبة، استغرقت أكثر من تسع ساعات، أنسجة المعصم تمزقت وأربطة العضلات، عملت كل جهدي يا دكتورة نوال عشان أرجَّع كل حاجة زي ما كانت، أنا عملت اللي عليَّ والباقي على ربنا. وسمعت أبي يقول: كان يمكن تفقدي إيدك اليمنى كلها لولا عناية الله، ومهارة الدُّكتور عبد العظيم، دي أول عملية جراحية من هذا النوع يُجريها بعد عودته من الخارج. وقالت أمي: ربنا بيحبك يا نوال، وإن شاء الله إيدك ترجع زي ما كانت مش كده يا دكتور؟

لم يكن الدُّكتور عبد العظيم متأكدًا أن يدي اليمنى سوف تعود كما كانت، كان يشك في الشفاء الكامل، النتيجة لن تُعرف إلا بعد التئام الجرح وإزالة الجبس، كان الجبس ضروريًّا حتى لا يتحرك المعصم.

بدأت أستعيد قوَّتي في اليوم الثَّالث، في اليوم الرَّابع رأيت الدُّكتور سعيد عبده واقفًا إلى جوار السَّرير، كان أستاذًا في الكلية للصحة العامة، يجمع بين الطب والأدب، يكتب عمودًا منتظمًا في الجريدة بعنوان «خدعوك فقالوا». قرأ لي بعض المقالات والقصص في مجلات الكلية، سمع كلمتي في حفل تأبين الشهيد أحمد المنيسي ومناسبات أخرى. قال الدُّكتور سعيد عبده: تقدري يا نوال تجهزي كلمة تلقيها في حفل التخرج نيابة عن الطلبة؟ أنا شايف إنك في حالة كويسة، والصوان حيكون هنا جنبك في حوش المستشفى، يدوب خطوتين، ويمكن استخدام الترولي إذا كان المشي صعب عليك، إيه رأيك؟ إنت الوحيدة بين طلبة الطب اللي عندك قلم وممكن تكتبي كلمة أدبية كويسة وتُلقيها في حفل التخرج؛ ده حفل مهم جدًّا يا نوال، عميد الكلية حيحضر ورئيس الجامعة وكمال الدين حسين وزير التعليم، غير كل الأساتذة والطلبة والطالبات.

كان ذلك منذ خمسة وأربعين عامًا، وأصبح في درج مكتبي صورة فوتوغرافية لي جالسة وراء الميكرفون على المنصة: ذراعي اليمنى ملفوفة بالجبس ألقي كلمتي في حفل التخرج بداية عام ١٩٥٥، عن يميني يجلس وزير التعليم وعن يساري رئيس الجامعة ثم عميدة كلية الطب. هذه الصورة بقيت في درج مكتبي عامين ثم تمزقت مع صورتي فوق بطاقتي الشَّخصيَّة وبطاقة نقابة الأطبَّاء، وصور أخرى في الشَّباب والطُّفولة. كانت الصُّور

ضمن أوراقي التي حملتها معي من بيت أبي، ذكريات طفولتي، لحظات عمري غير المنسية ومفكرتي السرية، انقضَّ عليها يمزقها، أصابعه الغليظة ترتعد، عيناه اختفى النني تحت الجفن، والبياض بلون الثلج تخترقه شعيرات دموية جاحظة، يمسك الصورة بين إصبعين ويصرخ: دي صورتك في حفلة التخرج مع العميد والوزير، طبعًا بقيتي دكتور عظيمة وأنا فاشل مدمن، إزاي تعيشي مع فاشل مدمن يا دكتورة؟ لكن فين كلامك بتاع زمان، نعيش سوا ونموت سوا، مش عاوزة تموتي معايا ليه يا دكتورة؟ عاوزة تمشي وتسيبيني أموت لوحدي؟!

مزَّق الصُّورة، ألقى بها في صفيحة القُمامة، وانقضَّ على الصور والأوراق كلها يمزقها ورقة ورقة، ثم انقضت أصابعه الغليظة المرتعدة حول عنقي، كان في حاجة إلى جرعة جديدة من الماكسيتون فورت لا يستطيع شراءها من الصَّيدلية، لم يجد في حقيبتي قرشًا واحدًا، لم يجد في البيت شيئًا يمكن أن يبيعه، لم يعد يؤمن بالله أو الوطن أو الحب. يصرخ بصوت يسمعه الجيران: الثَّلاثة وهم، والإخلاص وهم. كأنما تكشفت له الحقيقة النِّهائيَّة ولم يبقَ إلا الموت ... لكن قبل أن يموت الفدائي لا بد أن يَقتل، الدرس الأول تلقاه في حرب العصابات: لا تَمُتْ قبل أن تَقتل عدوك.

بقيت الصُّورة الممزَّقة في الدرج السنة وراء السنة، خمس سنوات، حتى عام ١٩٦١، دقَّ جرس الباب ودخلت ثُريَّا حمدان، كانت تسكن إلى جواري في شارع الجيزة، تشغل منصبًا كبيرًا في مبنى التلفزيون الجديد. سألتْني: عندك رواية للشَّاشة الصَّغيرة يا دكتورة نوال؟ قلت: لا أكتب للتلفزيون يا أستاذة ثريا. سألتْني: ليه يا دكتورة؟ قلت: لا أعرف، لم أجرب. قالت: حاولي تكتبي حاجة للتلفزيون؛ عندك قلم مميز ولك قرَّاء وقارئات، والشَّاشة في حاجة إلى أعمال أدبية جيدة، وهي نادرة، هيه قولي لي متى أتسلم الرِّوَاية منك؟

جلست في اللَّيل أُفكِّر، فتحت الدُّرج حيث الأوراق القديمة والذكريات الطفولية، لمحت صورتي الممزقة ضمن الأوراق، تأملتها طول الليل، قبل شروق الشمس أمسكت القلم وصفحة بيضاء، كتبت عنوان الرِّوَاية: الصورة الممزقة.

كانت هي الرِّوَاية الأولى التي كتبتها لشاشة التلفزيون، رواية طويلة عُرضت في ثماني حلقات، كل حلقة أربعون دقيقة، كنت أتابعها بعد أن أعود من العيادة ... أم إبراهيم تجلس عيناها فوق الشَّاشة، تمسح دموعها وتنشج بصوت مكتوم. في درج مكتبي حتى اليوم دوسيه كبير مكتوب عليه «الصورة الممزقة»، من مِائتين وعشرين صفحة، أفكر اليوم في طبعها داخل كتاب حتى لا تسقط من التَّاريخ.

المشرط والقانون

أحملق في المرآة وأنا واقفة في غرفتي، ذراعي ملفوفة بالجبس، النتيجة فوق الحائط ثابتة عند العام ١٩٦٠، صورة الأشعة على المكتب والتقرير، كسر في عظمة الريدياس اليمنى. منذ خمسة أعوام كدت أفقد يدي اليمنى بسبب الغضب، عادت يدي كما كانت إلا من جرح عميق فوق المعصم غائر حتى العظم.

غضبت من أبي وضربت الباب الزُّجاجي. اليوم أنا غاضبة من نفسي، من هذه المرأة داخل المرآة، تزوجت بلا حب وحملت بلا حب ثم قفزت من الشرفة لقتل الجنين، لكن الجنين لم يحدث له شيء، فقط انكسرت ذراعي اليمنى.

رفعت اليد الملفوفة بالجبس وضربت الوجه داخل المرآة، انكسرت، وانقسم وجه المرأة قسمين، أصبح لها وجهان، في كل وجه عين واحدة.

استدرت لأرى المرأة العجوز ورائي، رأسها ملفوف بالطرحة السوداء، ترمق ذراعي داخل الجبس بنظرة الحدأة المستكشفة، «حصل إيه كفى الله الشَّر يا دكتورة نوال؟»، «أبدًا ما فيش حاجة يا طنط، رميت نفسي من البلكونة»، ثم ضحكت، ضحكتْ هي الأخرى غير مصدقة ما أقول، أدركتُ أنَّ الحقيقة حين أقولها لا يُصدِّقها النَّاس. وكان ابنها حين يسألني «أتحبينني يا نوال؟» أرد بسرعة: لأ. يضحك غير مصدق ما أقول. وقالت أمه في اليوم التالي: خدي إجازة من المستشفى يا دكتورة عشان صحتك وصحة العيِّل اللي جوه بطنك. ترمق بطني بنظرة حانية كأنَّما ترى حفيدها، ابن ابنها الغالي، تضمه داخل جفونها، تصعد نظرتها إلى صدري ثم وجهي، تلتقي عيناها بعيني، ترمقني بنظرة الحدأة.

لا شيء يربطني بهذه المرأة أو ابنها إلا الجنين في أحشائي، قطعة من هذين الغريبين داخل جسدي. فكرت في التَّخلُّص من جسدي، راودتني فكرة الانتحار، نظرت إلى الأوراق

المتراكمة فوق مكتبي، الرِّوَاية! تشدني إليها لأكملها قبل أن أموت، قررت تأجيل موتي إلى بعد الانتهاء من الرِّوَاية.

لم أعد قادرة على الكتابة، أُمسك القلم بيدي اليسرى، أصابع اليد اليُمنى لا تزال ضعيفة بعد إزالة الجبس، لا أستطيع أن أُمسك القلم بين أصابعي، ينزلق من بينها كأنَّما هي فاقدة الحياة، أعيدها إلى الحياة يومًا بعد يوم بالتَّدريب، تمرينات لعضلات الأصابع والمفاصل، تحريك المعصم، تحريك الذِّراع، تكرار التَّمرينات عشر دقائق كل ساعة، أهبط إلى الحديقة الصَّغيرة خلف البيت أمسك فأسًا صغيرة، أشتغل بها كل يوم نصف ساعة، ثم أجلس تحت شجرة الكافور، ترمقني عصفورة صغيرة واقفة فوق الفرع بعيون حزينة.

إنَّه عام ١٩٦٠، عام الهزيمة الصُّغرى، هزيمتي الخاصَّة وانسحابي من الحياة، حنيني إلى الموت، أيام الحزن العميق والأحداث المؤلمة السَّاقطة من الذَّاكرة، لولا النسيان ربما مات الإنسان، داخل خلايا المخ مِصْفاة تنقِّي العمر من لحظات الضَّعف والهزيمة، تلقي بها في قاع التَّاريخ، تظل كامنة في البئر، داخل قوقعة سميكة، جرح مفتوح غائر في اللَّحم، نظن أنَّه الْتَأَمَ، فإذا ما حلَّت بنا هزيمة أخرى أدركنا أنَّه لم يلتئم، يطل من تحت الجلد مثل رأس الدُّمَّل، إن هي إلا هزة واحدة حتى تسقط القشرة وينزف الجرح.

ثلاثة شهور من الحزن، كنت في التاسعة والعشرين من عمري أرى نفسي عجوزًا في نهاية حياتي، أنشد الموت وأنا راقدة إلى جواره في السَّرير العريض، أحمل في أحشائي جزءًا منه لا أعرف كيف أتخلص منه، أبحث في أركان البيت عن سم أبتلعه، أفتح العلبة السَّوداء في الصَّيدلية الصَّغيرة البيضاء فوق الحوض، أبتلع الحبوب السَّامة حبة وراء حبة ثم أتوقف فجأة، يلوح لي وجه ابنتي الطِّفلة تبكي على موت أمها، عيون أخواتي الأربع القاصرات بلا أم ولا أب، ليس لهن في الحياة إلَّاي، تنهمر دموعي ... أبكي عليهن قبل أن أبكي على موتي.

فوق المائدة في الصَّالة تتراكم الصُّحف، تأتيني كل صباح من تحت عقب الباب، أركلها بقدمي. صورة الدُّكتور حمدي زوج صديقتي بطَّة تظهر في الصُّحف، يُدلي بتصريحات عن الدِّيموقراطيَّة، يُردِّد ما يُقال عن أعداء الثورة، يدعو الله أن ينزل عليهم الطير الأبابيل، تجعلهم في بئر سِجِّيل. كل من يعارض جمال عبد النَّاصر يصبح من أعداء الثَّورة، كل من يرى أنَّ الوحدة الاندماجية لن تنجح بين مصر والعراق. فشلت الوحدة بين مصر وسوريا، أصبح رجاء الشاعر من أعداء الثورة، طارده البوليس حتى هرب إلى باريس، أسعد شقيق

صفية دخل المعتقل ومعه رفاعة زوج سامية. تمط شفتيها وتقول: شوية عساكر يا نوال مسكوا الحكم وعاملين إرهاب في البلد!

مسرح الأحداث في حياتنا الخاصة هو السَّرير، ربما أيضًا مائدة الطَّعام، يدور كل شيء داخل الأربعة جدران، قد يتسرب شيء خارج الأبواب المغلقة إلى آذان الجيران، ارتطام أجسام بالحوائط والجدران، تكسير الصحون وتطاير الشظايا في الجو، زعيق متدرج الصوت يعلو وينخفض، ثم يدب الصَّمت. في الصَّباح ينخرط الزَّوج في عمله، تنخرط الزَّوجة في عملها، يعود الاثنان في نهاية اليوم إلى مكانهما بين الجدران الأربعة، حيث تتكرر المأساة.

كانت تحلم كلَّ ليلة بالفرار دون جدوى، لماذا كانت تعجِز؟ الخوف من الفشل للمرة الثَّانية في الزَّواج؟ الخوف من ألسنة النَّاس؟ الخوف من الوحدة؟! رغم أن الوحدة كانت تبدو لها مثل النجمة بعيدة المنال! اهو التناقض التَّاريخي في عتمة هذه العلاقة التي يسمونها الزَّواج؟

كنت أتفادى الخروج معه إلى حيث يرانا النَّاس، قامتي أطول من قامته، يدي سمراء محروقة بالشمس، أصابعي طويلة رفيعة، أصابعه قصيرة ممتلئة بالراحة وعدم العمل، قدمه صغيرة بيضاء شاحبة لم تلمسها الشَّمس، خطوتي فوق الأرض واسعة قوية، خطوته ضيقة مترددة مهتزَّة، لم يكن لي أن أراه يمشي حتى يعتريني المرض، لا أعرف هل أستسلم للقلق أم أسرح في الأحلام، يمشي بجواري في المدينة المكتظة يهز ذراعيه، كأنما له ذراع أقصر من ذراع، جسمه يهتز بحركة تؤلم العين، عضلاته مرتخية من طول الجلوس في المكتب والبيت، يركب السَّيَّارَة من البيت إلى المكتب، لا يمشي، لا يمارس الرياضة، ذراعه إن تعرَّت تبدو بيضاء تكشف من تحتها عروقًا طويلة متعرجة تمشي فيها دماء زرقاء، أرمقها بدهشة مع أنَّها عروق طبيعيَّة؛ فالدم الأحمر يبدو تحت الجلد بلون أزرق. كنت أنسى الطب والمنطق، يصيبني القلق كلما تعرت ذراعه، كأنما كشف عن عاهة مستديمة، يتباهى بها أمام الرِّجَال، ينافسهم فيما يسمونه الذكورة، أنكمش داخل نفسي خزيًا، أبقى في مكاني مسمَّرة مذهولة لا أعرف إن كنت في حالة من اليقظة أو أغطُّ في النَّوم.

ذات يوم جاءتني صديقة جديدة من الأديبات، دق الجرس، فتح لها الباب وأدخلها غرفة الاستقبال، سألتني «جوزك اللي فتح لي الباب؟» ترددت قليلًا «لأ مش هو» ثم تراجعت وقلت «أيوه هو.» كان في نظر العالم رجلًا وسيمًا مملوءًا بالرجولة، لكن عين الأديبة تكشف

ما تحت الجلد. جلست أمامها في غرفة الاستقبال أتفادى النظر إلى عينيها، كانت لي هاتان العينان قبل الزَّواج، كأنما في حياة سابقة كنت مثل زرقاء اليمامة أرى ما لا يراه النَّاس، فما الذي حدث لأفقد البصر؟

كنت أمسك عقله الأبيض المرتخي أدلكه وأجادله؛ لتسري فيه دماء حمراء بدل الزرقاء، كنت أقاوم الطبيعة، ويصيبني الإعياء أو المرض، لا يعرف هو ما يعتريني، يتطلع في الشقة الواسعة لا يعرف لماذا لا أفرح، الأثاث الفاخر، الفساتين الحريرية التي اشتراها لي، والشباشب ذات الوردة الذهبية والكعوب الرفيعة العالية، وفخذة الخروف المشويَّة فوق المائدة والسَّيَّارَة الطَّويلة أمام الباب، وصوته يزعق «عاوزة إيه أكثر من كده؟» أمسح دموعي حائرة مذهولة، أتهم نفسي بفقدان البصر، كيف لا أرى كل هذه النِّعَم؟

أعود إلى طبيعتي الأولى، وتنقلب النِّعَم إلى النِّقَم، كلمتان متشابهتان رغم التناقض، لا يفرق الواحدة عن الأخرى إلا نقطة أو نقطتان.

في السابعة من عمري ضربني المدرس على أصابعي بالمسطرة بسبب نقطة حبر سقطت من سن القلم، تحولت كلمة بعل إلى بغل، لم أعرف حينئذ أن كلمة بعل تعني الزَّوج. وفي مرة أخرى سقطت نقطتان من الحبر فوق كلمة اللاه، أصبحت اللاة، لم أعرف أنها مؤنث كلمة اللاه، وتعني الإلهة الأنثى التي كان يعبدها العرب ثم حرَّم الإسلام عبادتها.

شطب المدرس بالقلم الحبر الأحمر على الكلمة ولسعني بالعصا الخيزران.

كانت الرِّوَاية هي هدف حياتي، قرَّرت تأجيل موتي حتى أنتهي منها، دربت يدي اليُسرى على الكتابة، أصبحت أكتب باليدين الاثنتين، أستبدل الواحدة بالأخرى حين يحل بإحداهما التعب، أحتضن القلم بين أصابعي وأكتب. يتسلل نور النهار من شقوق الشِّيش وأنا مُنكفئة فوق الأوراق، أسمع زقزقة العصفور فوق شجرة الكافور تفرد ريشها تحت أشعة الشَّمس، تلتقي عيناها بعيني وتبتسم ثم تطير مُحلِّقة في الجو.

كان هو يُشاركني السَّرير، لا شيء يُفسد الحياة الزَّوجيَّة إلا السَّرير المشترك، والحمام المشترك، انتهاكات يوميَّة للحياة الخاصَّة.

صحوت من النَّوم ذات يوم رأيته يقرأ أوراقي، كأنما كان ينتهك جسدي، ربما كان انتهاك الجسد أقل ألمًا. سمعت صوتي يقول: دي أوراقي مش من حقك تقرأها!

رأيته يمسك الرِّوَاية، يلقي بها من النافذة، وجدتني أقفز وراء الرِّوَاية من النافذة، تصورت أنني بهذه القفزة سوف أنقذها.

هذه اللحظة كان يمكن أن تُنهي حياتي، أن يتحطم رأسي فوق الأسفلت، لم تكن لحظة جنون، كنت عاقلة في كامل الوعي، كانت لي تجرِبة سابقة، قفزت من سور الشرفة

فلم أفقد حياتي، كسر في الريدياس اليمنى ثم التأم العظم. هذه الرِّوَاية سهرت عليها الليالي والأيام، والشُّهور والسنين، أكثر من ثلاثمائة ورقة بحجم الفولسكاب الكبير، عقلي قال في تلك اللحظة: إن أنقذت الرِّوَاية أنقذت حياتي.

لحظة من الخيال ربما، وجدت نفسي أمشي فوق الماء، أهتز قليلًا لكني أواصل المشي، أدخل إلى سراديب طويلة تشبه الممرات في مستشفى قصر العيني، طوابير المرضى والمريضات يفترشون الأرض إلى جوارهم قُفَف وأطفال يخبطون الهواء بسيقان مُعْوَجَّة يرمقون الأطباء بنظرة استجداء، يدبُّ الأطباء فوق البلاط بكعوب قوية عسكرية، معاطفهم بيضاء ناصعة البياض، عيونهم من خلف النظارات مُطفأة أو مُغْمَضَة، ينقرون بأصابعهم الغليظة على صدور الأطفال الذين تحملهم النِّساء فوق صدورهن المهدلة، وأنا أمشي بين طوابير المريضات أترنح فوق ساقين يتساقط من بينهما الدم، تنفرج شفاههن الشاحبة عن صوت خافت: «ربنا يشفيكي يا بنتي»، يمسحن عيونهم الذابلة بطرَف الجلباب الأسود المغطى بالتراب، أشق طريقي بينهن بصعوبة، أتفادى النظر إلى عيونهن، لكن صدري يمتلئ بالدفء، أحتفظ في ذاكرتي بهذه النظرة الحانية في العيون الذابلة.

فتحت عيني فوجدتُني غارقة في الدم، راقدة فوق منضدة من الرُّخام تشبه مناضد المشرحة أو غرفة عمليات الجراحة، فوقَها مُلاءة من المشمَّع الأحمر، فوق رأسي كشاف كهربي قوي الضوء، راقدة فوق ظهري مفتوحة الساقين، الذِّراعان والقدمان مربوطة بأحزمة جلدية في قوائم حديدية ترتفع فوق المنضدة، أسمع الأطباء يتبادلون الكلمات غير المفهومة، يشمخون بأنوفهم ويقولون «إفاكيوويشن» عقلي مشلول مخدَّر، ترنُّ الكلمة في أذني منذ المدرسة الثانوية «إفاكيوويشن»، خرجت مع البنات في المظاهرة عام ١٩٤٦، كنا نهتف في وجه الإنجليز في نفَس واحد: «إفاكيوويشن ويذ بلاص»، وتعني «الجلاء بالدماء»، أو طرد الاحتلال الأجنبي من بلادنا بالحرب المسلحة، لكنها تَعني في لغة الطب أو الجراحة، طرد الجنين من الرحم بالأدوات الطبية المسلَّحة، بمعنًى آخر: عملية «الإجهاض».

كان هو نائمًا إلى جواري في السَّرير العريض، شَخِيره يَسْري في أذني مثل دقات الساعة المشروخة، عيناي مفتوحتان شاخصتان إلى السقف، تحرَّرْتُ من القيد الذي كان يربطني به، عملية «الإفاكيوويشن» حررتني من الاحتلال الأجنبي لجسدي، نزعت عن نفسي الجسد الغريب الذي كان جزءًا مني، بدأ الطَّلاق يلوح في السماء مثل شَفَق الفجر، أنفاسي تلهث كأنما أَجري وأنا راقدة في السَّرير.

كان يتغطى بالملاءة من الرَّأس حتى القدمين، تُطِلُّ قدماه البيضاوان من طرَف الملاءة مضغوطتين صغيرتين، كأنما حُشِرَتا داخلَ حذاء من الحديد، كأقدام الفتيات في الصين القديمة، كانت أمه تدلكهما كلَّ ليلة منذ طفولته، تلفُّهما في جراب من الصوف، داخلَ صندوق مبطَّن بالحرير، تُبخرهما، تخشَى عليهما من عين الحسود.

فتح عينيه ورآني مفتوحة العينين شاخصة إلى السقف.

– صاحية ليه؟

– بافكر.

– في إيه؟

– في الطَّلاق.

انتفض واقفًا غاضبًا، قال إن الطَّلاق بيد الرجل وحدَه، الطَّلاق يتم بإرادة الرجل حين يريد وليس بإرادة المرأة حين تريد، الطَّلاق حق مطلق للرجل بحسَب القانون، وهو رجل قانون، رغم قامته القصيرة المربَّعة شَمَخَ بأنفه مثل الأطباء في المستشفى وقال: أنا رجل قانون! ثم نطق عبارة باللغة العامية انفجر بعدَها شريان في رأسي: «نُجوم الضُّهْر أقرب لك من الطَّلاق يا دكتورة!»

منذ طفولتي سمعت أبي يردِّد هذه العبارة.

«إذا كان ثمن الحرية فادحًا فإن ثمن العبودية أفدح.»

وعاش أبي المنفيُّ في منوف عشرة أعوام، لم تغفر له الحكومة التمَرُّد على الرؤساء، ولم يغفر لها خيانة الشَّعب، اشتغل موظفًا في هذه الحكومة ثلاثة وثلاثين عامًا حتى مات، كلَّ يوم يفكِّر في الاستقالة ثم يتراجع، كان العائلَ الوحيد لأسرته وعِياله التسعة وأمهم، كالمربوط في الساقية، يقول عن نفسه رَهِينُ الْمَحْبِسَيْنِ: الوظيفة الحكومية وسَرِير الزَّوجية.

قبلَ أن يموت بشهور قليلة أحالَتْه الحكومة إلى المعاش، أصابه انتعاشٌ كأنما يولد من جديد، فرَدَ ذراعيه من آخِرهما وأخذ شهيقًا أعقبه بزفير طويل، وقال: أخيرًا تحررت بعد ثلاث وثلاثين سنة سجن، أخيرًا سأقرأ وأكتب ما أريد، ثم مات أبي فجأة قبل أن يكتبَ شيئًا أو يتركَ أثرًا.

قبل أن يموت، قال: لو عادت حياتي إلى الوراء ربما لم أدخل الحكومة ولا الزَّواج، إنهما المصيدة والمقبرة. وكان يقول: اتركي وظيفة الحكومة وافتحي عيادتك الطبية يا نوال، لا شيء يقتل الإنسان مثل الوظيفة الحكومية.

وفي التاسعة من عمري سمعت أبي يقول لأخته رقية: «الطَّلاق لك أفضل من الزَّواج التعيس، اخلعيه يا رقية، من حق المرأة أن تخلع زوجها إذا ردَّت له المهر وتنازلت عن النفقة»، كان أبي دارسًا للشريعة الإسلامية في الأزهر ومدرسة القضاء الشَّرعي ودار العلوم.

لولا أبي ما استطعت أن أعرفَ هذا الحق الشَّرعي للمرأة يسمونه «الْخُلْع»، ساعدني أبي على أن أخلعَ زوجي الأول، تنازلت عن النفقة والمهر، الكلمتان ترنَّان في أذني نابيتين، لم يكن المهر إلا خمسة وعشرين قرشًا، حين سألني المأذون كَمْ يكون المهر؟ رنَّت الكلمة في أذني نابية؛ لا أقبل أن يدفعَ لي الرجل مقابل الزَّواج، ما الفرق بين الزَّواج والبغاء؟ قال المأذون: العقد لا يكون صحيحًا دون المهر، على الأقل خمسة وعشرون قرشًا، كنوع من الرمز! قلت: رمز لأي شيء؟! قال: رمز قوامة الرجل على المرأة، الرجل واجبه الإنفاق والمرأة واجبها الطاعة. قلت: أنا طبيبة يضع النَّاس أرواحَهم بين يدي ولا أقبل أن ينفق عليَّ أحد، كيف أعيش عالة على زوجي وأنا طبيبة؟! قال المأذون: العقد يكون باطلًا دون مهر. همس زوجي في أذني: هذه مجرد شكليات. أمسكت القلم ووقعت العقد. تكررت الواقعة في الزَّواج الثَّاني، لا بد من الرَّمز بالقروش على قوامة الرجل وإلا بطل عقد الزَّواج، همس زوجي في أذني: هذه مجرد شكليات. أمسكت القلم ووقعت العقد، أصبحت للمرة الثَّانية تحت طائلة القانون العبودي، يسمونه قانون الأحوال الشَّخصيَّة، تفقد فيه المرأة كيانها الإنساني، تصبح ناقصة الأهلية، قاصرًا مثل الطفل لم يبلغ سن الرشد أو المريض بعقله أو المعتوه، في حاجة إلى الوصاية، وزوجها هو الوصي عليها.

في الطَّلاق الأول كان أبي معي، دخل إلى مكتب المأذون بقامته الفارعة، كانت له هَيْبة الأنبياء، نهض المأذون واقفًا، أهلًا سعادة البيه. قال أبي: ابنتي الدُّكتورة تريد خلع زوجها والتنازل عن جميع حقوقها المادية وغير المادية! قال المأذون مخاطبًا زوجي: هذا حقها الشَّرعي يا أستاذ، ثم كتب قسيمة الطَّلاق.

في الطَّلاق الثَّاني لم يكن أبي موجودًا، مات أبي قبل أن أتزوَّج بعام ونصف، كنت وحدي في مواجهة رجل قانون، لا أعرف إلا القليل في القانون، صوت أبي الميت يقول: اخلعيه يا ابنتي هذا حقك الشَّرعي. عيناي تدوران في المكان تبحثان عن أبي، واقفًا إلى جواري بقامته الفارعة يُمسك يدي، صوته في أذني، تقدمي يا نوال ولا تخافي أنتِ على حق.

كان رجل القانون واقفًا أمامي في غرفة النَّوم، صوته يزعق: «نجوم الضُّهر أقرب إليك من الطَّلاق»، قامته مربعة قصيرة، قدماه صغيرتان بيضاوان، يرتدي منامة حريرية بيضاء، وجهه أبيض بلون المنامة، عيناه صغيرتان غائرتان في اللَّحم كعيني أمه.

كنت واقفة أمامَه، قامتي أطول من قامته، قدماي كبيرتان أكبر من قدميه، سمراوان محروقتان بالشَّمس، وهو واقف أمامي يمطُّ عنقه شامخًا بأنفه، يقول إنه رجل قانون، إن الرجل وحدَه يملك حق الطَّلاق، المرأة لا تملك هذا الحق.

– المرأة تملك حق الْخُلْع إن تنازلت عن حقوقها المادية بحسَب الشَّرع يا أستاذ!

– هذا في الشرع فقط يا دكتورة وليس في القانون!

– أتعيش معي ضد إرادتي؟!

– هذا حقي القانوني!

– أنا لا أريد أن أعيش معك!

– اذهبي إلى المحكمة!

المحكمة؟! اخترقت الكلمة رأسي مثل طلقة رصاص، لم أدخل في حياتي محكمة، ترنُّ الكلمة في أذني على وزن مشرحة أو مقبرة، الداخل إليها مفقود والخارج مولود، طوابير النسوة بالجلاليب السُّود أمامَ أبواب المحاكم، تشبه الطوابير أمام باب المستشفى والمشرحة والقبور، وجوههن الضَّامرة الشَّاحبة، عيونهن الذابلة جفَّت من الدموع، جحافل المحامين والقضاة داخل أروابهم مثل جحافل الأطباء يدقُّون الأرض بكعوب حديدية، يشمخون بأنوفهم، ترمقهم عيون النسوة المكلومات، واقفات في الطوابير الممدودة من الشَّارع حتى بابِ المحكمة.

كان واقفًا أمامي يمطُّ عنقه القصير الممتلئ باللحم، تيار من الدم الساخن يندفع من قمة رأسي، يهبط إلى عنقي وصدري حتى بطن القدمين، الغضب المتراكم في أعماقي منذ الطفولة، العشب الأسود في قاع البحر، خطوت نحوَه خطوة واحدة، أردت أن أقبض بأصابعي على عنقه، أصابعي طويلة قوية أمسكت بها المشرط وفتحت الصدور والبطون، فجأة تذكرت أنني طبيبة جراحة، حقيبتي جاهزة بجوار المكتب داخلَها المشرط، سرت نحوها خطوة بخطوة بطيئة، لم أسرع الخطو، مشيت بخطوة هادئة تشبه خطوة أبي الميت، رفعت قدمي اليمنى عن الأرض كما كان يرفعها، ثم القدم اليسرى، قدماي ثابتتان وعيناي مفتوحتان لا يطرف لهما جفن، كنت هادئة مثل أبي وفي كامل الوعي. انثنيت بجسمي الطويل أرفع الحقيبة من فوق الأرض، ثم انتصبتْ قامتي الفارعة مثل أمي،

فتحت الحقيبة بأصابعَ قويةٍ ثابتة، أخرجت مشرط الجراحة من جرابه الجلدي الأسود بحركة قوية سريعة، كالفارس يَمْتَشِق سلاحَه واثقًا من النصر، لمع النصل الحادُّ تحتَ الضوء بلون أبيض.

كان ظهري ناحيته لم أستدرْ بَعْدُ لأواجِهَه، النافذة مفتوحة أمامي، ضوء الفجر يُشقشق في الأفق، العصفورة في عُشِّها داخلَ شجرة الكافور، التقت عيناها بعيني فانتفض ريشها وطارت بعيدًا، بدأ جسمي يتحرك لأستدير وأواجهَه، قبل أن تكتملَ الاستدارةُ تجمَّدت لحظة وأنا ألمح وجهي في مرآة الدولاب، ليس هو وجهي، الملامح لا أكاد أعرفها، البشرة شاحبة بلا قطرة دم، المقلتان كبيرتان مشتعلتان بنار سوداء، الجلباب قديم شاحب البياض يتدلى تحت الركبتين، القدمان حافيتان فوق بلاط أبيض، النصل الحاد يلمع في يدها بلون الموت الأبيض.

هذه الصورة محفورة في ذاكرتي حتى اليوم، نَسِيتها منذ تلك اللحظة كأنما لم تكن، ثم عادت إليَّ بعد عشرين عامًا، في خريف ١٩٨١، التقيت لأول مرة في حياتي بامرأة قاتلة داخلَ السِّجن، كانوا يُسمُّونها فتحية القَتَّالة، لم أتخيل حين رأيتها لأوَّل مرة أنَّها يمكن أن تقتل، كانت هادئةً وادعة، وإن غضبت كلُّ السجينات هي لا تغضب، ثم رأيتها مرة واحدة في لحظة غضب، أدركت أنها يمكن أن تقتل، عيناها الصافيتان مثل السماء في يوم مشرق تلَبَّدتا وتعَكَّرتا وأصبحتا بلون الطين الأسود. كانت الشاويشة في السِّجن تقول: القتل ليس جريمة يا ضكطورة، إنه لحظة غضب واحدة وتفوت، القتَّالات أحسن ناس، لا يدوروا ولا يلفوا زي بتوع المخدرات والنشَّالات.

تجمَّدت أمامَ المرآة وأنا أنظر إلى وجهي، ثم أَكْمَل جسمي الاستدارة وأصبحت أواجهه وجهًا لوجه، وعينًا لعين، ماذا رأى في عيني؟! رأيتُه يتراجع إلى الوراء من دون أن يستدير حتَّى الْتَصَقَ ظهره بالحائط، أصبح جزءًا من الحائط بغير حراك، وجهه بلون الحائط الأبيض، شفتاه بيضاوان منفرجتان دون أن ينطق، تصورت أنه مات وهو واقف قبلَ أن أقترب منه.

لم أَعُدْ في حاجة إلى المشرط، نطقت عبارة واحدة من كلمتين بصوت أبي الميت: أنا خلعتك.

أربعون عامًا مضت على هذه اللحظة، تصورت أنها سقطت في العدم، إلا أنها باقية في الذاكرة مثل نجم صغير يتألق في الظلمة، حصلت بعدها على ورقة الطَّلاق وأنا في بيتي

معزَّزة مكرَّمة، لم أخرج إلى المحكمة أو مكتب المأذون، لم أدفع شيئًا للمحامين أو الزَّوج المخلوع، لم أرُدَّ له شيئًا لأنني منذ البداية رفضت أن آخذَ شيئًا، وتحررت من قانون الطاعة بفضل مشرط الجراحة.

أقمت حفلًا صغيرًا في بيتي بمناسبة الطَّلاق، جاءت صديقاتي الثَّلاث بطة وصفية وسامية، أطلقت دادة أم إبراهيم زغرودة طويلة، قالت بصوت جدتي الفلاحة: بركة يا ضكطورة رجعتي لنا بالسلامة. كركرت بطة بضحكتها الطويلة المتقطعة، وقالت: عقبال عندنا يا رب! ابتسمت صفية بهدوئها المعتاد وقالت: إنتِ يا نوال أشجع واحدة فينا. ورفعت سامية ذراعها في الهواء كأنَّما تهتف في مظاهرة، تسقط مؤسسة الزَّواج!

أربعون عامًا أسمع سامية تنطق الْهُتافين معًا في نفَس واحد: تسقط مؤسسة الزَّواج تسقط الإمبريالية والصهيونية! مضى أربعون عامًا من دون أن تتحرر سامية من زوجها رفاعة، ومن دون أن تتحرر مصر من الإمبريالية والصهيونية.

في السنوات الأخيرة فقدت سامية بعض قوتها مع فقدان الشَّباب وأحكم رفاعة سيطرته عليها، ومنذ هزيمة ١٩٦٧ فقدت مصر بعض قوتها، بعد معاهدة كامب ديفيد عام ١٩٧٦ فقدت مصر الوحدة العربية، تمزَّقت داخليًّا تحت وطأة الفتنة الدينية السِّياسيَّة، وبعد الهزيمة في حرب الخليج عام ١٩٩١ دخلت مصر غابة العولمة تحت السَّيطرة الإسرائيلية الأميركية.

الهزيمة الكبرى

التقيت بشريف عام ١٩٦٤ في وزارة الصِّحَّة، خرج من السِّجن منذ عام واحد بعد أربعةَ عشرَ عامًا وراءَ القضبان. شَهِقَت بطة حين سمعت الخبر، إنتِ مجنونة يا نوال، خرِّيج سجون وشيوعي كمان؟! انتفضتْ صفية، الشُّيوعيَّة ضيَّعت أخويا أسعد ومالهاش مستقبل في بلادنا يا نوال! مطَّت سامية شفتيها، الشُّيوعيَّة ليست المشكلة يا أخواتي، المشكلة هي مؤسسة الزَّواج، مؤسسة فاشلة وليس لها مستقبل، وسوف تنقرض بإذن الله!

كركرت بطة بالضحك، يسلم بُقك يا سامية، لكن المشكلة الحقيقية هي نوال، هي لا تؤمن بمؤسسة الزَّواج منذ العصر العبودي، فكيف تدخل المؤسسة بإرادتها للمرة الثَّالثة؟! لا يلدغ مؤمن من جُحر مرتين فما بال الثالثة؟

كنت في الثالثة والثلاثين من العمر، سقطت أوهام كثيرة عشعشت في عقلي وخيالي، لم يَعُد قلبي يخفق كما كان في العاشرة من عمري أو العشرين، حياتي أصبحت كاملة دون رجل، الطب والأدب وابنتي وأخواتي والصديقات والأصدقاء، حياتي ممتلئة بكل ما يُشبع حاجات الإنسان وما يفيض، فلماذا أتزوج؟ لماذا أضع نفسي تحت طائلة قانون يعود بي إلى الوراء عشرين عامًا فأصبح قاصرةً لا أملك جسمي ولا عقلي ولا أسافر إلا بإذن من زوجي؟!

سألت شريف: هل نحن بحاجة إلى قانون الزَّواج؟ ألا يمكن أن نتزوج بإرادتنا الحرة دون كتابةِ ورقة؟! ما جدوى هذه الورقة إذا كنت أثق بك وأنت تثق بي؟ سنتزوج نحن الاثنين ونفترق إن شئنا بإرادتنا نحن الاثنين ... فلماذا الورقة؟

لكننا كنا في عام ١٩٦٤ وليس عام ٢٠٠٠، انقضى ستة وثلاثون عامًا حتى يسقط قانون الزَّواج القديم، كنت أتمرَّد عليه وحدي، كنت أعرف أنه بقايا العصر العبودي، لكن

أغلب النِّساء لم يَكُنَّ معي، حتى صديقاتي الثلاث بطة وصفية وسامية لم يملكن شجاعة الطَّلاق أو الاعتراض على القانون إلا داخل الغرف المغلقة، اليوم تغير الحال، زاد عدد النِّساء والشَّابات المتمردات على قانون الزَّواج القديم، وتم تعديل القانون أكثر من مرة داخل مجلس الشَّعب، تعديل طفيف لا يمس جوهر القانون القديم. هكذا بدأت الفتيات يتزوجن دون قانون، أو بقانون جديد ليس فيه عقد رسمي مختوم بالنسر، وإنما عقد عُرفي تعارفَ النَّاسُ عليه قبلَ نُشوء الحكومات. إن الحاجة إلى الحب والجنس تنتصر على أعتى الحكومات المركزية وأقدمها في التَّاريخ وهي الحكومة المصرية، أكثر من ذلك بدأت الفتيات يتزوجن بدون عقد على الإطلاق، دون حاجة إلى ورقة مكتوبة، مجرد الثقة المتبادلة بين الرجل والمرأة، كل منهما بالغ الرشد ومسئول عن الوفاء بالوعد، يمسك كل منهما بيد الآخر وينطق الوعد، لا أحد يشهد عليهما إلا الله، أليست شهادة الله أهم من شهادة موظف الحكومة؟!

قلت لشريف: إنهم يتكلمون كثيرًا على الإيمان بالله، مع ذلك لا يؤمنون به، وإلا فلماذا لا تعترف الحكومة بشهادة الله؟!

ضحك شريف وقال بصوته الهادئ: يا نوال أتريدين أن نتزوج أم تريدين تغيير العالم؟ قلت: أريد الاثنين يا شريف، قال ربما يتغير العالم بعد قرن أو نصف قرن، ولكننا نريد أن نتزوج اليوم، وإن لم نذهب إلى مكتب المأذون ونسجل العقد المكتوب فسوف يصبح أطفالنا غير شرعيين.

كان يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٤، ذهبنا إلى المأذون وكتبنا العقد، سأل المأذون كم المهر؟ قلت له خمسة وعشرون قرشًا، رمز العبودية، وضحكت، لكن المأذون لم يضحك، كان غاضبًا لأن أجره يزداد بازدياد المهر، أراد أن يُعَقِّد الأمر طمعًا في أجر أكبر، ناوله شريف أجرًا سخيًّا وقال: اكتب العقد يا شيخ بلاش تعقيدات، عندنا موعد ولازم نمشي بسرعة!

كان موعدنا في البيت مع ابنتي منى، عمرها سبعة أعوام، طفلة عيناها عسليتان يكسوهما بريق، اشتد البريق وهي تفتح الْعُلبة الملفوفة بالشريط الأخضر اللامع، ارتدت الفستان الجديد.

لونه وردي له كولة بيضاء من الدانتيلا، وباقة من الورد البلدي الأحمر والزهور البيضاء، جلسنا نحن الثلاثة حول المائدة الصغيرة في شقة الجيزة نحتفل بعيد زواجنا الأول، لا أحد يشهد عليه إلا الله والطفلة في السابعة من عمرها.

في أول لقاء مع شريف أدركت أنني أثق فيه، عيناه رأيتهما، نافذتان مفتوحتان إلى الأعماق، العينان هما الإنسان في نظري، هناك قول مأثور يقول: «تكلم حتى أراك» وأنا أقول: أرني عينيك حتى أراك.

في أول لقاء سألت شريف عن علاقته بالكتابة والأدب، هذا السؤال كنت أسأله لأي رجل أو امرأة يمكن أن أصادفَها، الكتابة عندي أعز ما أملك، الماء والهواء والكتابة، ثلاثة عناصر ضرورية للحياة، أنا أكتب إذن أنا موجودة. لا أتصور الحياة الدنيا بدون ورقة وقلم، الحياة الأخرى أيضًا لا أتصورها بدون ورقة وقلم. في المدرسة الثانوية طردني مدرس الدين من الفصل عام ١٩٤٦ حين سألته: أيكون في الجنة ورقة وقلم لمن يريد أن يكتب؟ وفي السِّجن عام ١٩٨١ كان الحراس يفتشون كلَّ يوم ويقول رئيسهم مهدِّدًا: إذا وجدنا ورقة وقلمًا فهذا أخطر من أن نجدَ طبنجة! واستطعت رغم ذلك أن أُخفي الورقة والقلم تحت أرض الزنزانة دون أن يعثر عليهما أحد، ومنذ طفولتي لم أكن أنام دون الورقة والقلم تحت وسادتي، ومن أجل الورقة والقلم خَلَعْتُ من حياتي الزَّوجَ الأوَّل والثَّاني.

كان شريف هو زوجي الثَّالث، لم يكن يكتب إلا المقالات السِّياسيَّة، منذ أول لقاء قلت له: أنت أديب يا شريف قبل أن تكون سياسيًّا وقبل أن تكون طبيبًا. قال: منذ طفولتي يا نوال كنت أحب الموسيقى والأدب، وكانت أمي تمسك يدي وتقول أصابعك خُلقت للموسيقى.

قبل الزَّواج حدثني شريف عن حياته في السِّجن وفي البيت، عن طفولته حين كان في العاشرة من عمره عام ١٩٣٣. ينتمي شريف إلى الطبقة الأرستقراطية المصرية، أصحاب الأراضي والإقطاع منذ الخديوي والسُّلطان والمماليك، يملكون الأرض والمصانع والشَّركات، يشاركهم فيها الأسرة المالكة والأجانب، مَثَلهم الأعلى الملك فؤاد الأول ثم فاروق الأول، يتفاخرون بجذورهم في الأرض المصرية، يرثونها عن الأب والجد، يتزوجون الشقراوات الأجنبيات حين يسافرون إلى باريس أو لندن للسياحة أو للحصول على الشهادات العليا. مدينة القاهرة في الثَّلاثينيات من القرن العشرين كانت تتألق في الليل كالرجل الداعر، يتزوج المرأة الأجنبية أو الأرستقراطية من الطبقة العليا، ثم يتسلل في الليل إلى العشيقة المصرية من الطَّبقات الدُّنيا. يتكلم اللغة الإنجليزية أو الفرنسية في البيت، وفي وَكْر العشق أو اللذة يتكلم اللغة العامية الدارجة، أو لغة الشوارع. يثبِّت في عروة البدلة الأنيقة وردة حمراء، والطربوش الأحمر فوق رأسه مائل نحو أذنه اليمنى أو اليسرى. ينتمي إلى حزب اليمين أو حزب اليسار، يحمل لقب الباشا الأحمر أو الأخضر أو الأصفر. يتحدثون عن

الشَّعب المصري الفقير مع رشفات الويسكي وقضمات الكافيار ودُخَان السِّيجار، يتبارَوْنَ في الانتخابات على المقاعد في مجالس النُّواب أو الشُّيوخ، وفي الليل يتبارَوْنَ على بنات الهوى في الكباريهات والعوَّامات الراسية على شاطئ النيل. في البيت الكبير بيت العيلة الكريمة يحتفظون بالزَّوجة الأولى العجوز أم الأولاد، عفيفة طاهرة كالأم العذراء. في البيت الثَّاني الخفي، مثل الحكومة الخفية، هناك الزَّوجة الثَّانية الشَّابة المكتنزة باللحم، من أجل الحب والعشق واستعادة الشَّباب. تحت سُنة الله والرسول، لكل منهم ثلاثة بيوت أو أربعة بحسب عدد الزَّوجات، ثم الشقة السرِّية تحمل اسم «الجارسونيرة» وهي كلمة فرنسية تعني المكان الذي تَفِد إليه المومِسات أو العشيقات السرِّيات. يعود الرجل منهم آخِرَ الليل إلى زوجته الأولى، تفوح منه رائحة الخمر وعطر النِّساء، يخلع الطربوش والبدلة والوردة الحمراء في العروة، يعطي أم الأولاد ظهره، ثم يسقط في النَّوم يشخر حتى ظُهر اليوم التالي.

لم يرث شريف عن هؤلاء الرِّجَال العهر وفراغ الدماغ، ورث عن أمه الإنجليزية الإرادة الحديدية، وعن جدته الفلاحة أم أبيه ورث الضمير الحي والاستقامة. لم تقرأ جدَّتُه كتابَ الله، كانت مثل جدتي الفلاحة أم أبي لا تعرف القراءة، وكانت تقول ربنا هو العدل عرفوه بالعقل. ورث شريف عن جدته الإيمان بالعدل، أصبح في أعماقه منذ الطفولة جهاز عضوي يؤمن بالعدل أشبه بجهاز المناعة ضد الأمراض، أليس هو الضمير؟!

منذ طفولته كان قلبه يَرِقُّ للخدَم في البيت والشَّحاذِين ذوي العاهات في الشوارع. في النَّوم يرى نفسه نبيًّا أو قسيسًا يدعو إلى العدل والخير، كان طفلًا وحيدًا حزينًا في بيت كبير، أبوه غائب معظم الوقت، أمه تنظر إلى أصابعه الطويلة النحيفة وتقول أصابع فنان مبدع أو جراح ماهر. كان يحب الفنانين ويكره الجراحين، لم يكن رجال الطبقة العليا يحترمون أهل الفن، يقولون عنهم «أرتيست»»، يلفظون الكلمة بطرَف اللسان في ازدراء. يدخل الأرتيست إلى قصورهم في الأفراح من الأبواب الخلفية مع الخدَم، يعزفون العود أو الكمنجة مع الطبلة والرِّق، يَطْرَب السادة للغناء والموسيقى، يهزون رءوسهم طربًا، يُلقون طرابيشهم على الأرض، ينتشون، ينهلون من المتع التي حرمها الله حتى الثُّمالة، ثم ينامون، وفي الصَّباح ينهضون، يركعون لله ركعتين كنوع من الرِّشوة، يضعون الطَّرابيش فوق رءوسهم، يشمخون بأنوفهم يتفاخرون بالتقوى والصلاح.

على شاطئ النيل في الجيزة كنت أتمشَّى أنا وشريف، يحكي لي عن طفولته وأيام الدراسة وكلية الطب، المظاهرات الوطنية، أحداث كوبري عباس في الجيزة، فتح البوليس

الكوبري على الطلبة المتظاهرين، غرق بعضهم في مياه النيل، تلقَّى بعضهم الرصاص في صدره قبل أن يقفز فوق السور، اختلط الدم الأحمر بالماء والطمي.

تخرج شريف في كلية الطِّب، عام ١٩٤٦، كان طالبًا متفوقًا يحلم أن يكون طبيبًا مثاليًّا، يعالج الفقراء بالمجَّان. اصطدم الحُلم بالواقع القبيح، الدم والصديد والعرَق في جلاليب الفلاحين، الوجوه الضامرة الممصوصة، ينزفون الدم في البول، يمرضون بسبب الفقر والجهل والاستعباد وليس بسبب الجراثيم.

تحول الطبيب المثالي إلى مناضل ثوري يحلم بإلغاء الفوارق بين الطبقات، كلمة الطبقة كانت محرَّمة، محظورًا النطق بها، تعني الشُّيوعيَّة والإلحاد، أليس الله هو الذي خلق الفقير والغني؟ أليس المال هو مال الله يعطي من يشاء بغير حساب؟

صوت شريف هادئ ينساب في أذني مع نسمة الليل في الربيع، نحن في عام ١٩٦٥، عيناه يكسوهما حلم حزين، ملامحه تذكِّرني بملامح أبي وزوجي الأوَّل، ملامح الفدائيين والقديسين، أتذكرهما رغم مرور السنين، المظاهرة الصامتة عام ١٩٥١، الْهُتاف يُدَوِّي تَحْيا مصر حُرَّة. عيناه تلتقطانني من وسط الملايين يكسوهما البريق، الحب جزء من الخيال وجزء من الحقيقة، يخفق له القلب رغم الموت والحرب، الدماء فوق الأرض والأصابع حول عنقي، الهروب في الليل قبل طلوع الفجر أحمل طفلتي فوق صدري، فتح لي أبي بيته وذراعيه، لم يؤنِّبني ولم يعاتبني، ربما كان يحس تأنيب الضمير، ألم يملأ خيالي منذ الطفولة بأحاديث البطولة؟ سعد زغلول وثورة ١٩١٩، الحرب والقتال وتحرير الوطن، الحرية والاستقلال أو الموت الزُّؤَام، في أعماقه جهاز للإيمان، أشبه بجهاز المناعة ضد الأمراض، في خياله صورة عن الله، يحاول أن يستبدل الصورة بالحقيقة، يلوي عنق الحقيقة، يلوي عنقي لأصبح مطابقة للصورة، عنقي غير قابل للالتواء مثل عنقه، رأسي غير قابل للانحناء مثل رأسه، كلما عجز عن تغييري اشتد به الإحباط، لم يملك شيئًا يغيره إلا ابنته بعد أن عجز عن تغيير العالم.

راح أبي ضحية الحلم الكبير مثل زوجي الأول، يذوب الحلم في الحقيقة، مؤرق في الليل والنهار، يسمع الدقات المنتظمة للزمن والنبض، السَّاعة فوق معصمه وقلبه تحت الضُّلوع، دقات منتظمة غريبة في انتظامها، مفزعة في استمرارها كدقات الموت البطيء، يهبُّ من النَّوم حاملًا سلاحه، يذهب إلى حرب لا يعرفها، يندفع في الظَّلام كمن يمشي في النَّوم، يمشي فوق الموت دون أن يتوقَّف، دون أن ينظر إلى الوراء، يتطلع إلى السماء، يرى صورته محمولًا فوق الأعناق، النَّاس تهتف باسمه: يعيش يا يعيش! وهو يمشي فوق

السحب حاملًا سلاحه، مرهق يبحث عن الرَّاحة، حزين ينشد الفرح، مهزوم يحلم بالنَّصر، يمشي وحدَه مثل خيال، الوجوه من حوله ميتة، كلهم موتى، كلهم غارقون في الهزيمة، لا يملكون إلا سلاحًا مكسورًا أو قلمًا مقصوفًا، كلمات فوق الورق تطير في الهواء، طلقات الرصاص والدم المراق، عيناه غارقتان في الدموع، أهي دموع الحزن أم الفرح؟ أهو الموت أم الانطلاق نحو حياة جديدة؟

كنت أخرج لأتمشَّى على شاطئ النيل في الجيزة، شريف يمشي إلى جواري، يحكي لي عن السِّجن، أربعة عشر عامًا في السِّجن، دخل عام ١٩٤٩ وخرج عام ١٩٦٣، عشر سنوات منها تحت حكم جمال عبد الناصر من ١٩٥٣ حتى ١٩٦٣ مع الأشغال الشَّاقَّة، قطع الأحجار في الجبل في سجن طُرَة وأبو زعبل.

يسترجع شريف الذكريات وأنا أمشي إلى جواره صامتة أرمق النَّاس في الطَّريق، وجوه الرِّجَال متهدلة، عيونهم منكسرة، إلى جوار كل واحد منهم زوجته يقبض على يدها كالأسيرة، النِّساء أجسادهن سمينة مربعة، يتأرجحن فوق كعوب رفيعة، ثقيلات الخطو بطيئات الحركة، بطونهم عالية، إلى جوارهن تسير بناتهن نحيفات رشيقات، كالزُّهور يتفتحن في الرَّبيع، ثم يأتي موسم القطف، يصبحن مثل أمهاتهن بعد ليلة الزِّفاف مكسورات القلب مترهلات.

إنَّه عام ١٩٦٧ شهر يونيو، بالضَّبط ١٠ يونيو، وأنا أمشي بجوار شريف في شارع الجيزة، الساعة الرابعة صباحًا قبل طلوع الفجر بقليل، الدنيا ظلام، النَّاس تمشي في الليل كمن يمشون في الحلم، خرجوا من بيوتهم يهتفون ضد الهزيمة، يطالبون بالسلاح، الحرب والقتال حتى الموت، تحيا مصر حرَّة، الأجساد تغطي الشوارع، لا مكان لقدم، مثل يوم الحشر حين ينهض الموتى من القبور أفواجًا أفواجًا، وأنا أمشي إلى جوار شريف، كما مشيت إلى جوار أحمد في المظاهرة الصامتة منذ ستة عشر عامًا، الخطوة فوق الأرض هادئة ثابتة، الصوت هادئ يُشبه الصَّوت، العينان يكسوهما البريق ذاته والحلم ذاته، تحيا مصر حرة، نموت فداء الوطن، صوت عبد الناصر يهتف في الإذاعات سنقاتل حتى النَّصر، الملايين في الشَّوارع تهتف في نفَس واحد: النصر! النصر!

منذ العاشرة من عمري وأنا أهتف معهم، في المدرسة الابتدائية في منوف، في المدرسة الثانوية في حلوان، في كلية الطب في شارع قصر العيني، في نقابة الأطباء بدار الحكمة، في وزارة الصِّحَّة بشارع مجلس الأمة، وفي شوارع القاهرة والإسكندرية والسويس والإسماعيلية وبورسعيد والجيزة والفيوم وبني سويف والمنيا وأسيوط وقنا وأسوان.

سمعت شريف يهتف مع النَّاس: الموت حتى النصر! عيناه يكسوهما بريق الحلم الطفولي، كالدمعة الحبيسة لا تسقط ولا تجف. خرج من السِّجن بعد حكم بالأشغال الشاقة أربعة عشر عامًا، خرج نحيف العود منتصب الرَّأس أكثر صلابة مما كان، لم يفقد الحلم ولا الأمل، يفكر باللَّيل والنَّهار في الثَّورة، يهبُّ من النَّوم حاملًا سلاحه، يندفع في الظَّلام يمشي فوق الموت لا يتوقف، يسقط بين أيدي البوليس، يدخل السِّجن ويخرج ثم يدخل ويخرج. يسير إلى جواري صامتًا يفكر، الرِّجَال من حوله يتكلمون ويثرثرون، يتناثر في الجو رذاذ لعابهم، لا يكفُّون عن الكلام، يقاطع بعضُهم بعضًا، يتكلمون في وقت واحد وهو صامت، وإذا تكلَّم صمت الجميع.

منذ أن صدرت القرارات الاشتراكية عام ١٩٦٢ أصبح النَّاس أعضاء في الاتحاد الاشتراكي، صدرت الأوامر الإدارية ودخل الموظفون والموظفات الحزبَ الوحيد، لم يتخلف أحد في الوزارات أو الجامعات أو مؤسسات الدَّوْلة خوفًا من الجهاز الحكومي، أقدم جهاز في التَّاريخ البشري منذ الفراعنة، لم يعرف الشَّعب المصري إلا حكم الفراعنة أو الاحتلال الأجنبي. جاء القرن الواحد والعشرون ولم يتحرر الشَّعب المصري بعد، تغيرت الأسماء والوجوه والألقاب وطرق الاستعباد والاستبداد، وبقي فرعون على حاله ومعه الاحتلال الأجنبي، تخلَّص الشَّعب المصري من السيطرة الأجنبية بضعة أعوام قليلة ثم سرعان ما عادوا.

كلمة «الاشتراكية» كانت تجري على لسان جمال عبد النَّاصر قبل الهزيمة بأعوام قليلة، بالضَّبط منذ عام ١٩٦٢، ما يجري على لسان رئيس الدَّوْلة يجري على ألسنة رجال البلاط من الوزراء والموظفين والمثقَّفين من أصحاب الأقلام في الصُّحف والمجلات. بدأت الوجوه تظهر على شاشة التلفزيون، السَّيِّد الرَّئيس مِنْ حوله كبار رجال الدَّوْلة والأدباء والصَّحَفيين، أصبحوا يحملون لقب النُّخبة، يندرجون تحت فئة المثقفين، إحدى فئات الشَّعب العامل الخمسة «العمال والفلاحون والجنود والرَّأسمالية الوطنيَّة والمثقفون». كلمة فئات تبدو أكثر براءة من كلمة طبقات، مفردها كلمة طبقة، تنطوي على الصِّراع الطبقي أو الشُّيوعيَّة. رئيس الدَّوْلة أصبح ينطق عبارة جديدة «تذويب الفوارق بين الطَّبقات»، انتشرت العبارة في كل مكان، يرددها رجال البلاط والمثقفون وأصحاب الأقلام، ينطقون العبارة بصوت رئيس الدَّوْلة، واللهجة ذاتها، يُخرجون لسانَهم عند نُطق حرف الذال في كلمة «تذويب».

كانت بطة لا تزال صديقتي هي وصفية وسامية، اكتشفت بطة جذورها الفقيرة من الفلاحين في قرية السنبلاوين، زوجها الدُّكتور حمدي اكتشف أن أباه كان عاملًا في مصانع النسيج بالمحلة الكبرى، ارتدى الدُّكتور حمدي بدلة زرقاء كُحْلية من تيل المحلة، لها ياقة مكوية مُنَشَّاة شديدة الأناقة تُشبه ياقة وزير الخارجية، رشح نفسه في الانتخابات ودخل مجلس الشَّعب تحت فئة العمال.

لم ينجح الدُّكتور مصطفى زوج صديقتي صفية في الانتخابات تحت فئة الفلاحين، رغم ارتدائه الجلباب والطاقية، وتحريك السبحة بين أصابعه بالحركة ذاتها مثل السَّيِّد الرَّئيس والوزراء والمثقفين ورجال البلاط، إلا أنه أصدر كتابًا جديدًا عن الاشتراكية في الإسلام، أوضح الخلاف بين الاشتراكية الإيمانية الإسلامية والشُّيوعيَّة المادِّيَّة الإلحادية. قال الاشتراكية بدأت في الإسلام بأبي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه، والرسول ﷺ كان اشتراكيًّا يحارب أغنياء قريش من أجل «تذويب الفوارق» بين الطبقات في الجزيرة العربية، ثم استطرد قائلًا: كلمة «تذويب الفوارق» لا تعني إلغاء الفوارق؛ لأن الله خلق النَّاس درجات، وهذا هو الفرق بين الاشتراكية الإيمانية والشُّيوعيَّة الإلحادية، الشُّيوعيَّة ترى العالم بدون طبقات على الإطلاق، مما يخالف كلام الله في الكتب السَّمَاوية، وفي القرآن نص لا يقبل التَّفسير ولا التَّأويل، خلقَنا اللهُ درجات، أي طبقات، طبقة فوق طبقة، طبقة أعلى وطبقة أدنى، وخلقنا الله من نفْس واحدة ذكر وأنثى، لكن الذكر أعلى من الأنثى، والرِّجَال عليهن درجة، إن هؤلاء النِّساء اللائي يحاولن مساواة المرأة بالرَّجل يخالفن كلام الله في القرآن والكتب السَّمَاوية.

أصبح الدُّكتور مصطفى أحدَ كبار المفكرين في مصر، اسمه الدُّكتور مصطفى الزُّهيري، زوج صديقتي الدُّكتورة صفيَّة. كانت صفيَّة تؤمن بأن النَّاس خلقوا درجات أو طبقات، لكنها لم تؤمن بأن الرَّجل يرتفع عن المرأة درجة. صديقتي سامية لم تكن تؤمن بالفكرتين معًا، تمط شفتيها وتقول: النَّاس سواسية كأسنان الْمُشْط، لا فرق بين عربي وأعجمي ولا رجل ولا امرأة إلا بالصلاح والتقوى. لم تعد بطة تكركر بالضحك، أصبحت تجلس في وقار تضع الساق فوق الساق، يكشف فستانها الحريري الضيق عن ركبتين كبيرتين مكتنزتين باللحم، أصبحت بطة تحتل منصبًا كبيرًا في الاتحاد الاشتراكي، وعضوًا بارزًا في نقابة الصَّحَفيين، كيف تحولت بطة من طبيبة إلى صحفية؟ أعضاء الاتحاد الاشتراكي دخول وزارة جديدة اسمها وزارة الثقافة والإعلام، احتلوا المناصب العالية في مبنى التلفزيون الجديد، ومبنى الإذاعة، والمؤسَّسات الصَّحفيَّة الجديدة ودور

النَّشر ومجلس الثَّقافة الأعلى الدَّائم واللِّجان التي أصبحت تحمل لقب اللِّجان الدَّائمة. أم إبراهيم كانت تقول: الدوام لله.

أصبحت بطة رئيسة لإحدى اللِّجان الدَّائمة في جهاز التلفزيون، تظهر فوق الشَّاشة تتحدث، صوتها أصبح وقورًا فيما عدا حرف الراء تقلبه إلى غاء، تقول: الاشتغاكية بدلًا من الاشتراكية، هذه اللدغة في اللسان منذ الطفولة لم تستطع تغييرها مهما حاولت، يلتوي لسانها وعنقها القصير السمين وهي تنطق الكلمة، كأنما هي غصة في الحلْق، تشهق قليلًا كالمختنقة تمد عنقها إلى أعلى مزهوَّة بالشعر الأسود أو الباروكة المصفوفة فوق رأسها درجات فوق درجات، على شكل هرم أكبر من رأسها، تمط شفتيها الحمراوين المكتنزتين بحركة تكاد تشبه صديقتي سامية. وكانت بطة منذ أيام الدِّراسَة لا تكف عن الضَّحك والكركرة، شفتاها منفرجتان دائمًا كأنَّما لا يمكن أن تنطبق إحداهما على الأخرى.

«العمَّال والفلاحون نِسْف المجتمع ومن حقهم الحصول على نِسْف المكائد في مجلس الشَّعب.»

صوتها يرنُّ في أذني وأنا جالسة أمام الشَّاشة الصغيرة في بيتي بالجيزة، شريف إلى جواري يتابع حديثها، يبتسم في هدوء حين يسمعها تقول «نسف المجتمع» بدلًا من «نصف المجتمع»، و«المكائد في مجلس الشَّعب» بدلًا من «المقاعد في مجلس الشَّعب». إلى جوارها يجلس الدُّكتور رشاد، ترك الطب وتفرغ للسياسة، أصبح من أعوان الوزير، يرأس إحدى اللِّجان العليا الدَّائمة، يظهر على شاشة التلفزيون، يعجز مثل بطة عن نطق حرف الراء، يقول: الديموكغاتية بدل الدِّيموقراطيَّة، يلتقي بي أحيانًا في فناء وزارة الصِّحَّة أو مدخل نقابة الأطباء بدار الحكمة في شارع قصر العيني، يستوقفني ويهتف بصوته الرقيق: نوال مش معقول! شعرك بقه أبيض خالص زي التلج، لكن مديكي تشاغم خطيغ! (يعني تشارم خطير)، وكلمة «تشارم» تعني باللغة العربية «جاذبية».

منذ المؤتمر الوطني للقوى الشَّعبية عام ١٩٦٢ لم ألتقِ بالدُّكتور رشاد إلا على شاشة التلفزيون، أو في الطريق بالصدفة. كان عضوًا في المؤتمر الوطني مثلي عام ١٩٦٢، إلا أنه كان يجلس في الصُّفُوف الأماميَّة مع النُّخبة المثقفة، كنت أجلس في الصُّفُوف الخلفيَّة مع الشَّباب. حين جاء دوري في الكلام قلت بصوت سمعه الجالسون فوق المنصة، منهم جمال عبد الناصر ووزير الدَّاخليَّة، تعكرت الوجوه وأنا أقول الفلاح هو الذي بوله أحمر، هذا ما سمعته من جدتي الفلاحة، أهناك فلاح واحد في مصر لا ينزف الدم مع البول؟! ينتشر مرض البلهارسيا في الريف بنسبة ٩٩٪. سجل وزير الدَّاخلية اسمي الثلاثي فوق ورقة

أمامه. بعد الاجتماع استوقفني الدُّكتور رشاد عند الباب الخارجي للجامعة في الجيزة، وقال: بأه ده كلام يتآل يا نوال؟ الفلاح بوله أحمر؟! ده تهكم واضح على الاشتغاكية وسيادة الغيِّس شخصيًّا (يعني الاشتراكية وسيادة الرَّيس).

منذ هذا المؤتمر عام ١٩٦٢ دخل اسمي القائمة السوداء، أصبح لي دوسيه صغير في وزارة الدَّاخلية يحمل اسمي الثلاثي، الأب والجد السعداوي الذي مات قبل أن أولد. بعد أن تزوجت شريف حتاتة في ديسمبر ١٩٦٤ أضيف إلى اسمي كلمة أخرى سيئة السمعة «شيوعية» يضيفون إليها كلمة أكثر سوءًا «حمراء»، لي جريمة سابقة تَصْطَبِغ باللون الأحمر، هي عبارتي عن الفلاح وبوله الأحمر وأنا امرأة أيضًا، المرأة الحمراء ليست كالرَّجل الأحمر، كان في مصر رجل يسمونه «الباشا الأحمر» تعني الباشا الشُّيوعي؛ يمكن للرَّجل أن يكون أحمر دون المساس بأخلاقه، فهي كلمة سياسية، أما «المرأة الحمراء» فهي تندرج — مثل الليالي الحمراء — تحت بند الأخلاق، مثل «امرأة الشَّارع» في اللغة تعني المومِس أما «رجل الشَّارع» فهو المواطن الكادح من فئات الشَّعب، «الرحل الحر» يعني الرَّجل الأبي الشجاع المدافع عن الحرية، أما «المرأة الحرة» أو الداعية إلى حرية المرأة فهي إباحية تدعو إلى الفساد الأخلاقي.

سكن شريف معي في شقتي الصغيرة بشارع مراد بالجيزة، أصبحت الشقة تحت المراقبة ثمانية وعشرين عامًا حتى انتقلنا منها، كانت مراقبة غير دائمة متقطعة بحسب ذبذبات الحكم في مصر، حكم مذبذب بين اليسار واليمين، يستقر في الوسط دون نظرية أو فكر، ينتقل من النقيض إلى النقيض بين يوم وليلة، يلعن الاستعمار كالشَّيْطان يومًا ويقدسه كالإله في يوم آخر، ما بين هذا وذاك يتحول الأصدقاء إلى أعداء، أو الأعداء إلى أصدقاء.

مثل هذا الحكم لا يؤدي في النِّهاية إلا إلى الهزيمة، منذ ولدت في بداية الثلاثينات حتى اليوم لم تشهد بلادنا إلا الهزيمة وراء الهزيمة، حل الأميركان محل الإنجليز، ودولة إسرائيل أصبحت تملك الترسانة النووية والسلطة العليا، تحلم بأرض الله الموعودة من النيل إلى الفرات، لم يعد الفرات بعيدًا عنها بعد حرب الخليج عام ١٩٩١. منذ عهد السادات وبداية عصر الانفتاح عام ١٩٧٤ كفَّ رجال البلاط والنُّخبة المثقفة عن نطق كلمة الاشتراكية، أصبحت من الكلمات المحظورة، عادت مصر إلى مجتمع النصف في المِائة، ازداد الفقراء فقرًا والأثرياء ثراءً، فَتحت البورصة أبوابها المغلقة منذ العهد الملكي القديم، انتشرت كلمة الدِّيموقراطيَّة والليبرالية، تجمَّع نفر من النُّخبة المثقفة في قصر السادات

وصدر قرار جمهوري بإنشاء المعارضة والأحزاب السِّياسيَّة، أصبح حزب الحكومة هو الأكبر، يمكن عند الضرورة أن يبتلع الأحزاب الأخرى، يمين ويسار ووسط، كما ابتلعت عصا موسى الثعابين الصغيرة.

لم أدخل أي حزب بطبيعة الحال، كتبت مقالًا بجريدة الشَّعب، إحدى الصُّحف الجديدة التي حملت اسم حزب العمل، أحد الأحزاب المعارضة، كان مقالًا بعنوان «من ينشئ الأحزاب في مصر، الشَّعب أم الحاكم؟» وفي يوم ٦ سبتمبر ١٩٨١ اقتحم رجال البوليس بيتي في شارع مراد بالجيزة، كسروا الباب وأخذوني إلى سجن النِّساء بالقناطر الخيرية، وجدت نفسي متهمة بالتَّآمر لقلب نظام الحكم في مصر لحساب دولة أجنبيَّة اسمها بلغاريا، لماذا بلغاريا بالذات؟! لا أعرف.

لم أسافر في حياتي إلى بلغاريا، ليس لي معرفة بامرأة بلغارية أو رجل بلغاري، لا أعرف اللغة البلغارية، لا أكاد أعرف شيئًا عن بلغاريا، أنسى موقعها فوق خريطة العالم.

إن تلفيق التهم للمعارضين أمر معروف في كل العهود، في كل البلاد، لكن هذه التهمة كانت أشبه ما تكون بالنكتة، يضحك شريف ويقول: كده يا نوال تتآمري مع بلغاريا على قلب نظام الحكم من غير ما تقولي لي؟!

لم أدرك مأساة هزيمة ١٩٦٧ إلا في زيارة لقريتي صيف عام ١٩٦٨، حين التقيت بحفيد دادة أم إبراهيم، اسمه على اسم أبيه الذي لم يعد من حرب ١٩٤٨. كان راقدًا فوق الحصيرة على الأرض، من حوله النِّساء يبكين في صمت، عيونهن ذبلت من البكاء، سقطت عنها الرُّموش، يولولن بأصوات جماعية خافية كالنحيب المكتوم: إلهي ينتقم منك يا ميخا! وجوههن ضامرة ممصوصة محروقة بالشمس، رءوسهن ملفوفة بالطُّرَح السوداء، الجلاليب بلون التراب، وإبراهيم راقد فوق الحصيرة يَهْذِي بالحمَّى، أمه تكاد تشبه أمها دادة أم إبراهيم، لكنها أكثر ذبولًا وإعياءً، تمسح عن وجه ابنها العرَق بطرَف طرحتها السوداء، تبكي بلا صوت وابنها يحكي ما حدث له في الحرب، نجا من الموت لكنه عاد حُطام إنسان.

كان إبراهيم قد بلغ عامه الواحد والعشرين قبل أن يذهب إلى الحرب بأيام، كان يستعد لحفل زواجه من ابنة عمته زهيرة، جاءه أمر الاستدعاء في شهر مايو ١٩٦٧، ترك القرية والعروسة، ارتدى الزي العسكري وانطلق يهتف: الله، الوطن، تحيا مصر حرة. حلقوا رأسه ورحَّلوه إلى منطقة بير الحما بالقرب من مغارة الفحم في العريش. قامت الحرب يوم ٥ يونيو وهو في بير الحما، عرف ذلك من الراديو، سمع المذيع يقول انتصرنا

انتصرنا. ثم فوجئ بعد ثلاثة أيام بالضبط يوم ٨ يونيو بالدبابات الإسرائيلية تحيط به وبزملائه الجنود، وتم تدمير كتيبته بالكامل وقتل قائدها.

يمسك إبراهيم رأسه بين يديه ويجهش بدون صوت، تمسح أمُّه العرقَ فوق جبهته بطرَف جلبابها، ترمقه النِّساء لاهثات، تسأله كل واحدة منهن عن ابنها: وكان مين معاك يا إبراهيم؟ مش فاكر كان مين معاك يا إبراهيم؟ يبربش إبراهيم بعينيه، يرمق السَّقف الأسود بلون الهباب، يمسك رأسه بين يديه ويقول: مش فاكر مين كان معايا لكن قائد الكتيبة كان اسمه فؤاد عبد الحكيم، أخذوه وقتلوه مع الأسرى.

يسكت إبراهيم يبتلع ريقَه، تُناوله أمُّه كُوزَ الماء، تسأله إحدى النِّسوة: مش فاكر اسم حد من اللي كانوا معاك يا إبراهيم؟ يتذكر إبراهيم: كان معايا واحد اسمه أنيس كان شاويشًا متطوعًا من الإسماعيلية، وواحد تاني من بورسعيد اسمه جمعة، وجت دبابة ومشيت على الأرض، أمرونا إننا نرقد ع الأرض على شكل صفين فوق علامة جنزير الدَّبَّابة، وكانت الدَّبَّابة تمشي بعيد عنا وبعدين ترجع هاجمة علينا عشان تدفِنَّا في الأرض، وكان اللي يقوم واقف عشان ينقذ نفسه من الدَّبَّابة يضربوه بالنار، وقلت لنفسي: خلاص يا إبراهيم ربنا أراد إن عمرك ينتهي، وماحدش بيموت ناقص عمر ده مصيرنا مكتوب على الجبين. والدَّبَّابة وهي ماشية كانت تضرب بالمدافع بين الصَّفين الرَّاقدين ع الأرض.

ومات اللي مات، منهم جمعة من بورسعيد، وربنا كتب لي عمر جديد أنا وأنيس، أخذونا في الليل جوَّه عربيَّة، وكنت تقريبًا فاقد الإحساس ودراعي اليمين فيها جرح كبير ينزف مش عارف من إيه، وحطُّونا في مكان بعيد في الصحراء وحوطونا بالأسلاك الشائكة وحطُّوا علينا حارس اسمه ميخا. يتوقف إبراهيم عن الكلام، يلهث، وتمزق النِّسوة الطُّرَح السَّوداء، يصرخن في نفَس واحد: ربنا يحرقك في نار جهنم يا ميخا! أمه تناوله كوز الماء تمسح عرقه، يرمقها بعينين تبربشان: لا يمكن أنسى شكل ميخا يا أمه، كان عددنا حوالي تلتمية وميخا قال عشرة عشرة؛ يعني نقف صفوف، كل صف عشرة، ويضرب علينا الرَّشاش.

وكان الكل يندفن، اللي مات واللي لسه صاحي، وبعدين ميخا قال عشرة عشرة، ونقف صفوف، كل صف عشرة، بين الصف والصف متر، يمشي ميخا يعد الصُّفُوف وإذا لقي صف ناقص واحد ياخذ منه اتنين، أو صف زايد واحد ياخد منه اتنين برضه، يطلعهم على جنب ويضربهم بالنار، ويقول لنا ياللا احفروا وادفنوا زمايلكم. وبعدين يقول عشرة عشرة، ويضرب بالنار. احنا الباقيين قسمنا مجموعة في اليمين ومجموعة في الشمال، اللي

في اليمين عليها تحفر وتدفن، وأنا دفنت بإيديا زميل مضروب بالرصاص لكن صاحي وعينيه في عيني، وأنا بارمي الرمل عليه وفي ضهري مدفع وزميلي صاحي يقول لي اردم يا دُفعة خلص عليَّ بسرعة، ولما ردمت الرمل على عينيه الدنيا دارت بي ووقعت ع الأرض.

كنت فاقد الإحساس، ولما فُقت لقيت نفسي جوة عربية ماشية في الصحراء وجنبي أنيس وفرحت أوي بأنيس، هو الوحيد اللي عرفته، قال ياللا ننط. وقفزنا من العربيَّة في الضالة ومشينا في الصحراء يوم وراء يوم لغاية ما وصلنا البحر، كان هو بحر العريش، ولقينا أعداد كتيرة أوي ماشيين على البحر مشينا معاهم. وجت الطيارات الميراج حلقت فوقنا، كانت الطَّيارة تنزل عجلتها الأمامية ويمكن تلمس الأرض وتضرب علينا، وشفت رأس طايرة في الهواء من غير جسم، أو جسم طاير في الهواء من غير رأس. وبعد الميراج جت الطيارات الهيلوكوبتر تصطاد واحد واحد من البحر، وخرجت من البحر مبلول ومش عارف أنا مين، وبعدين افتكرت إن اسمي إبراهيم وإنَّهم استدعوني من الاحتياط يوم ٢٥ مايو، وافتكرت أنيس ورُحت أدوَّر عليه، يظهر إنه مات أو غرق في البحر مش عارف. ومشيت ع البحر وأقول يمكن ربنا ياخد بيدي، لكن جت عربيَّات جيب وأخذوني السِّجن، وكان اليوم ده هو ٢٥ يونيو، يعني شهر بالضَّبط من يوم ما سافرت. قالوا إنِّي أسير من الأسرى في بير سبع، وكان معايا زمايل كتير ما عرفش أسماءهم، عصبوا عينينا وكتفونا زي الفراخ ونقلونا لسجن تاني اسمه عتليت، مات فيه اللي مات، وأنا مش عارف إزاي عشت، لكن كل يوم كنت أدعي ربنا إني أموت، لغاية ما جه يوم قالوا اجهز، وعرفت إني راجع بلدي ضمن مجموعة في تبادل الأسرى، كان اليوم ده ٢٦ فبراير ١٩٦٨، يعني تسع شهور ويوم من أول ما استدعوني من الاحتياط.

سكت إبراهيم طويلًا، كان يرتعش، تصطكُّ أسنانه، ينتفض كالمصاب بحمى الملاريا، همستْ أمه في أذني: ربنا يخليكي يا ضكطورة اكشفي عليه واكتبي له دوا يشفيه إلهي يكفيكي شر المصايب يا رب!

لم يكن إبراهيم مريضًا بالحمى أو أي مرض عضوي، وأنا أفحصه انفرجت شفتاه الزرقاوان عن أنفاس متحشرجة وصوت خافت: مش قادر أنام يا دكتورة من يوم ما خرجت من عتليت وأنا بافتكر زمايلي اللي ماتوا وزمايلي اللي دفنتهم بإيديا. ويحملق إبراهيم في يديه الناحلتين المرتعشتين ويهمس: بإيديا دول دفنت زمايلي في الرمل في الصحراء، وكل ليلة أحلم إني واقف في الصَّحراء أردم الرمل على أنيس وهو صاحي عينيه في عيني ويقول لي كده يا إبراهيم تعمل كده يا إبراهيم؟! مع إن أنيس يا دكتورة غرق في البحر وما كانش واحد من اللي اندفنوا في الرمل، إيه اللي يخليه يقولي كده يا إبراهيم كده يا إبراهيم؟!

وتجهش أمه بالبكاء تمسح دموعَها بكفها الكبيرة المشققة وتهمس: ما عندوش غير حكاية أنيس يا ضكطورة.

ومات إبراهيم حفيد دادة أم إبراهيم وهو يَهْذِي باسم أنيس، يُخفي يديه تحت الغطاء المهترئ ويصرخ: أبدًا أبدًا يا ناس مش إيديا دول اللي دفنت زمايلي في الرمل، ده ميخا يامَّه! وتلطم النسوة خدودهن، يمزقن شعورهن يمرمغن رءوسهن في التُّراب ويولولن في صوت واحد: إلهي يحرق قلبك وقلب أمك يا ميخا!

تضامن النِّساء

في طفولتي المبكرة قبل أن أعرف من هو أبي، عرفت أمي، عرفتها بالشَّكل والرَّائحة والاسم والجسم، كان جسمها هو جسمي أو يشبه جسمي. كنت أتضامن مع أمي ضد أبي والعالم الخارجي؛ لكن شيئًا ما حدث جعلني أبتعد عن أمي، كنت طفلة لا أعرف بالضبط ماذا يبعدني عن أمي، وماذا يبعد أمي عني، ربما هو أبي كان يقف بيني وبين أمي، أو ربما هو العالم الخارجي كان يخدعني، يصوِّر لي أن الأب هو كل شيء، الاسم والشرف والاحترام والدين والعلم والماضي والحاضر والمستقبل والدنيا والآخرة.

لم يكن للآن شيء من كل هذا، بدأت أثور ضد أبي والعالم الخارجي من أجل أمي، تصورت أن أمي سوف تفرح وتتضامن معي، لكنها تضامنت مع أبي والعالم الخارجي ضدي. هذه أول صدمة في طفولتي، كنت في السادسة من عمري حين تلقيت الصدمة الأولى من أمي، رأيتها واقفة تبتسم والأيادي الغليظة تنتزعني من الفراش، تربط ذراعي وساقي، وتستأصل بالموسَى عضوًا من جسدي.

أصابتني خيبة أمل في أمي، أصبحت أتجه نحو أبي، بدا أبي كأنَّما يحنو عليَّ أكثر من أمي، وكأنَّما يحبني أكثر من أُمِّي، أي خديعة وأي وَهمٍ تسرَّب إلى عقلي دون أن أدري؟!

كم مضى من العمر وأنا أعيش هذا الوهم؟ قبل أن تموتَ أمي بقليل أو ربما بعد أن ماتت بدأت أدرك الحقيقة، كانت الحقيقة مثل جبل الثلج الغارق تحت الماء، تكشف عن نفسها جزءًا جزءًا.

حين بلغت الخمسين من العمر وبعد أن دخلت السِّجن أدركت أن تضامن النِّساء أخطر من السِّلاح النووي، لم يكن يهدد إدارة السِّجن إلا التَّضامن بيننا نحن النِّساء. بعد أن خرجت من السِّجن أدركت أن تضامن النِّساء يمكن أن يُسقط النظام الحاكم.

ألهذا السبب كان تنظيم النِّساء من المحرَّمات في نظر الأحزاب السِّياسيَّة جميعًا، يمينًا ويسارًا، وحكومة ومعارضة؟! منذ بدأنا تجميع صفوف النِّساء في مصر عام ١٩٨٢ تضافرت القوى الحكومية وغير الحكومية على ضرب أي محاولة يمكن أن توحِّد النِّساء.

النِّساء أنفسهن كنَّ يضربن المحاولة مثل الرِّجَال، كالأم التي تضرب ابنتها إرضاء للزوج أو الأب الحاكم. منذ عام ١٩٨٢ وحتى هذا العام ٢٠٠٠ كم محاولة ضُربت؟ بعد كل ضربة ننهض من جديد ونجمع صفوف النِّساء، ثمانية عشر عامًا نحاول توحيد جهود المرأة المصرية دون جدوى. وفي عام ١٩٩٩ شكَّلنا لجنة تحضيرية، أكثر من مِائة شخص من أجل تكوين الاتحاد النسائي المصري. عقدنا الاجتماعات، نشرنا الدعوة بين الجمعيات النسائية. بدأت الفكرة تنتشر، تحمست لها أعداد كبيرة من الشابَّات والشَّباب، وجمعيات المرأة في المحافظات. قررنا عقد اجتماع يوم ٢٢ أغسطس عام ١٩٩٩ للإعلان عن بدء تكوين الاتحاد النِّسائي المصري. قبل موعد الاجتماع بأيام قليلة فوجئنا بحملة صحفية ضد الاجتماع وتصريحات حكومية إن هذا الاجتماع غير قانوني.

وفي عام ١٩٩٢ نشرت كتابًا كاملًا بعنوان «معركة جديدة في قضية المرأة»، يوضح الكتاب كيف أغلقت الحكومة المصرية جمعية تضامن المرأة العربية بقرار غير قانوني، يوم ١٥ يونيو ١٩٩١، رفعنا قضية ضد الحكومة في المحكمة الإدارية بمجلس الدَّوْلة، وانقضى تسعة أعوام دون أن يصدر قرار المحكمة.

وتستمر المعركة حتى اليوم من أجل تضامن النِّساء. بدأت ظاهرة جديدة هذا العام هي تضامن الأم مع ابنتها ضد الأب أو الأخ، يوم ١٧ يونيو ٢٠٠٠ دافعت أم عن حياة ابنتها حتى الموت، الابنة الصَّغيرة تعرَّضت للاغتصاب وحملت سِفاحًا، وبدأت علامات الحمل تظهر على الفتاة الصغيرة. ذاع الأمر بين أهل قرية «الرَّواتب» التَّابعة لمركز أبو طشت بمحافظة قنا في صعيد مصر. عقد رجال الأسرة مجلسًا واتخذوا قرارًا؛ قتل الفتاة لمحو العار، وقع الاختيار على شقيقها (اسمه بدر نور الدين) للإجهاز عليها، ويساعده في ذلك عمها (عبد الفتاح) وابن عمتها (عبده محمود) وابن عم أبيها (أحمد راشد)، أربعة رجال أشدَّاء يعملون بالفئوس في الأرض. استدرجوا الفتاة الصغيرة بمفردها لقتلها، لكن أمها الواعية أدركت ذلك، كانت تقف لهم بالمرصاد تَحُول دون قتل ابنتها، اتفق الرِّجَال على

خداع الأم وابنتها، قالوا إن ابن عمتها عبده محمود سوف يتزوج منها تغطيةً على العار (ربما هو الذي تسبب في الحمل لا نعرف) ولكنه سيتزوج منها بعد إجهاضها من الحمل السِّفَاح.

أصرَّت الأم على الذهاب مع ابنتها مع بعض سيدات الأسرة لمتابعة عملية الإجهاض، التي تمت داخل عيادة طبيب في نجع حمادي، ظلت الفتاة ثلاثة أيام تحت الملاحظة بالعيادة، وفي اليوم الثالث طلبت الأم عودة ابنتها، أحست أن مؤامرة تُدَبَّر لقتل ابنتها؛ هددت بإبلاغ الشرطة إذا تعرضت ابنتها لمكروه. تم اصطحاب الأم لمرافقة ابنتها في العودة بصحبة ابن عمتها عبده محمود، واتفقوا مع سائق أجرة على السير في طريق زراعي بعيد عن البيوت لتمكينهم من تنفيذ الجريمة. في ليلة الحادث كان الرِّجَال الثلاثة الآخرون ينتظرون في الطريق، وهناك حاولوا انتزاع الفتاة من يد والدتها لقتلها، إلا أن الأم تشبثت في استماتة لحماية ابنتها، وقدَّمت نفسها فداءً لها وهي تستغيث وتستعطفهم بالصَّفح عنها، لكن طعنات السواطير هوت على جسد الأم يضربها الأربعة الرجال حتى أصبحت جثة ممزقة أمام ابنتها، ثم انهالوا على البنت الصغيرة بالسواطير بعد قتل الأم، وتم تمزيق الجثتين إلى اثنتي عشرة قطعة، ألقوا بها في الترعة داخل أكياس بلاستيك كبيرة.

هذه هي الأم الجديدة التي أصبحت تتضامن مع ابنتها الحامل سِفاحًا حتى الموت، وكانت الأم في الماضي القريب تتضامن مع رجال الأسرة في قتل ابنتها لمحو العار. لا يمكن أن أنسى هذه الأم التي كانت تمشي في الشوارع تزغرد بالفرح، إلى جوارها يمشي ابنها الأكبر حاملًا رأس ابنتها الصُّغرى على سن السِّكين بعد أن فصل رأسها عن جسها. لم تكن الفتاة قد حملت سِفاحًا، بل كانت تحب زميلها في العمل وتفكر في الزَّواج منه، رآها أخوها تمشي في الشَّارع مع زميلها؛ فانقض عليها بالسكين، وراحت الأم تزغرد بالفرح، وتمشي إلى جواره مرفوعة الرَّأس بعد أن غسلت العار بالدم، أي عار وأي دم؟! أي خديعة وأي وَهْم كان يعشعش في عقول الأمهات كما كان يعشعش في عقلي منذ الطفولة.

كان صوت أمي يخفت إلى جوار صوت أبي، كان أبي يقول هذا العالم فاسد يا ابنتي، قائم على دعامتين: الظلم والكذب. مع ذلك كان أبي يرى أن أخي أعلى مني درجة لأنه ذكر، يعطيه ضعف ما يعطيني من مصروف، ويقول: للذكر مثل حظ الأنثيين.

كنت أتطلع لأمي لتقول شيئًا، كان أبي يدعم كلامه بكلام الله، لم يكن لأمي أن تعارض كلام الله.

منذ عام ١٩٥٧ حين كنت طبيبة القرية بدأت الحكومة تطاردني بهذه التهمة، معارضة كلام الله، لم أقترف إثمًا إلا التَّضامن مع فتاة مريضة حملها البوليس بالقوة إلى

بيت زوجها، كان يكبرها بواحد وخمسين عامًا، يضربها كلَّ ليلة ويغتصبها جنسيًّا من الخلف وهي ساجدة تصلي لله. كنت الطبيبة المسئولة، واجبي حماية الفتاة من زوجها، لكن قوة البوليس كان أقوى مني، انتزعوا الفتاة وأعادوها إلى زوجها. ألقت نفسها في النيل بعد أسبوع، وأنا أصبحت متهمة بالعمل ضد الدين، دخل اسمي القائمة السوداء، تحت اسم عدوة الله، هل التَّضامن بين النِّساء يعني عداوة الله؟!

منذ عام ١٩٥٧ أصبحت متهمة بعدم الإيمان بالله، وفي عام ١٩٦٢ أضيفت إليَّ تهمة جديدة هي: عدم الإيمان بالثورة المجيدة. كان زملائي وزميلاتي في نقابة الأطباء قد انتخبوني لأكون عضوًا في المؤتمر الوطني للقوى الشَّعبية، عقد في قاعة جامعة القاهرة عام ١٩٦٢. جلس جمال عبد الناصر فوق المنصة يتوسط الوزراء كبار رجال الدَّوْلة. تبارى أعضاء المؤتمر في تعريف من هو الفلاح ومن هو العامل، فجأة تلاشت البديهيات والظواهر الواضحة كالشمس، لم يَعُدْ أحدٌ يعرف من هو العامل الحقيقي ومن هو الفلاح الحقيقي. كنت شابة صغيرة حديثة العهد بألاعيب السِّياسة، حين جاء دوري للكلام قلت الفلاح هو الذي بوله أحمر.

في طفولتي كانت جدتي تقول إن البول الأحمر دليل الصِّحَّة والعافية، لم أكن أعرف أنه الدم، حتى سمعت أبي يقول إن كل الفلاحين في مصر يمرضون بالبلهارسيا. وفي كلية الطب عرفت أن أبي كان صادقًا، ومات أبي قبل المؤتمر الوطني للقوى الشَّعبية بثلاث سنوات. لم يشهد المباراة حول تعريف من هو الفلاح ومن هو العامل، ولا هؤلاء الذين خلعوا البِدَل الإفرنجية وارتدوا الجلاليب أو العفاريت الزُّرْق ودخلوا البرلمان أو مجلس الشَّعب تحت اسم الفلاحين أو العمال.

في فبراير ١٩٥٨ بدأت الوحدة بين مصر وسوريا، وفشلت في سبتمبر ١٩٦١. ظلت أسباب الفشل مجهولة، لا يعرف الشَّعب شيئًا عما يدور في الدوائر العليا، تمتلئ الصُّحف بالأكاذيب وتسري الإشاعات.

كان صديقي رجاء الشَّاعر يعرف ما يدور، كتب قصيدة حَذفت الرقابة أهم أجزائها، كشف فيها عن أن الوحدة لم تَقُمْ إلا لإنقاذ سوريا من خطر الاشتراكية، وراء قيام الوحدة كان رجال حزب البعث والأثرياء في سوريا، لم ينقذ جمال عبد الناصر ما أرادوه، طردوه من سوريا وحدث الانفصال.

أصبح رجاء الشَّاعر مطاردًا من البوليس، لم يكن رجاء ينتمي إلى حزب اليسار أو اليمين، كان شاعرًا يكتب القصائد، أصبح متهمًا بالشُّيوعيَّة، لم يكن أمامه طريق للحياة إلا الهجرة خارج الوطن.

بعد هزيمة عام ١٩٦٧ لم يعرف أحد سبب الهزيمة، امتلأت الصُّحف بالأكاذيب. جاءتني رسالة من رجاء الشاعر، يقول فيها: أعيش في باريس مع أديب من سوريا وشاعر من العراق، لم يعد الوطن العربي يحتمل وجود الشعراء والأدباء، نتابع هنا ما يحدث في بلادنا. ما حدث في مصر يوم ٥ يونيو ليس نكسة بل هزيمة كبرى، خططت لها الولايات المتحدة مع إسرائيل، أبلغوا الاتحاد السوفييتي كذبًا أن إسرائيل تستعد للهجوم على سوريا، أبلغت موسكو هذا الخبر إلى القاهرة، قام عبد الناصر بتهديد إسرائيل إذا اعتدت على سوريا. كانت الخطة هي استدراج مصر إلى الحرب. لم يكن جمال عبد الناصر مستعدًّا للحرب، لكن المستشارين الأمريكيين في الجيش المصري غرَّروا به، شجعوه على طرد القوات الدولية من شرم الشيخ، خرجت القوات الدولية بسرعة دون اعتراض. الثالوث المشارك في الخطة: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ألا يذكرك هذا بالاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، ورابعهم إسرائيل؟! ما إن خرجت القوات الدولية من شرم الشِّيخ حتى بدأت إسرائيل هجومها على مصر، ضربت الطيران المصري كله وهو نائم فوق الأرض صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، واحتل الجيش الإسرائيلي سيناء بالكامل.

وفي عام ١٩٧٣ جاءتني رسالة من رجاء الشاعر، يشرح لي كيف وقعت الثغرة في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وخسائر الجيش المصري. كانت الصُّحف تنشر الأكاذيب ولا أحد يعرف الحقيقة. كتب رجاء الشاعر يقول: لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دورًا مشابهًا لما حدث في حرب ١٩٦٧، أقنعت أنور السادات أنه يمكن أن يحرك القضية السِّياسيَّة بمعركة عسكرية محدودة، لكن الجيش المصري بعد أن أسقط خط بارليف أراد أن ينطلق إلى المضايق ومنها إلى تل أبيب، هنا أصدر السادات أمرًا بإيقاف النار، انتهز الجيش الإسرائيلي هذه الفرصة وطوَّق الجنود المصريين، هكذا وقعت الثغرة.

أعقب هذه الهزيمة استدراج السادات لتوقيع المعاهدة مع إسرائيل في كامب ديفيد عام ١٩٧٦، أكبر مسمار في نعش الوحدة العربية. وجاءت حرب الخليج عام ١٩٩١ لتمسح من الخريطة اسم العالم العربي، وتضع بدلًا منه اسم الشَّرق الأوسط تحت سيطرة إسرائيل.

منذ تزوجت شريف عام ١٩٦٤ لم تكفَّ الحكومة عن مطاردتنا، حصل شريف على عمل في الهند وغادر مصر عام ١٩٧٣. عاش وحده في المنفى أربعة أعوام، أغرق نفسه

في العمل والكتابة وأحب الهنود. بقيتُ في مصر لأرعَى الابنة والابن، يرتبطان بحياتهما في المدرسة، الزملاء والزميلات والأهل والأصدقاء والصديقات، لم يكن لنا أن نخلَعهما من جذورهما في هذه السن المبكرة ليعيشا الغربة.

ثم انتقل شريف إلى أديس أبابا في الحبشة، عاش ثلاثة أعوام أخرى في المنفى، لم يعد إلى مصر إلا عام ١٩٨٠، قبل أن يكسر رجال البوليس باب بيتنا ويأخذوني إلى السِّجن يوم ٦ سبتمبر ١٩٨١.

بعد خروجي من السِّجن بدأت النِّساء والشابات يتردَّدن على بيتي في الجيزة، ظهرت في الأفق فكرة إنشاء جمعية تضامن المرأة العربية، تكونت النواة الأولى من مِائة وعشرين امرأة من ثمانية بلاد عربية منها مصر. أصبح شعارنا: رفع الحجاب عن العقل، المعرفة قوة، والتَّضامن بين النِّساء قوة.

في عام ١٩٨٢ بدأنا نؤسس الفرع المصري تحت اسم الجمعيَّة الأم، وقفت الحكومة المصرية ضدنا ثلاثة أعوام، وصلني خطاب في ١٩ أغسطس ١٩٨٣ بشعار الدَّوْلة النسر، يقول الآتي بالحرف الواحد:

> تقرر رفض تسجيل جمعية تضامن المرأة العربية لعدم موافقة مباحث أمن الدَّوْلة، بعد الاطلاع على رد مديرية أمن القاهرة، إدارة البحث الجنائي قسم مكافحة جرائم الآداب العامة.

أرسلت صورة من هذا الخطاب إلى جميع الصُّحف في مصر، أردت أن أكشف كيف تتعامل الحكومة مع المواطنات من الشَّعب، كيف تنتهك الحكومة القانون والدستور تحت اسم مكافحة جرائم الآداب العامة. بدأت حملة صحفية ضد وزارة الشُّئون الاجتماعية، قادها كبار الصَّحَفيين من اليمين واليسار ومن الحكومة أيضًا. جريدة الأخبار من أكبر الصُّحف الحكومية في مصر، مصطفى أمين من أكبر الصَّحَفيين المصريين، يكتب عمودًا يوميًّا في جريدة الأخبار تحت عنوان «فكرة»، يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ نشر ما يأتي بالحرف الواحد:

> **فكرة!**
>
> منذ عام اجتمع عدد من السَّيِّدات، بعضهن أستاذات في الجامعة، ومدرسات بها وصحفيات وشاعرات وكاتبات وربَّات بيوت، واتفقن على تأليف جمعية «تضامن المرأة» مَهمتها النهوض بالمرأة والدفاع عن حقوقها والارتقاء بها.

واعترض البعض بأنها حركة عنصرية رجعية تعمل على تكتيل النِّساء ضد الرِّجَال، وتفصل بين مشاكل المرأة ومشاكل المجتمع. ولكن جمعية تضامن المرأة تفادت هذا الاعتراض عندما فتحت عضويتها للرجال، وفعلًا اشترك بعض الرِّجَال في نشاط الجمعيَّة.

ومنذ بداية العام والجمعيَّة في نشاط مستمر، تجتمع مرة كل أسبوعين، وتقيم ندوات ثقافية وفنية وأدبية وتناقش بعض الكتب التي ترتبط بأهداف الجمعيَّة. ونظمت دراسات عن مشاكل المرأة العامة ونظرة الصحافة والتلفزيون والإذاعة والسينما إلى المرأة المصرية.

وتقدمت الجمعيَّة إلى وزارة الشُّئون الاجتماعية لشهرها، وإذا بالجمعيَّة تتلقى خطابًا من إدارة مكافحة جرائم الآداب العامة ترفض قيام هذه الجمعيَّة!

ودُهشت عضوات الجمعيَّة، ما علاقة بوليس الآداب بجمعيةٍ هدفها المساهمة في رفع المستوى الاجتماعي والثقافي للمرأة في مختلف المجالات وربط مشاكلها بمشاكل المجتمع، وفتح مجالات جديدة أمام المرأة في العمل، وتنمية الشَّخصيَّة الأصلية للمرأة المصرية؟!

هل الحديث عن الحرية قِلَّة أدَب؟! هل الكلام عن الدِّيموقراطيَّة عمل فاضح في الطَّريق العام؟! هل مطالبة المرأة بمزاولة حقها الانتخابي قلة حَياء؟! نفهم أن يكون عمل بوليس الآداب محاربة الفساد؟ ولكن ما علاقة بوليس الآداب بأساتذة الجامعة والمثقَّفات والمؤلفات والشاعرات؟ أي شيء في أهداف الجمعيَّة فيه قلة أدب أو قلة حياء؟

إن رئيسة الجمعيَّة هي الدُّكتورة نوال السعداوي الكاتبة المعروفة وصاحبة المؤلفات العديدة التي تُرجمت إلى عدة لغات، وآخِر كتاب لها هو «الإنسان»، اثنتا عشرة امرأة في زنزانة واحدة، وهو مُهدًى «إلى كل من عرف القهر في البيت أو في السِّجن»، وهي رواية عن حياة ١٢ سيدة قُبض عليهن في ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١ بتهمة أنهن خصوم الحكومة! وبينهن عدد من أبرز أساتذة الجامعة ومدرساتها والصُّحفيات والكاتبات.

فهل اعتبر بوليس الآداب أن هذا الكلام قلة أدب وقلة حياء ولهذا رفض أن تكون جمعية رئيستها مثل هذه الدُّكتورة طويلة اللسان؟!

وسكرتيرة الجمعيَّة هي الدُّكتور منى أبو سِنَّة الأستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس. ومن أعضاء الجمعيَّة الدُّكتورة لطيفة الزيات، والدُّكتورة ليلى عنان،

والدُّكتورة عواطف عبد الرحمن، والدُّكتورة عفاف محفوظ، وإنجي رشدي المحررة بالأهرام، وعائشة أبو النور الكاتبة بأخبار اليوم، والأستاذات عطيات الأبنودي وشهيرة محرز ومنى حلمي والدُّكتورة سهى عبد القادر ...

يقولون إن الدَّوْلة تُحيل كل شيء يتعلق بالمرأة إلى بوليس الآداب.

وإذا كان هذا صحيحًا، فهذا أمر لا يمكن السكوت عليه في الوقت الذي أصبح في مصر وزيرات وسفيرات ووكيلات وزارات وعضوات في مجلس الشَّعب!

صدق ... أو لا تصدق!

مصطفى أمين

وفي جريدة الشَّعب الناطقة في ذلك الوقت بلسان حزب العمل الاشتراكي، كتب فتحي رضوان من أكبر رجال السِّياسة في مصر يقول في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٣ تحت عنوان:

دولتنا بوليسية

تفضلت الأديبة الكاتبة الدُّكتورة نوال السعداوي، فأطلعتني على خطاب أرسل إليها من السَّيِّد المدير العام للمكتب الفني بالإدارة الاجتماعية بالوايلي بمنطقة القاهرة، مؤرخ في ١٩٨٢/٨/٩ يتضمن قرارًا صادرًا من سيادته يقتضي برفض عدم إشهار جمعية «تضامن المرأة»، وقد ذكر الخطاب المشار إليه كجزء من قرار الرفض ومسبب له ما نصه: عدم موافقة مباحث أمن الدَّوْلة.

والحق أنني تولَّاني عجب لا نهاية له من أن إدارة من إدارات الحكومة، لا تجد حَرَجًا في أن تُعلن ببساطة أنها تعمل لحساب مباحث أمن الدَّوْلة، وأنها تتلقى صراحة أوامر وتوجيهات من هذه المباحث فتعمل بها وتطيعها، وتعلن للناس ذلك؛ أي تعلن للناس أنها لا تجد بأسًا في أن تكون ذيلًا لإدارة مباحث أمن الدَّوْلة المكونة لجهاز أكبر كثيرًا وأضخم، وهو جهاز الدَّوْلة الشَّامل العظيم؛ ومن ثم فإن هذا الجهاز الجزئي، مهما بلغ من خوف النَّاس منه وخشيتهم من قدرته على إيذائهم، ولا سيما في ظل قوانين الطوارئ، إلا أنه ليس سيد الحكومة، ولا صاحب الأمر والنهي فيها.

فإذا كانت وزارة الشُّئون الاجتماعية قد قبلت أن تخضع في المسائل الخاصَّة بتأليف جمعيات لتوجيهات إدارة مباحث أمن الدَّوْلة وأن تتلقى الأوامر منها

فتطيع وتنفذ الأمر، وكأن هذه الوزارة عسكري من عساكر الشرطة، يُوجَّه فيتَّجِه ويُؤمَر فيُذْعِن؛ فقد كان ممكنًا أن يَتمَّ هذا الأسلوب من الخضوع والطاعة، في تسَتُّر؛ فرسول الله ﷺ قال لنا: «إذا بُلِيتُمْ بِالْمَعاصِي فاسْتَتِرُوا»، والسِّتْر الذي نريد أن نسدله على الوزارة، يقتضيها أن تتلقَّى خطابات إدارة مباحث الأمن، فتنفذ ما جاء فيها وتتحمل مسئولية القرار الذي أصدرته إدارة المباحث دون أن تُعلن أنها تلَقَّت هذا الأمر، تلقَّت الخطاب الصادر من الوزارة إلى الجمهور المتعامل بوضع هذا الاعتراف المؤذي في صدر هذا الخطاب؛ فيعرف النَّاس جميعًا أن حكومتنا هي حكومة بوليسية، وأن صاحب السُّلطة الحقيقية في تصريف البلاد هو مُخْبِر المباحث الذي يكتب التقرير لإدارة المباحث التابع لها، مقترِحًا عدمَ التصريح بتأليف تكوين الجمعيَّة التي يَطْلُب تشكيلَها عددٌ من أفاضل أساتذة الجامعة أو عددٌ من أفاضل السَّيِّدات والكاتبات وصاحبات الرأي مِمَّن لهن عددٌ ضخم من التلاميذ والمريدين؛ بدعوَى أن هذه الجمعيَّة جمعية شيوعية.

والحكومة البوليسية هي حكومة مكروهة من العالم كله، وبعض الحكومات البوليسية تُخفي «بوليسيتها» تحت ستارٍ من المدنية والسرِّية، ولا تفعل ما تفعله وزارة الشُّئون الاجتماعية عَلَنًا وبلا خَجل.

فقد سبق أن أخبرني وكيل تعليم من كليات الجامعات أنه فكَّر وعددٌ من زملائه الأساتذة في تأليف جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان في إحدى عواصم الصعيد؛ فجاءهم خطاب مماثل تمامًا للخطاب الذي وصل السَّيِّدات اللواتي فكَّرن في تكوين جمعية تضامن المرأة.

والمؤسف حقًّا أن هذا التصرف الذي يصدر من وزارة ترأسها أستاذة للقانون هي الدُّكتورة أمال عثمان، وهي بحكم ثقافتها، ومهنتها وعلمها، تعرف الحكومة البوليسية، تعرف ما يقوله وقاله علماء القانون في استهجانها، والدعوة إلى وضع حد لخصائصها في كل بلد.

والطريف الذي يحوِّل الأمر، في موضوع دَسِّ المباحث أنفَها في نشاط الوزارات والمصالح الحكومية، إلى مَهزلة مُبْكِيَة ومأساة مُضحكة، أن طلب وزارة الشُّئون الاجتماعية يقول: إن اقتراح منع التصريح بتكوين جمعية تضامن المرأة،

صدر من إدارة البحث الجنائي لمكافحة جرائم الآداب العامة ... ومعنى ذلك بعبارة واضحة أن تصنيف النشاط الاجتماعي في وزارة الشُّئون الاجتماعية أضاف تأليف الجمعيات إلى إدارة تكافح الانحطاط الخلقي، وترويج الفاحشة والعمل على ممارستها، وهو شيء آخر يُرِينا العقليةَ التي يُحكم بها على نشاطِ أصحابِ الرأي والراغبين في الخدمة.

فبماذا ننصح السَّيِّدات اللواتي أردن أن يدافعن عن حقوق المرأة التي هي فرع أو ربما أصل لحقوق الإنسانية؟! أننصحهن بالكف عن هذه المحاولة الشَّريفة السَّامية، وأن يَدَعْنَ مجتمعنا بلا محاولة لرفع مستواه؟!

أم ننصحهن بإنشاء جمعيتهن دون مراعاة قواعد القانون التي تُحَتِّم على من تسَوِّل له نفسه تكوين جمعية أن يَعرض أمره على إدارة تكافح عيوب الآداب وآفاتها؟

إنه مُصاب يُبكي ويُضحك، ولكن لا نجد له حلًّا، إلا أن ندعوَ الله أن يأخذ بِيَدِ هذا البلد، وأن نقول للسيدة أمال عثمان وزيرة الشُّئون الاجتماعية إنها لا تخدم السَّيِّد اللواء حسن أبو باشا الوزير المشرف على إدارة مكافحة جرائم الآداب العامة، ولا تتلقى منه الأوامر، بل إنها لا تخدم السَّيِّد رئيس الجمهورية، إنما هي تخدم القانون الذي تعلَّمَتْهُ وأصبحت أستاذة فيه، وبفضل هذه الأستاذية اختيرت للوزارة، وأنها بسبب تبعيتها للقانون وانتسابها إلى أسرته يجب أن تراجع قواعد وأساليب العمل في وزارتها لتمنع صدور خطاب بهذه الصورة المؤذية الجارحة التي نَقَلْنا صيغتها بالحرف الواحد، ولنمنع مِنْ باب أَوْلَى، صدور قرار مؤسف محزن كالقرار المانع من تكوين جمعية تضامن المرأة.

فتحي رضوان

وفي جريدة الجمهورية، وهي من أكبر الصُّحف الحكومية في مصر، كتب صلاح حافظ في ٨ ديسمبر ١٩٨٣ مقالًا شديد اللهجة ضد منطق أمال عثمان وزيرة الشُّئون الاجتماعيَّة، واعتبر خطابها الرسمي إلينا فضيحة للحكومة المصرية، وأنه لا يزال على مكتبه يلوِّثه.

وكتب صلاح حافظ يقول بالحرف الواحد:

نعم تلوِّثه!

فلا شيء ينقض الوضوء في اعتقادي قَدْر ما تنقضه ورقةٌ تقول لنساءٍ يُعَلِّمْنَ أولادنا في الجامعة: أَحَلْنا أَمْرَكُنَّ إلى بوليس الآداب!

ولا شيء يُهين مصر، ويلَوِّثها، ويمتهن ثقافتها وحضارتها، ويشهِّر بها في العالم كله … مثل ما يفعله قرار مختوم بختم الدَّوْلة يعترف بأن الجهة المختصة بالتعامل مع الأساتذة والمديرات والكاتبات في مصر هي بوليس الآداب! صحيح أن في مصر عقولًا ومنظمات تعتبر مجرد تعليم المرأة فسقًا ودعارة، مجرَّد وجودها في حقل العمل ضلالة وانحلالًا؛ لكن الدَّوْلة لا تكفُّ في دعايتها عن اتِّهام هؤلاء النَّاس بالجهل والضلال، فما بالها تتبنى نفس أفكارهم، وتجعل التعامل مع المثقفات والرائدات من اختصاص البوليس المتخصص في مقاومة الفسق والدعارة؟!

هل تسللت هذه العقول، وتلك المنظمات، إلى داخل جهاز الدَّوْلة؟ وهل سيطرت إلى الحد الذي جعل الثقافة والدعارة في بلادنا وَجْهَيْنِ لعملةٍ واحدة، حسابها ورصيدها عند بوليس الآداب؟

كنت أتصوَّر حتى الآن أن الرأي في شئون الجمعيات الثقافية للجهات الثقافية في الدَّوْلة.

لقد تخلفنا كثيرًا فيما يبدو، دون أن نشعر.

ولن ينقذَنا من هذا التخلف إلا أن نَنْسَى بعض الوقت الذين يشهِّرون بنا في الخارج، ونلتفت بعض الوقت إلى الذين يشهِّرون بنا في الدَّاخل.

الذين يُلطِّخون وجه مصر على راحتهم، ويزينون اللطخ بالتوقيعات وختم النسر، ويقدِّمون للدنيا كلها وثائق تُثبت أننا قوم نَكْره الثقافة كراهية الدعارة، ولا نميز بينهما.

ومتى؟!

على مشارف القرن الواحد والعشرين، وبعد سبعة آلاف سنة من حضارة نفاخر بها العالم الذي نزعم أننا نحن الذين علَّمناه ورَبَّيْناه!

تخلصوا من هؤلاء يا سادة.

وثِقُوا أنَّ مصر بعدَهم ستستعيد ريادتها، وقيادتها، ودورها الحصين في العالم، وأنها ستقهر كل الصعاب التي تواجهها.

فالمشكلة ليست عجزَ مصر وإنمَّا إجهاض حماس شعبها، وقدرته الخلَّاقة، وفرض التَّخلف عليها فرضًا بأمثال هذه النظم التي لا تطالِب راقصات الهرم إلا بدفع الضرائب بينما تُحيل الكاتبات وأساتذة الجامعات إلى بوليس الآداب!

امتدت الحملة الصَّحفيَّة ضد أمال عثمان وزيرة الشُّئون الاجتماعية وضد الحكومة المصرية منذ ديسمبر ١٩٨٣ حتى نهاية عام ١٩٨٤. هكذا اضْطُرَّت أمال عثمان أن تعترفَ بشرعية جمعية تضامن المرأة العربية، وجاءنا الخطابُ الرسمي من وزارة الشُّئون الاجتماعية في ٧ يناير ١٩٨٥ يقرِّر الموافقة على تسجيل الجمعيَّة.

بعد خمسة شهور فقط التقيت بأمال عثمان وجهًا لوجه في مؤتمر المرأة العالمي، الذي عُقد في مدينة نيروبي عاصمة كينيا في يونيو ١٩٨٥، رمقتني بنظرة حمراء، أدركتُ أنها تُكِنُّ لي كراهية مكبوتة، وأنها لن تتوانى عن توجيه ضربة إليَّ عاجلًا أم آجلًا، في الظَّهر أو في البطن. كانت تُسرع الخطَى لتلحق بموكب السَّيِّدة حرم الرَّئيس. وفي المساء أقامت أمال عثمان حفل عشاء كبيرًا للسيدة حرم الرَّئيس دعت إليه جميع النِّساء المصريات المشاركة في المؤتمر، لم أذهب إلى الحفل وآثرت أن أقرأ في سريري روايةً دنماركية جديدة عن مصر القديمة، وفي نيروبي آثرت أن أنام بعد يوم طويل حافل بالعمل واللقاءات مع أعداد كبيرة من نساء العالم.

صديقتي بطة (الدُّكتورة كاميليا) كانت إحدى المشاركات في مؤتمر نيروبي، رأيتها في قاعة كينياتا تُهرول فوق كعبها العالي وراءَ أمال عثمان من أجل اللحاق بموكب السَّيِّدة حرم الرَّئيس، وذهبت بطة إلى حفل العشاء تلك الليلة، وفي الصباح الباكر جاءت إلى غرفتي بالفندق.

مش معقول يا نوال اللي بتعمليه ده! ليه ماجيتيش الحفلة؟ كلهم راحوا إلا إنتي؟ مش كفاية اللي عملوه فيكي؟! عاوزاهم يقفلوا الجمعيَّة بتاعتك؟! أنا بصراحة يا نوال باخاف أقول إنك صاحبتي وإلا رفدوني من شغلي! ثم كركرت بطة بضحكتها الطويلة المتقطعة، ضحكتُ معها ثم قلت: لا يمكن يرفدوكي يا بطة عندك حصانة عائلية برلمانية. أطلقت بطة ضحكة أخرى وقال: وعندي حصانة دبلوماسية كمان أُمَّال خيبانة زيك يا ست نوال؟!

ظلت وزيرة الشُّئون الاجتماعيَّة على عدائها لجمعية تضامن المرأة العربية، ومع أجهزة الحكومة والأمن، وبعض النِّساء شجعتهن الوزيرة على تكوين جمعية جديدة للمرأة. لجأت

الحكومة إلى مبدأ فَرِّقْ تَسُدْ، امتلأت السَّاحة المصريَّة بالجمعيات النِّسائيَّة، كل أربع أو خمس نساء يُشكلن جمعية أو مركزًا أو رابطة أو شركة مساهمة أو أي شيء، المهم أن تتعدد الفِرق ويضرب بعضها بعضًا، تتنافس أيها تقترب أكثر من دوائر السلطة والمال والنفوذ.

لم تدخل جمعية تضامن المرأة العربية في هذا الصِّراع بين النِّساء، لكن وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة لم تكفَّ عن مطاردة الجمعيَّة ومعها وزارة الدَّاخلية، أجهزة الأمن والمباحث كانت تترَبَّص، تطارد العضوات في أماكن العمل والبيوت، تسلِّط عليهن صحف الجماعات الإسلامية والإرهابيَّة، التابعة للحكومة. بدأنا نقرأ هجومًا في تلك الصُّحف على أنشطة الجمعيَّة، تحت المانشتات الكبيرة الحمراء والسوداء، بدأنا نقرأ عناوينَ من نوع: جمعية نوال السعداوي الكافرة تنظم مؤتمرات ضد الأخلاق والتراث، جمعية تضامن المرأة العربية مأجورة لهدم الإسلام والآداب العامة.

في ٢٢ مارس ١٩٩٠ عقدت جمعية تضامن المرأة العربية اجتماعًا كبيرًا من أجل الوحدة الوطنية، كانت أحداث القتل الإرهابية تغتال الأبرياء في صعيد مصر، ثم وقعت أحداث أبو قرقاص بالمنيا، وبدأت الفتنة الطائفية تهدد بلادنا. ثم عقدت الجمعيَّة اجتماعًا آخر كبيرًا ليلة الخميس ٢٩ مارس ١٩٩٠، زاد عدد المشاركين في الاجتماع عن المِائة، كونوا جميعًا الهيئة التأسيسيَّة للجنة المصريَّة للدفاع عن الوحدة الوطنية. في الاجتماع الثَّالث ليلة ٥ إبريل ١٩٩٠ بلغ أعضاء الهيئة التأسيسية مِائة وتسعة وأربعين عضوًا وعضوة من مختلف التيارات السِّياسيَّة أو المدارس الفكريَّة في مصر، أجمعوا على ضرورة العمل المتواصل لإخماد الفتنة الطائفية وتوحيد الشَّعب المصري نساءً ورجالًا.

هنا أدركت الحكومة خطر جمعية تضامن المرأة العربية، هنا بدأت الحرب الضاربة ضد الجمعيَّة وضد عضواتها، على رأسهم بطبيعة الحال رئيسة الجمعيَّة نوال السعداوي. بدأت وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة مع وزارة الدَّاخلية إيفاد المراقبين والمفتشين ورجال المباحث إلى أي اجتماع تعقده الجمعيَّة. اشتدت الحملة في صحف الحكومة والصُّحف الإسلاميَّة ضد الجمعيَّة الكافرة ورئيستها الزنديقة التي لا تحترم القيم أو الآداب العامة.

ثم قامت حرب الخليج في يناير ١٩٩١، حرب أخرى جديدة في سلسلة الحروب المتعاقبة منذ نشوء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، محاولة كبرى من جانب الثالوث القديم، أو الحلفاء الأربعة ضد العالم العربي، الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وإسرائيل، وزاد عددهم إلى ثلاثين جيشًا مسلحين بالقنابل الليزر، ضربوا بغداد ليلة ١٦ يناير ١٩٩١.

احترقت بغداد، مات نصف مليون من النِّساء والأطفال والشَّباب، وحتى اليوم ونحن في يونيو عام ٢٠٠٠ لا يزال الشَّعب العراقي تحت الحصار، يموت فيه كلَّ يوم آلاف الأطفال دون دواء، دون طعام.

إنها حرب النفط الثَّانية بعد حرب ١٩٧٣، إنه الاستعمار القديم يرتدي حذاءً جديدًا يسميه النظام العالمي الجديد، ويدوس به على أرواح الشُّعوب من أجل البترول وتنشيط تجارة الأسلحة، وفتح أسواق جديدة في بلادِ ما يُسمى العالم الثالث.

النِّساء والفقراء هم العملة الرخيصة في الحروب والأزمات، أول من يدفع وآخِر من يأخذ، سُنَّة القانون الطبقي الأبوي الذي يحكم عالمنا الحديث وما بعد الحديث.

أرادت الولايات المتحدة أن تستخدم في حرب الخليج بعض الجيوش العربية كنوع من الغطاء، كنوع من التمويه يحدث دائمًا في كل الحروب، هكذا دخل الجيش المصري والجيش السُّوري الحرب ضد العراق تحت لواء الجيش الأمريكي وجيوش الحلفاء الثَّلاثين.

– الحلفاء؟!

في طفولتي سمعت أبي ينطق كلمة الحلفاء بطرَف لسانه، يَلْفِظها كأنها هي بَصْقَة، الحلفاء يا ابنتي هم الأعداء، يتخفَّى العدو تحت اسم الصديق، ماذا نفعل يا ابنتي؟! ضحكنا حين سمعنا الإذاعات تقول بصوت السادات عام ١٩٧٦ صديقي كارتر، ثم ضحكنا حين ردَّدت الإذاعات هذه العبارات عام ١٩٩١ مع تغير الأسماء.

وتجمعت النِّساء العربيات من خمس عشرة دولة عربية في مؤتمر جمعية تضامن المرأة العربية خلال الفترة من ٤–٧ سبتمبر ١٩٩٠، أصدرت النِّساء المجتمعات بيانًا ضد غزو العراق للكويت، وضد قيام حرب الخليج العسكرية، وتم تشكيل لجنة من النِّساء للعمل على منع الحرب وحل الأزمة بالطرق السلمية.

هنا انتهزت وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة الفرصة لتوجيه ضربتها إلى الجمعيَّة، صدر قرار أمال عثمان وزيرة الشُّئون الاجتماعية بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية، ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية أخرى اسمها نساء الإسلام. صدر هذا القرار غير القانوني في ١٥ يونيو ١٩٩١، بدأت حملة في الصُّحف الحكومية والإسلامية التابعة لها لتشويه سمعة الجمعيَّة المأجورة الخائنة للوطن، وسمعة رئيستها نوال السعداوي المعادية للإسلام والآداب العامة ومصالح الوطن الكبرى.

لم يصدق أحد هذه الحملة، وبدأت بعض الأقلام تعارض قرار وزيرة الشُّئون، الذي أصدره نيابة عنها نائب محافظ القاهرة.

في ٢١ يوليو ١٩٩١ بجريدة الأخبار كتب مصطفى أمين في عموده اليومي بعنوان «فكرة» ما يلي:

في يوم ١٥ يونيو ١٩٩١ أصدر نائب محافظ القاهرة لمنطقة غرب القاهرة قرارًا بحل جمعية لتضامن المرأة العربية.

ونحن نشجع قيام الجمعيات في بلادنا، وندهش لأنَّ نائب المحافظ يغلق جمعية لتضامن المرأة العربيَّة وينقل أموالها إلى جمعية أخرى بغير أن يذكر سبب هذا الإغلاق.

والذي نعرفه أن هذه الجمعيَّة قامت منذ سنوات طويلة ... منذ إنشائها وهي تلقى المعاكسات، بالرغم من أن الدُّكتور محمود شريف وزير الحكم المحلي ألقى محاضرة في هذه الجمعيَّة وفي الوقت نفسه صدر قرار يحظر على الجمعيات بدائرة غرب القاهرة أن تجادل في (الأمور السِّياسيَّة) ولا نعرف مثل هذا القرار في أي بلد ديموقراطي، وقد عشنا طوال عمرنا نرى نقابة المحامين ونقابة الأطباء وغيرهما من الجمعيات والنقابات تشتغل بالسِّياسة، وفي ثورة ١٩١٩ كانت جمعية المرأة الجديدة تصدر قرارات تهاجم الاحتلال ولم يحلَّها الإنجليز.

إننا ندهش أن تحل جمعية بغير تحقيق، وبغير أن يوجه إليها تنبيه إذا أخطأت.

نفهم أن تحل جمعية بسبب الآداب العامة، أو لأنها تدعو إلى قلب نظام الحكم بالقوة، ولكن لا نفهم أن تحل جمعية لأن رئيستها أو أحد أعضائها يعارض الحكومة، وخاصةً أن رئيسة هذه الجمعيَّة الدُّكتورة نوال السعداوي كانت تُلقي الخطَب والمحاضرات علنًا تعارض فيها سياسة الحكومة، وكانت الصُّحف العالمية تعتبر هذه المعارضة دليلًا على أن في مصر ديموقراطية تسمح بحرية الرأي.

هذا القرار أزعج كثيرًا من الجمعيات؛ فإذا اعترضت جمعية ما على حالة التَّموين في البلاد فهذا تدخُّل في السِّياسة! وإذا طالبت جمعية بالإكثار من زراعة الْبِرْسِيم فهذا تدخل في السِّياسة! وإذا طالبت جمعية بمنع استيراد الْحَمِير إلى مصر فهذه سياسة! بل صميم السِّياسة. كل شيء في البلد سياسة؛ ولهذا فمن واجب كل الجمعيات في مصر أن تسألَ ما هي حدود السِّياسة المسموح بها.

إنَّ الَّذين أصدروا هذا القرار لم يعلموا حتَّى الآن أن في مصر ديموقراطيَّة.

مصطفى أمين

وفي ٣١ يوليو كتب فليب جلاب رئيس تحرير جريدة الأهالي يقول تحت عنوان: وزارة الشُّئون و«الحلفاء» الرَّاشدون:

لا يستطيع أحد مهما بلغت جرأته على الحق أن يقنعنا بأي في مصر حكومة واحدة.

لدينا حكومة تتحدث عن الانفتاح والتعددية والشَّرعية، ولدينا حكومة أو حكومات أخرى تعتقد أن أعظم مظاهر الدِّيموقراطيَّة والتعددية والشَّرعيَّة هي تطبيق القانون العثماني أو على أحسن الفروض مبادئ الحكم المملوكي.

ولا يستطيع أحد أن يشكل جمعية لممارسة أي نشاط اجتماعي (دعك من النشاط السياسي) إلا بعد إجراءاتٍ وتحرياتٍ تَستدعي تدخل الأمم المتحدة وربما قوات «الحلفاء» الرَّاشدين لدى صاحبة العظمة وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة.

ويبدو أن الوازرة وافقت في ظروف دولية غير مُواتِية على تسجيل جمعية تضامن المرأة (المصرية) كما سجلت إدارة الهيئات الدوليَّة بوزارة الخارجيَّة المصرية جمعية أخرى دوليَّة بنفس الاسم ذات وضع استشاري في المجلس الاقتصادي الاجتماعي بالأمم المتحدة.

وما إن بدأت تباشيرُ النظام العالمي الجديد حتى رأت وزارة الشُّئون الاجتماعية والسَّيِّد نائب محافظ القاهرة للمنطقة الغربية أن الفرصة أصبحت مُواتية لتأديب رئيسة الجمعيَّة المصرية الدُّكتورة نوال السعداوي، والخلط بين الجمعيتين ومصادرة ممتلكاتهما وتسليمهما إلى «محتسب» موظف في وزارة الشُّئون يرأس هو نفسه جمعية نسائيَّة، مع الاحتفاظ له شخصيًّا بعشرة في المِائة من هذه الممتلكات جزاء المشقة التي سيعانيها في عملية الاستيلاء على أموال الغير.

ونشر نائب المحافظ بيانًا يعتمد فيه على بلاغٍ لسيدة تزعم فيه أن الجمعيَّة المصرية تحتفظ في بنك مصري بأموال أخرى لم تُبلغ عنها، وهي في الحقيقة أموال الجمعيَّة الدولية، وزعم المسئول أنه راجَعَ وزارة الخارجية فأبلغته أنها

لا تعرف شيئًا عن الجمعيَّة الدولية، مع أن لها ملفًا منذ تسجيلها في الأمم المتحدة. والمدهش هو أن رجالًا مسئولين يعتقدون أن من يريد إخفاء أموال عن مراقبة وزارة الشُّئون الاجتماعية يقوم بإيداعها في بنك مصري باسم الجمعيَّة في عاصمة مصر، مع أن تهريب مثل هذه الأموال يمكن أن يتم بغاية اليسر إلى بنوك في الخارج لو كان لما يزيد على ١٠٠ مليار دولار في الخارج، والأكثر إثارة للدهشة هو أن السَّيِّد نائب المحافظ استفسر عن حقيقة الجمعيَّة في وزارة الخارجية؛ فعرف منها أنه ليست هناك جمعية بهذا الاسم رغم الوثائق الرسميَّة التي تقدمها الدُّكتورة نوال السعداوي.

ولما كان من المستحيل أن تجهل إدارة الهيئات الدولية بوزارة الخارجيَّة المصريَّة اسم جمعيَّة دوليَّة ذات ملف رسمي لديها؛ فقد يكون سؤال محافظ القاهرة عن طريق الخطابات الرسمية المعروفة قد وُجِّه إلى وزارة أخرى أو ربما لوزارة الخارجية في عاصمة أخرى … أو ربما لم يَستدلَّ مندوب المحافظة على عنوان وزارة الخارجية كما حدث منذ أسبوعين عندما سجَّل أحد «المحضرين» على إنذار موجَّه لوزارة الصناعة لتنفيذ حكم لصالح عمال المحلة، بأنه لم يُستدلَّ على عنوان وزارة الصناعة بالقاهرة.

وهكذا استطاعت وزارة الشُّئون مع السَّيِّد نائب المحافظ أن يعيدا إلى ذاكرة المصريين والقاهرة بعضَ تقاليد مصر الزاهرة في عصور العثمانيين والمماليك حتى لا يتوهَّمَ أحد أن مبادئنا السِّياسيَّة والاجتماعيَّة تنبع من خارج بلادنا في قضية إنشاء الجمعيات بالذات.

وهذا عمل من جلائل الأعمال يمكن أن يبعد النَّاس — ولو لأيام معدودة — عن مناقشة أمور كئيبة مثل الارتفاع الصاروخي للأسعار وضريبة الرَّأس (أو المبيعات) وما يتعرَّض له العرب من الخليج إلى المحيط دون استثناء، من إذلال وإهانة لم يَسبق لهما مثيل.

وفي جريدة الأخبار يوم ١٧ أغسطس ١٩٩١ كتب صلاح حافظ تحت عنوان: وزارة «الجماعات»:

عندي «للإسلاميين» في مصر خبر سعيد:

وزارة الشُّئون الاجتماعيَّة قررت أن تنوب عنهم، وتنفذ برنامجهم، دون ما حاجة إلى استيلائهم على الحكم!

وقد اختارت الوزارة أن تبشِّر الأمة المصريَّة بهذا الفتح العظيم منذ حوالي أسبوعين، وبدأت بقرار لن يصدقه القارئ، وإن كنت أقسم بالله العظيم ثلاثًا أنه صدر.

موضوع القرار جمعية اسمها «تضامن المرأة المصريَّة».

وهي جمعية ترأسها الطبيبة الكاتبة الأديبة نوال السعداوي، ولا أحد يجهل من هي نوال السعداوي. وهذه الجمعيَّة تعمل في مصر منذ سنوات ولها مقر، ولها صفة اعتبارية؛ بِناءً على قرار صادر من وزارة الشُّئون الاجتماعية.

لكن شيئًا ما حدث فجأة في الوزارة.

شخص ما في الوزارة لم تَعُدْ تَروق له هذه الجمعيَّة، وقد يكون السبب أنه يكره النِّساء المتمردات، أو أن زوجته التحقت بالجمعيَّة وعادت تناقشه بلهجة لم يألفها، أو أنه مسئول عن مراجعة حسابات آلاف من الجمعيات … ويريد أن يختصر العدد، أو أن السَّيِّد البدوي زاره في المنام وأركبه حصانًا أبيض، وقال له «قُمْ واشطب هذه الجمعيَّة.»

المهم على أية حال، هو أنه فعل.

وفي الصَّباح التَّالي صدر قرار من الدُّكتورة أمال عثمان الممثلة للمرأة في مجلس الوزراء، بإلغاء جمعية «تضامن المرأة المصرية».

ولم يكن في القرار أسباب؛ لأن القوانين في مصر لا تُلزم صاحبَ أي قرار بأن يشرح أسبابه.

لكن هذا لا يهم.

إنَّما المهم أن القرار فَرَضَ على الجمعيَّة أن تُسلِّمَ بيتها، وأدواتها وأموالها، لجمعية أخرى في ضاحية المعادي، اسمها «جمعية نساء الإسلام»!

وهذا هو ما يستحق أن نتوقف عنده.

فجمعية «نساء الإسلام» هذه بحكم اسمها جمعية للمسلمات فقط … والجمعيَّة التي تقرر حلها لكل المصريات؛ فكيف تسلِّم جمعية قومية ممتلكاتها وفلوس عضواتها لجمعية لا تقبل في عضويتها غير فريق المسلمات!

وإذا كانت جمعية نوال السعداوي ضارَّة، وغير مرغوب فيها ونخشى إذا تركناها أن تلوث البيئة، أو تثير حربًا عالمية ثالثة، فلِمَ لا تُحَلُّ وتئول أموالُها إلى أعضائها، وما معنى اغتصاب ممتلكاتها كما فعل صدام حسين بالكويت؟!

إن شيئًا كهذا لا يمكن أن يحدث في بلد متحضر.

وأمام القضاء المصري الآن دعوى رفعتها هذه الجمعيَّة وستكسبها؛ لأن القضاء المصري لا يزال متحضرًا والحمد لله.

لكن ما يهمنا هو السُّؤال الخطير: من الذي قرر حين رأت الوزارة حل الجمعيَّة أن تلتهم فلوسها جمعية دينية؟

قيل لي عندما سألت: إن المسألة أبسط كثيرًا مما توهمت، وإن الرَّجل المكلف بتصفية جمعية نوال السعداوي كان بالصدفة الرَّجل الذي أسس جمعية نساء الإسلام؛ فاختار على سبيل الكسل أن يضم الجمعيَّة المحلولة إلى الجمعيَّة التي أسسها.

وفي اعتقادي أن هذا عذر أقبح من الذنب.

فمعناه أن مصائر الجمعيات في بلادنا أصبحت رهنًا بمدى راحة بعض الصغار، من كبار الموظفين في أجهزة الدَّوْلة، وأن حكومتنا لم تدرك بعد — برغم آلاف الدروس — أهمية الجمعيات الأهليَّة في بِناء المجتمع والنظام، وأنها بإهدار كرامة العمل الاجتماعي الأهلي تُنهي إلى الأبد إمكان التوحُّد ما بين النَّاس ونظام الحكم، وتلغي المبادرة الشَّعبية، والإرادة الجماهيرية، وكل ابتكار يمكن أن يساند أجهزة البيروقراطيَّة البلهاء المتعفنة.

ثم يبقى بعد ذلك السؤال …

من الذي أصبح يحكم هذه الأجهزة البلهاء … إلى أي مدًى أصبحت تديرها «الجماعات» وهو سؤالٌ أُشفق على الدُّكتورة أمال عثمان من مواجهته؛ لكنني أَدْعُوها أن تفعل.

فهي بالنسبة لي نموذج لنجاح المرأة في المناصب الكبرى، ونجاحها يُنصف موقفي من المرأة عمومًا، وسيؤلمني كثيرًا أن تقفل عينيها عن مثل هذه الفضيحة في وزارتها، وأن يخرج علينا غدًا من يُعَيِّرنا قائلًا: هذه وزيرتكم ضَحِكُوا عليها، ولا يُفلح قومٌ وَلَّوْا أمورَهم امرأة!

مع خالص حبي، وتأييدي واحترامي للدكتورة أمال عثمان!

صلاح حافظ

لم تسفر هذه الحملة الصَّحفيَّة عن شيء، كما أن القضية العاجلة التي رفعناها بالمحكمة الإدارية لم تسفر عن شيء؛ لقد قررت الحكومة المصرية إغلاق جمعية تضامن المرأة العربية، وكانت وزيرة الشُّئون الاجتماعية أمال عثمان تنتظر هذه الفرصة منذ أصدرت قرارها بتسجيل الجمعيَّة عام ١٩٨٥.

لم تدخل صديقتي سامية تضامن المرأة منذ إنشائها، لم تكن تؤمن بتضامن النِّساء داخل تنظيم خاص بهن، فقط تؤمن بالحزب السياسي ومشاكل العمال والفلاحين. ثم تغيرت سامية وأصبحت ترأس جمعية نسائية وتتحدث عن النظام الأبوي والختان والعنف ضد النِّساء حتى حصولها على وسام الختان. ثم سرعان ما انقلبت على نفسها حين تغيرت موازين الحكومة، وبدأت تعلن أنها لم تتكلم على الختان أو ذلك الشيء الهامشي في حياة النِّساء وهو الجنس، إنها فقط معنية بمشكلات الفقر ومحو الأمية بين النِّساء.

أصبحت هذه هي النغمة الجديدة السائدة في مصر خلال هذا العام ٢٠٠٠، أصبحت زعيمات الجمعيات النسائية يُهَرْوِلْنَ إلى مؤتمرات المرأة، يَنطقن كلمة «الفقر» بالطَّريقة ذاتها التي تنطقها الحكومة، وفي المساء يحضرن حفل العشاء الفاخر على ضفاف النيل، تلتهم الواحدة منهن فخذة خروف مشوية، مع رشفات من الكأس البِلَّوْري، وتَرِنُّ كلمة «الفقر» في الجو عارية كالعورة.

وفي أغسطس ١٩٩٧ بعد عودتي من المنفى، كنت أسير في شارع قصر العيني حين التقيت وجهًا لوجه بصديقتي سامية. كانت واقفة عند ناصية الشَّارع، حيث كانت تعمل في الصيدلية القديمة هي وزوجها رفاعة. اختفت الصيدلية وانتصب مكانها مبنًى كبير تعلوه يافطة لامعة: الشركة التِّجارية العالمية، مكتب الاستيراد والتصدير. وأدركت أن سامية أصبحت تملك شركة خاصة مع زوجها، أصبح الاثنان من كبار رجال الأعمال في مصر، يتاجران بالعقاقير والكيماويات وحبوب منع الحمل، وحبوب إعادة الشَّباب وتنشيط القوَى الجنسية لدى الرِّجَال، ومنها حبوب الفياجرا وحبوب جديدة لم تنزل السوق بعد.

– خلاص يا سامية بقينا نعيش في دولة رجال الأعمال؟!

– ونساء الأعمال يا نوال، يعني نسيب الرِّجَالة ياخدوا كل حاجة؟! لازم يكون فيه مساواة! واحنا في عصر العولمة، العالم كله مع العولمة إلا أنتِ يا عزيزتي!

ضحكت سامية ضحكة قصيرة ساخرة، ثم مطَّت شفتيها الرفيعتين، وقالت: أنا شركتي صغيرة بالنسبة لشركة صاحبتك بطة، عارفة رأسمالها كام؟! وكمان جوزي رفاعة مشاركني فيها، لكن بطة عاملة شركة لوحدها وجوزها حمدي عنده شركة لوحده.

– وبطة تتاجر في إيه يا سامية، حبوب الفياجرا برضه؟!

– الفياجرا سوقها واقف يا نوال، رجل عجوز عنده تسعين سنة بلع الحبوب ومات بالسكتة القلبية، اسمه معروف، كتبت عنه الصُّحف، ومن يومها حصل هبوط كبير في المبيعات.

– بطة أخبارها إيه؟ بتشوفيها يا سامية؟

– طبعًا، بنتقابل دائمًا في مؤتمرات رجال ونساء الأعمال مع الوزراء والمسئولين، لكن بطة من نساء الأعمال الشاطرين أوي يا نوال.

– تتاجر في إيه يا سامية؟

– عاملة مصنع كبير لملابس المحجبات، شوبينج سنتر كبير في الدقي للزي الإسلامي والجلاليب الفلاحي والقلل والفخار والتحف والآثار القديمة، وعندها مجلة مهمة أوي بتدافع فيها عن تراثنا القديم والهوية الأصلية، والخصوصية الثَّقافية و...

وأطلقت سامية ضحكة قصيرة جافة ثم مطَّت شفتيها الرفيعتين في امتعاض: التجارة بالدين لها سوق كبير أوي أكبر من سوق الفياجرا يا نوال، على العموم التجارة حلال، والوزراء بقوا من رجال الأعمال، مش أحسن من اللي بيسرقوا، وعندهم حصانة برلمانية؟! خدي الجورنال اقرئي عن السَّيِّد الوزير والسَّيِّدة الوزيرة، وطبعًا عندهم حصانة وماحدش قفل الجمعيَّة بتاعتهم، ولا حد عمل تحقيق معاهم، وشوفي حكاية نواب القروض وسرقات أعضاء مجلس الشَّعب واللي هربوا من أصحاب البلايين من غير ما حد يمسكهم في المطار، رغم أن ما حدش يقدر يخرج من المطار إذا كانوا عاوزين، و... ثم تمطُّ شفتيها وتسكت.

حتى المجلات والصُّحف الحكومية أصبحت تنشر عن ظاهرة تهريب الأموال وفساد النِّظام السِّياسي في مصر. في مجلة روز اليوسف يوم ٢٤ يونيو ٢٠٠٠ قرأت موضوعًا كبيرًا تحت عنوان «الشَّائعات صناعة رجال الأعمال»، جاء بالحرف الواحد: «انتشرت الشَّائعات عن الهروب وسوء الموقف إلى حدٍّ يُنذر بزعزعة سوق المال.» ثم مانشيت كبير: «ديون رجال الأعمال للبنوك ٧ مليارات فقط مشكوك في تحصيلها من إجمالي ٢٤٠ مليار جنيه.»

وفي جريدة الأهالي، إحدى الصُّحف المعارضة، جاء في الصَّفحة الأولى يوم ٢٨ يونيو ٢٠٠٠ هذا المانشيت الضَّخم: «القائمة السرية للقروض التي تواجه خطر الضياع، ٢٥ مليار

جنيه، ديون ٣٧ رجل أعمال للبنوك، شركات وهمية، وقروض؛ نظير عمولات وشيكات وسماسرة لنهب الأموال، نواب القروض ليسوا وحدَهم، والنظام المصرفي بلا ضوابط.»

أزمة الاقتصاد في مصر أصبحت حديث الساعة، أزمة السيولة وأزمة الركود، وانتشرت النكت والفكاهات حول القطط السمان والرءوس الكبيرة والحيتان، أصغرها بلقب وزير أو وزيرة أو نائب بمجلس الشَّعب أو الشورى.

الصَّديقات القَديمات

أجلس إلى مكتبي الصغير في غرفة نومي، أُطِلُّ على القاهرة من الدور السَّادس والعشرين، ترقد المدينة تحت سحابة من الضباب الأسود بلون الدُّخَان، يبدو أول النهار كأول الليل. عُدت إلى مصر بعد سنوات الغربة، أعيش الغربة داخل الوطن كالغربة خارجَه، لم تعد السَّماء زرقاء صافية كما كانت، الهواء أصبح مشبعًا بالدخان والهزيمة، نهر النيل أصبح حبيسًا داخل مدينة من الأسمنت، ارتفعت الجدران السوداء وزحفت على كل شيء، لم تَعُد هناك شجرة واحدة خضراء ألمحها في مجال الرؤية.

نافذتي عالية أُطل منها على نهر النيل، كانت له رائحة جدتي وطفولتي، الطمي الأسود بلون بشرتي. كنت أسبح في النيل مغمضة العينين، يدفعني التيار الهادئ، يهبط نحو الشَّمال مع الأشرعة البيضاء، وأجنحة حمائم السلام، والطيور المهاجرة من الشمال أو من الجنوب، مع حركة الشَّمس والقمر.

في مصر تنساب مياه النيل مع الأرض من الجنوب إلى البحر الأبيض، وقد تعاكسها الرِّياح الشَّمالية تبطئ حركتها. تمشي بجوار الشَّاطئ مع حركة الْحَمِير والجاموس، والأقدام الحافية بلون الأرض، يذهبون إلى الحقول عند الفجر، يعودون مع الغروب، بيوتهم من الطين المحترق بالشمس، وجوههم بلون أقدامهم وأكثر سُمرة، ضامرة ممصوصة، وأيديهم مُشقَّقة بالفأس.

تركت حي الجيزة الذي كنت أسكنه قبل أن أسافر إلى المنفى، قررت ألا أعودَ إليه، أركان شقتي في الجيزة تُعشش فيها ذكريات سوداء، سنوات المطاردة والحبس، وجوه رجال البوليس تُطل من الباب، فوهات البنادق مصوَّبة ناحيتي، رائحة الخيانة أشمها في

كل ركن، تحت الابتسامات الناعمة ألمحُ آلة القتل، تحت اسم الحماية يمشي البودي جارد خلفي ويده فوق المسدس.

عدت من المنفى منذ عامين إلى هذه الشَّقة الصَّغيرة في حي قديم اسمه شبرا، يكتظ بالجوامع والكنائس. تبرز قِبابها ومآذنها فوق أسطح البيوت الواطئة المتلاصقة. بحر أسود من الأسمنت بلا شجرة واحدة خضراء، يرتفع عند جبل المقطم ناحية الشرق، تعلوه قلعة محمد علي، قمم الأهرامات الثلاثة خوفو وخفرع ومنقرع تبرز من الضباب بلون الدُّخَان ناحية الغرب، والنهر يمشي يشقُّ طريقه بين الأسفلت، كالسهم الأبيض ينعكس عليه الضَّوء، ينقسم عند شبرا ليحتضن الجزيرة الصغيرة، اسمها وراق العرب، ثم يمشي رغم محطة الكهرباء الضخمة إلى القناطر الخيرية، يجتازها رغم السدود، وشبح السِّجن الأسود بنوافذه الصغيرة المسدودة بالقضبان الحديد.

عيناي مشدودتان إلى الماضي بحكم الحنين، رغم الجرح الدفين يبدو الماضي أجمل من الحاضر. والنيل كما كان يمشي إلى الإمام لا ينظر إلى الخلف، ينقسم إلى الفرعين الكبيرين، دمياط ورشيد، كالأم تفرد ذراعيها وتحتضن دلتا النيل، تشبه المروحة أو الكف المفتوحة الأصابع على البحر، صدرها مفتوح لتلقي الضربات من الغرب فوق منارة الإسكندرية. واحترقت بورسعيد من الشرق تحت قنابل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وأمريكا من وراء الستار. لم تكن مياه النيل تتقهقر إلى الوراء، تمشي في طريقها، تفرغ شحنتها في جوف البحر، تلقي فيه نفسها كالفتاة العذراء تفضل الموت غرقًا عن أن يغتصبها الإله.

من نافذتي أُطل على المدينة كلها التي يسمونها القاهرة الكبرى، هي العاصمة منذ أكثر من ألف عام، عندَها يختنق النيل بالدُّخَان والجدران المسلَّحة، إنَّها القاهرة، وتقهر أهلها منذ الفراعنة، كما تقهر معبودها المقدس إله الفيضان، وترفع صيحاتها قبل الشروق عبر مكبرات الصوت المثبتة فوق المآذن، وأجراس الكنائس في حي شبرا تتبارى مع أصوات الرِّجَال يؤذنون للصلاة خمس مرات في النهار، وفي الليل تعلو فوق التراتيل المقدسة طرقعة الصَّاجات في حفلات الزفاف مع دقات الطبول والغناء والرقص.

في طفولتي كنت أحب الغناء والرقص، وأجلس إلى جوار عمتي بهية، تتربع فوق الأرض الترابية، بين ساقيها تحتضن الطبلة، تنقر عليها بأصابعها السمراء المشققة، ينطلق اللحن الراقص، والقدم تدق الأرض مع الإيقاع. أقدام النِّساء كبيرة مثل قدم جدتي، بحجم قدم النبي المحفورة فوق الحجر الأسود، أقدام نساء يخرجن قبل الفجر حاملات الفئوس، يأكلن ما تزرعه أيديهن، يشربن من ماء النيل. جدتي أطولهن قامة، ورثت قامتها الفارعة عن

أمها، لم تكن أجيرة عند أحد، زوجها مات قبل أن يسيطر عليها، العمدة كانت تقف أمامه مرفوعة الرَّأس، تشوح في وجهه بيديها الكبيرتين المشققتين، وفي الليل تغني مع النِّساء على إيقاع الطبلة: يا عزيز يا عزيز كُبَّة تاخد الإنجليز.

في الخامسة من عمري سألتُها «الإنجليز مين يا ستي الحاجة؟» تضحك حتى تدمع عيناها، تمسحهما بطرَف جلبابها الواسع، وتحكي حكاية الإنجليز حين دخلوا مصر وهي طفلة، تمد عنقها القوي العضلات وتشمخ بأنفاسها وتقول: كنت عيلة صغيرة ألعب مع العيال، سمعنا أن الإنجليز دخلوا مصر، روحنا للعمدة كان عددنا عشرين أو تلاتين وكلنا عيال صبيان وبنات، وسألنا العمدة عاوزين إيه يا عيال؟ قلنا عاوزين نحارب الإنجليز يا عمدة. كان راجل كِشر غِلس وشه أحمر زي الإنجليز، شخط فينا، وقال: امشوا على بيوتكم يا ولاد المركوبة. حسيت إن جتتي ولعت نار، يقول على أمي المركوبة، أمي اللي عمر ما حد ركبها حتى جوزها ما عرفش يركبها، رُحت ماسكة طوبة وزقلاها في عينه، طارت عينه الشِّمال، وأنا جريت على الدار ورايا العيال والغفر ورانا بالشوم، ضربوا العيال، فتحوا راس الواد عقلة الصباع، كان زي القرد، ياما فتحوا راسه وأمه تلطم وتقول مات لكن بعد يومين يقوم زي العفريت، وهو اللي فتن عليَّ وقال إني أنا اللي رميت الطوبة في عين العمدة، وأبويا كان يخاف من العمدة، وقال لازم البنت نجوزها، ما فيش غير الجواز يشكمها ويا لا هوب مسكوني وجوزوني.

ورثتُ بشرة جدتي السمراء، والدماء في جسدي تشدني إليها، في أعماقي عشق لقوة ملامحها، كأنما منحوتة في الصخر، والنيل تسميه البحر، تنعكس عليه أشعة الشمس بلون الذهب السائل، أو الدم القاني المخلوط بالطمي. كانت جدتي جامحة كالنيل في عصره الأول حين كان يفيض، ينحدر من منابعه العليا جَموحًا يجتاز الصخور والنتوءات الحجَرية لا يجسر على ركوبه أحد، فإذا ترك الأرض العالية يفقد جموحه، يستطيع النَّاس الاقتراب منه، قد يضيق فلا يصبح سوى أذرع مسطحة، يجتازه النَّاس مع بهائمهم وسلالهم من الجريد المضفور أو القش المبروم، يبولون فيه دون حرج، يفقد إله الفيضان شموخه القديم، يمضي منحدرًا إلى الوادي السهل، يبتلع في جوفه قُمامة الصعيد والدلتا، وعظامًا مفزعة من اللحم، جلود خراف مذبوحة ومسلوخة ثم منفوخة، يتعلق بها جسد فتاة صغيرة تسبح مع النهر جسدًا إلى جسد، ترتج مع رجرجات الموجات كأنما في رقصة النفَس الأخير.

أتطلع إلى وجوه النِّساء أبحث عن وجه جدتي، قسمات وجهها كانت أكثر حدَّة، قامتها أطول بحثًا من هامات الرِّجَال، رأسها في السماء كالشجرة، عيناها سوداوان، بريقهما خاطف كالبرق، نظرتها ثاقبة كالسهم تفلق الكون نصفين، تنطلق إلى الحقل

كالشراع لا يوقفها شيء، وحيدة من غير حارس ولا زوج، وجهها ناحية الشمس رفيقها القمر في الليل، وأشجار النخيل على ضفاف النيل.

القلم في يدي يتحرك فوق الورق كأنما بقوة لا إرادية، أريد التوقف عن الكتابة دون جدوى، إنها الملاذ الوحيد أتمسك بها حتى النفَس الأخير، لولا الكتابة لاندثرت منذ نصف قرن وراح اسمي في العدم كما راح اسم جدتي وأمي.

منذ طفولتي كنت أندهش كيف تروح أسماء النِّساء في العدم، أتلفت حولي أبحث عن أحد مندهش غيري فلا أجد. أمامي فوق المكتب صورة في الصفحة الأولى من جميع الصُّحف، كلمتان تحت الصورة، صاحب الجلالة، الملك أو الرَّئيس، أتلفت حولي وأندهش، كأنما الماضي يُبعث حيًّا، ينهض من قبره الإله خادم فرعون، أو فرعون خادم الإله. وفي كل بلد أسافر إليه داخل الوطن العربي، أرى الصورة فوق الجدران، لا يكاد يخلو جدار من الصورة بالحجم الطبيعي، بالبدلة العسكريَّة أو بدلة الصلاة أو بدلة التشريفات، أو وشاح القضاء، أو الرُّوب الجامعي، أو بدلة العمال أو الفلاحين إلا فئة النِّساء، لا يمكن للرجل أن يرتدي ملابسهن وإن تحدث باسمهن في الانتخابات وحصل على أصواتهن.

في رحلاتي داخل الوطن العربي أتلفت حولي وأندهش، أبحث عن أحد مندهش غيري فلا أجد، وأسأل النَّاس فيضحكون، يحكي أحدهم فكاهة أو حكاية. كثيرة هي الحكايات عن الحكام العرب، يختلفون ويتفقون، يتخاصمون ويتصالحون، يتغير الحلفاء إلى أعداء، وينقلب الأعداء أصدقاء. يجتمعون في حلقات هرمية يسمونها القمة، بعضهم يسلك الممشى المركزي ويطوف حول المحراب وصولًا إلى البيت الأبيض في واشنطن، بعضهم يفضل الممشى الجانبي الأكثر ظلالًا المفضي إلى الحظيرة حيث تُحجز خراف الأضاحي، أما الخيول الجامحة فهي تُحبس وراء القضبان، تسرح الغزلان والحملان في أي مكان دون خوف، وفي مواسم الانتخابات تطوف بهم العربات البوكس، تجمعهم للإدلاء بأصواتهم وأصواتهن، تتراوح ما بين ٩٨,٩٪ و٩٩,٩٪ أو شيئًا من هذا القبيل.

أهبط الأدوار السِّتَّة والعشرين لأمشي على شاطئ النِّيل، ساعة ونصفًا أمشيها كلَّ صباح، عضلاتي قوية، بشرتي مشدودة إلا من خطوط خافتة تحت العينين، البريق الأسود داخل النني يطلُّ كأنما من بؤرة لم تكشف عن نفسها بعد، لم يبقَ أمامي إلا عامان وأبلغ السبعين من العمر، ياه سبعين سنة؟! الرقم يرنُّ في أذني مَهولًا؛ مع ذلك تبدو طفولتي قريبة، تزداد قربًا مع التقدم في العمر، كأنَّما كنت بالأمس في العاشرة، ذكريات الطفولة تعود أقوى مما كانت، وسنوات الشَّباب حين كنت في العشرين أو الثلاثين تبدو الأمس.

منذ أيام قليلة التقيت صدفة بصديقتي بطة «الدُّكتور كاميليا»، رأيت امرأة عجوزًا تملأ وجهها التجاعيد، تتكئ على ذراع زوجها، لم أتعرف عليها، توقفت عن السير حين رأتني وصاحت: نوال! مش معقول!

كانت بطَّة من أقرب الصديقات إليَّ، تخرجنا معًا من كلية الطب، رغم الاختلاف في كل شيء كنا نلتقي، تمر السَّنوات دون أن أراها وفجأة يدق جرس التِّليفون في بيتي وأسمع صوتها: إزيك يا نوال؟ أهلًا يا بطة.

كان هناك شيء يجمع بيني وبين صديقتي بطة، التعود القديم أو الإدمان؟! تملأ حياتي الجادة بشيء من الاستهتار، إلى جوارها أحس بالنقاء، يحتاج النقاء لشيء من الفساد ليرى نفسه.

كانت بطة تحب الفن والسينما والرقص، لم تكن تطيق الحديث في السِّياسة، لا تؤمن بهذه الكلمات الثلاث الكبيرة: الوطنية، الاشتراكية، الإخلاص الزَّوجي. تطلق ضحكتها المتقطعة كالشهقات، وتقول: إذا كان ربنا خلقنا درجات الخيانة الزَّوجية ليه أحيانًا نؤمن بالإخلاص، كان ربنا خلقنا درجات ليه نؤمن بالاشتراكية أو العدالة؟! وإذا لم تكن سامية توافق على ما تقوله بطة، تزمُّ شفتيها الرفيعتين وتصف بطة بالبرجوازية المنحلَّة، تشهق بطة بسخرية وتقول لسامية: أنت شيوعية غارقة لأذنيك في حب البرجوازية. ينسحب الدم من وجه صفية حين تسمع كلمة الشُّيوعيَّة، كأنما تسمع عن مرض أو وباء، كلمة البرجوازي أيضًا كانت تُغضبها، تهمس في أذني: بطة وسامية زي القط والفار لازم يتناقروا، يالا بينا يا نوال نلعب ماتش تنس!

كانت صفية أقرب الصديقات إليَّ، إن غابت عني الصديقات فهي لا تغيب، تزورني في بيتي من حين إلى حين، أراها من النافذة وهي تركن سيارتها الفيات الزرقاء، في شارع جانبي صغير متفرع من شارعنا في الجيزة، في مواجهة سور حديقة الحيوانات. منذ بدأ السادات عصر الانفتاح غرقت الشوارع تحت فيضان من السيارات المستوردة، أصبحنا نستورد كل شيء حتى الخبز وعصير البرتقال، ومن كاليفورنيا أخيرًا جاء الفول المدمس في العلب.

اختفت الشَّجرة أمام بيتي وارتفعت الجدران، حاجبة الشَّمس والهواء، لم أَعُد أرى الشَّارع الجانبي الصغير حيث تركن صفية سيارتها أمام محل البقالة، أتابعها بعيني وأنا واقفة في النافذة بالدور الخامس، يبدو الشَّارع العريض مسدودًا بالسيارات، التي تتلاصق بجوار الرَّصيف وفوق الرَّصيف، لا يبقى إلا ممر ضيق لا يسمح بمرور المشاة. أتابع صفية

وهي تشق لنفسها طريقًا بين السيارات، رأسها مُطرق إلى الأرض قليلًا. وفي كلية الطب كانت تتهيَّب الدخول إلى المدرج المليء بالطلبة، تختفي ورائي حين ندخل من الباب، تتعثر خطواتها قليلًا حين ترمقها العيون، تكاد تجري لتلحق بي وأنا أمشي بخطواتي الواسعة السَّريعة أواجه عيونهم أرد إليهم سهامهم، صفية تُطْرِق إلى الأرض، لا تريد النَّظر إلى هذه العيون المحملقة، تمد ذراعها وتمسك ذراعي، تتشبث بيدي كالطفلة تمسك يد أمها.

قالت صفيَّة: مبروك يا نوال روايتك الأخيرة، أنا أحسدك لا أعرف من أين تأتيك الشَّجاعة؟! ألا تخافين ألسنة النَّاس؟! إنها تنهش سمعتك يا نوال، ألا تسمعين ما يقولون؟! ليس عندي وقت يا صفية لسماع ما يقوله النَّاس، اسمعي هذه القصة القصيرة، انتهيت منها الآن فقط.

تراجعت صفية إلى الوراء فوق الكنبة في الصَّالة الصَّغيرة، فوق المنضدة زجاجة بيرة ستلا مثلجة، صحون صغيرة بها قطع جبنة بيضاء، خيار، طماطم، زيتون أخضر وأسود.

تنهدت قبل أن تمسك زجاجة البيرة، مسحت بمنديلها قطرات عرق فوق جبينها، لم يكن العرق يظهر فوق جبينها مهما جرت، كنا نلعب التنس ولم يكن العرق يظهر. شيء ما يحدث في حياة صفية، يظهر رغم إرادتها على شكل قطرات العرق، رعشة خفيفة لأصابعها البيضاء وهي تُمسك زجاجة البيرة، تصبها في الكوب بحذَر حتى لا تفور الرغوة، قطرات ماء تتكثف على جدار الكوب الزجاجي، تنتشي قليلًا، يعود البريق إلى عينيها الخضراوين الناعستين قليلًا. الشمس اختفت تقريبًا، لم أعد أرى الشَّمس من نافذتي، إلا شعاعًا طويلًا رفيعًا يتسرب عند الغروب مائلًا بين الجدران العالية. أبواق السَّيارات تزعق في الشَّارع، لا أكاد أسمع صوت صفية وهي تحكي عما حدث لها بالأمس. أُغلق النافذة بالزجاج والشيش، مع ذلك يصلنا صوت الأبواق تصرخ، أصوات الرِّجَال تزعق فوق مآذن الجوامع من خلال الميكروفونات، طرقعات جارتي بالقبقاب فوق بلاط غرفتها المجاورة، الرَّجل في الشَّقة الأخرى يؤدب زوجته بالصفعات والشتائم، رياح وعواصف رملية تهبُّ من الصحراء، صفافير سيارات البوليس والإسعاف والنجدة، ماسورة المجاري مكسورة في الشَّارع المجاور، طبيخ بايت يغلي تتصاعد رائحته من المنور، أصوات قطط تتنافس حول صفائح القُمامة، مقلوبة أو مفتوحة بدون غطاء، بائع الروبابيكيا ينادي، وبائع الصُّحف يزعق: أهرام! أخبار! السادات يزور إسرائيل، أهرام! أخبار! جمهورية!

أفرغتْ صفية كوب البيرة المثلج في جوفها، أسندت رأسها إلى الوراء فوق المسند، ثم ضحكت جاءه الله في المنام وقال له قُم وانهض وسافر إلى إسرائيل! شوفي الراجل المجنون

يا نوال! معقول ربنا يقوله في الحلم روح إسرائيل؟ هو فاكر نفسه سيدنا محمد وبيعمل رحلة الإسراء والمعراج؟ لكن العيب مش عليه، العيب على اللي حواليه، كلهم منافقين وكدابين زي الدُّكتور المحترم جوزي.

– المناخ العام الفاسد يا صفية يشجع النَّاس على الفساد.

– أيوه، لكن جوزي مصطفى طول عمره فاسد، عارفة البنت إياها اللي كان ماشي معاها؟

– البنت أنهيه يا صفية؟

– اللي حكيت لك عنها قبل كده.

كنت أنسى هذه الحكايات عن الخيانات الزَّوجية، ما أكثر هذه الحكايات التي سمعتها من الصَّديقات، ومن النِّساء اللائي يترددن على عيادتي أو بيتي، تشبعت ذاكرتي بهذه الحكايات فلم أعد أسمعها، وهي قصص متشابهة إلى حد كبير، الرَّجل الذي يخون زوجته في السر، تكتشف الزَّوجة الخيانة، الصدمة والغضب والرغبة في الانتقام، أكثر مما يخيفها غضب زوجها أو غضب الله، تخشى الطَّلاق أكثر مما تخشى نار الآخرة، أكثر ما تخشاه أن تتحول العشيقة السرية إلى زوجة ثانية، وكم من زوجٍ أقدم على الزَّواج من عشيقته كنوع من العقاب لزوجته التي كشفت السر، وقد منحه الله والقانون حق الزَّواج بأربع نساء.

أصبحت صفية تتردد على طبيب نفسي اسمه الدُّكتور عبد القادر، كان زميلًا لنا في كلية الطب، منذ الصدمة الأولى حينما عرفتْ لأول مرة أن زوجها يخونها ذهبت إلى الدُّكتور عبد القادر، كان يكتب لها بعض الأدوية المهدئة للأعصاب، يتابع حالتها منذ خمس سنوات، تشعر بشيء من الرَّاحة حين تتحدث معه، يكنُّ لها نوعًا من الإعجاب أو الحب منذ أيام الدراسة، أراد أن يقيم معها علاقة، ترددت صفية وامتنعت ربما بسبب الخوف، لكن الدُّكتور عبد القادر كان يرى أن صفية مريضة.

بالوفاء الزَّوجي، يقول لها: الوفاء مرض نفسي عند كل الزَّوجات مثل الوفاء عند الكلاب، يعطيه اسمًا علميًّا في الطب النفسي، ويحكي لها قصة الكلب الوفي.

حكت لي صفية القصة كما حكاها لها الدُّكتور عبد القادر: اشترى الشاب الأعمى كلبًا صغيرًا بخمسة وعشرين قرشًا ليقودَه في الطريق، ظل الكلب مع سيده خمس سنوات، شُفي الشاب وعاد إليه بصره، حاول أن يستغنيَ عن الكلب، رفض أن يفارق سيده، كان للكلب دور هام في حياة سيده الأعمى، أصبح الكلب هو عيناه يرى بهما بدلًا من عينيه المريضتين، أحب الكلب هذا الدور، أحب سيده وأخلص له كل الإخلاص، أصبح إحساسه

بحاجة سيده إليه هو الحب في نظر الكلب، وهو القانون الذي يحكم علاقة الكلاب بأسيادها ويجعلها وفية لهم، لكن السَّيِّد شُفي ولم يعد بحاجة إلى الكلب، كيف يتحمل الكلب هذا الموقف الجديد عليه؟ إنه يرفض التنازل عن الدور الذي يؤديه لسيده، دوره الوحيد في الحياة ولا دور غيره، أصبح وجود الكلب يعتمد على وجود سيده، لم يعد هناك كلب له ذات مستقلة عن ذات سيده، لم يعد هناك «أنا وأنت» أصبح «أنت» فقط، ذابت شخصية الكلب في شخصية سيده، كالزَّوجة التي تذوب شخصيتها في شخصية زوجها، إزاء هذا التفاني وهذه التضحية وافق السَّيِّد على رغبة الكلب ولم يطرده من بيته كما تُطرد المرأة المطلقة. ثم مات السَّيِّد، توقف الكلب عن الأكل، ارتدى الحداد ومات حزنًا على سيده كالأرمل التي تموت بموت زوجها، هذا الإخلاص والوفاء يسميه الدُّكتور عبد القادر «الوفاء الكلابي»، وثمن شراء الكلب خمسة وعشرون قرشًا، مثل الحد الأدنى للمهر في عقد الزَّواج.

كفَّت صفية عن الحديث، وامتلأت عيناها بالدموع وهي تردد لنفسها بصوت مشروخ: وفاء كلابي!

كان ذلك في نهاية عام ١٩٧٨، وكان شريف قد أمضى أربع سنوات بعيدًا في الهند، الرسائل بيننا متصلة، تنقطع أحيانًا لانشغاله في العمل، أو لانشغالي في عملي، مسئولية البيت والابنة والابن، وفي الليل أجلس إلى أوراقي أكتب روايتي الجديدة، ومقاومة حرب الإشاعات التي أطلقها أعوان السادات ضدي، وضد كل من عارض سياسة الانفتاح، أي فتح أسواق مصر للبضائع الأجنبية دون ضوابط، تدمير الإنتاج والصناعات المصرية، تكميم الأفواه واستيلاء موظفي الحكومة على الصُّحف والإعلام ودور النشر. بدأ نقاد الأدب المعينون في المؤسسات الصَّحفيَّة الهجوم على أعمالي الأدبية، بدأت الصُّحف الإسلامية الحكومية الجديدة تشوه صورتي ترسمني على شكل الشَّيْطان، الذي يحارب الإسلام ويتمرد على القيم والآداب العامة.

وجدت نفسي معزولة داخل البيت، هرب الأصدقاء والصديقات، انضم بعضهم إلى حزب الحكومة، البعض الآخر إلى حزب الإخوان المسلمين، وأحزاب المعارضة يسار ويمين، كان السَّادات قد أصدر قراره بإنشاء الأحزاب، واختيار أعضائها ورؤسائها، أصبحت هذه المعارضة الشَّرعية بديلًا للمعارضة الشَّعبيَّة الحقيقيَّة.

شعرت بالاختناق والغربة، أغرقت نفسي في العمل والكتابة، امتنعتْ دور النشر في مصر عن نشر أعمالي، أرسلتها إلى دور النشر في لبنان، اخترقت الحصار المفروض عليَّ، انتشرت كتبي في البلاد العربية، أصبحت الرسائل تصلني من المغرب والمشرق، القراء

والقارئات العربيات، أصبحت هذه الرسائل تشجعني على الاستمرار في الكتابة، اختفى اسمي من القائمة الرسمية للأديبات في مصر، تم طردي من لجنة القصة في المجلس الأعلى للفنون والآداب، أصبح نقاد الأدب يتبارَوْنَ في الهجوم على أعمالي وكتاباتي، ويقولون إنها لا تنتمي إلى الأدب، إنها مجرد بحوث طبية أو اجتماعية، إنها تسيء إلى المجتمع، تشوِّه صورة الوطن والدين، تدعو إلى الفوضى والإباحية، ترفض القيم الأصلية والتراث المجيد.

ظهر على سطح الحياة الأدبية نساء موظفات مواليات للنظام الحاكم، يضعن الحجاب على عقولهن، تملك كل منهن عمودًا في جريدة حكومية كبرى، أو صفحة كاملة تعرض فيها الأزياء والمكياج، تحولت الصحفيات فجأة إلى أديبات، يحملن لقب مبدعة أو كاتبة كبيرة؛ كالحلية تتدلى من الأذنين، وفصوص الماس تلتف حول العنق، والتيربون الأنيق يغطي الشعر إلا خصلة أمامية تتدلى فوق الجبين، والروج الأحمر القاني بلون الشفتين، والبشرة المشدودة بالعملية الجراحيَّة في نيويورك أو باريس أو لندن، والمساحيق تغطي ما قد يظهر من تجاعيد، والعبارات الإنشائيَّة الضخمة عن الخصوصية والهوية الإسلاميَّة.

لم يكن لي مكان داخل هذا الصَّخب، جاءتني فرصة للعمل خارج مصر بالأمم المتحدة، سافرت إلى أديس أبابا بالحبشة عام ١٩٧٨، وإلى بيروت بلبنان عام ١٩٧٩، قدمت استقالتي في نهاية ١٩٨٠ وعدت إلى مصر، أدركت أن الأمم المتحدة لا يختلف نظامها عن الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات، الداخل إليها مفقود والخارج مولود، النظام الطبقي الأبوي تُسيطر فيه القوة على الحق، تسيطر الأموال على الفكر والإبداع، يسيطر الرَّئيس على المرءوسين والمرءوسات، خاصة الصَّغيرات السِّن، الرَّقيقات النَّاعمات المعطرات، النَّاعسات العيون المسدلات الجفون، يخفق قلب الواحدة منهن للحب، في المؤتمر الدولي على جبال سويسرا في الصيف، أو في الشتاء تحت أشعة الشمس الاستوائية في سري لانكا أو الهند، وفي الربيع يُعقد المؤتمر الدولي لمناقشة مشاكل الفقر والجوع في العالم، أو مشاكل ختان الإناث وحوادث الاغتصاب، يتبارى خبراء الأمم المتحدة في إلقاء الخطب عن الجنس أو الاقتصاد، وفي الليل يتبارَوْنَ على الرقص مع الخبيرات الشابات، ينجذب الخبير الإفريقي الأسود إلى الشقراوات البيضاوات من الشمال.

كنت أقاطع هذه الحفلات، يكتب رئيس الإدارة تقريرًا ضدي، يقول لي إن حضور الحفلات جزء من العمل بالأمم المتحدة، والرقص مع الرَّئيس نوع من المجاملة الرقيقة، لا يخرج عن واجبات الموظفة الدولية. بدأ النزع يدب بيني وبين الرؤساء الأفارقة السود والرِّجَال البيض على حدٍّ سواء. حاول أحدهم أن يغازلني، كان يشبه الدُّب الأبيض، يصعد

الدَّم الأحمر إلى وجهه حين يراني، أستاذ بجامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يلتحق بالأمم المتحدة، أصبح يحمل لقب كبير الخبراء في اللجنة الاقتصادية الإفريقية، لم يكن يعرف شيئًا عن مشاكل إفريقيا الاقتصادية، يقبض راتبًا من الأمم المتحدة يصل إلى ثلاثين ضعف راتبه في جامعة بنسلفانيا، وراتبًا آخر من البنك الدولي تحت لقب مستشار. كان يناديني باسمي الأول، وأناديه باسمه الأول، المساواة التقليدية الشكلية داخل الأمم المتحدة للتغطية على عدم المساواة بين الأفراد والدول.

– جاية الحفلة الليلة يا نوال؟

– لأ يا رولاند.

– ليه يا نوال؟

– عندي شغل.

– شغل إيه؟!

– رواية جديدة يا رولاند.

– لازم تاخدي إجازة شوية.

لم يكن رولاند ذكيًّا، أغلب الرؤساء أغبياء، تُعمي السلطة عيونهم عن رؤية الحقيقة الواضحة كالشمس، عيناي مثل كتاب مفتوح يقرؤه الجميع من حولنا، إنني لا أطيق رؤية رولاند أثناءَ النَّهار فما بال الليل. وكان الليل ساحرًا على شواطئ إفريقيا الدافئة، في الشرق أو الغرب أو الجنوب، أجملها شاطئ بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل. التقيت هناك بأحد الثُّوار من شيلي في أمريكا الجنوبية، هرب من وطنه قبل أن يحكموا عليه بالإعدام، كان طبيبًا نفسيًّا ترك الطب والتحق بالأمم المتحدة كأحد خبراء التنمية الصحية، ثم استقال بعد أن أكمل الأربعة أعوام، الحد الأدنى للحصول على المعاش. عاد إلى شيلي ثم مات في فبراير ١٩٨٤، انطلقت في صدره رصاصة من مصدر مجهول، هرب القاتل دون أن يمسكه البوليس. أرسل إليَّ بطاقة صغيرة من شيلي قبل اغتياله بشهرين فقط، بالضبط في عيد رأس السنة الجديدة أول يناير ١٩٨٤، كتب على البطاقة هذه الكلمات:

> إلى مَنْ جَعلتْ شاطئ فيكتوريا أجمل من الوطن، وتركتْ فراغًا في حياتي لا يملأه أحد، انتهيتُ من الراوية التي بدأتها منذ خمس سنوات يوم لقائنا الأول عند منابع النيل، ربما نسيتِ هذا اللقاء يا صديقتي العزيزة، لكنه اليوم الذي رأيت في عينيك نفسي الحقيقية.
>
> روبرت

حين قرأ شريف البطاقة ابتسم وقال: يبدو أنه إنسان عاطفي. قلت: جدًّا. قال: هل أعجبكِ؟ قلت: جدًّا. ضحك شريف وقال: حكيتِ لي عن كل الذين غازلوكِ بمن فيهم الدُّب الأبيض ولم أسمع شيئًا عن هذا الروبرت؟ قلت: وأنتَ حكيتَ لي عن كل من وقعت في غرامك إلا تلك السوزانا الصغيرة من لوزان (وكانت صورتها قد وقعت في يدي بالصُّدفة وهي مرتدية مايوه بيكيني على شاطئ موزمبيق جوارها شريف يبتسم في سعادة، مرتديًا مايوهًا إفريقيًّا من سبعة ألوان، مثل ألوان الطيف).

في صباح يوم مشرق على شاطئ بحيرة فيكتوريا، دعاني روبرت على الغداء في مطعم صغير يُطلُّ على البحيرة، كنت أمشي كلَّ صباح على الشَّاطئ لمدة ساعة ونصف قبل أن أحضر جلسات المؤتمر الدولي، تعودت على رياضة المشي كلَّ صباح أو الجري سبعة كيلو مترات، أستقبل أول شعاعٍ للشَّمس من وراء البحيرة، أرفع ذراعي في الهواء، أُغمض عيني، أحس الشعاع الدافئ فوق جفوني، أفتح عيني على خضرة الشجر والأرض، وحصان أبيض يركبه فارس يرتدي بدلة بيضاء، لوَّح لي بيده من تحت زرقة السَّماء: صباح الخير يا نوال.

– صباح الخير يا روبرت.
– أين ستتناولين العشاءَ الليلة؟
– لا أعرف، هناك حفلة عشاء للمشاركين في المؤتمر.
– لا أحب حفلات العشاء.
– ولا أنا.
– إيه رأيك أدعوك إلى مطعم صغير يطل على البحيرة؟
– سأدفع ثمن عشائي يا روبرت.
– كما تشائين.

وأنا أرشف النَّبيذ الأحمر مع قضمات من الحمامة المشوية، كنت أراه جالسًا أمامي يرمقني بعينين زرقاوتين يكسوهما البريق، عيناه تلتقيان بعيني، أتظاهر أنني لا أرى ما فيهما، أقضم بأسناني عظام الحمامة الصغيرة، أسمعها تقرقش بصوت مسموع، أُثبت له أنني منشغلة عنه بالحمامة المشوية، وأنني لست هشَّة العظام مثل الحمامة، أو حسناوات الأمم المتحدة، السَّمراوات أو الشَّقراوات، وقلبي مليء بالحنين إلى منابع النيل.

– عيناكِ السَّوداوان ساحرتان وشَعرك الأبيض هذا في رَيْعان الشَّباب.
– أنتَ أيضًا شعرك أبيض في ريعان الشَّباب.

– أهيَ وِراثة؟
– ربما.
– أو دليل العبقرية؟!

الحوار يدور حتى نعود إلى الفندق، لم يكن شريف معي في هذا المؤتمر، قلت له حين سافرت إليه، كدت أقع في الحب يا شريف لولا ... قال: لولا ماذا يا نوال؟ قلت: لولا ذلك المرض النِّسائي. قال: أي مرض هذا؟ قلت: هذا المرض الَّذي يسميه الدُّكتور عبد القادر ... قال شريف: وما يُسميِّه؟ قلت: الوفاء الْكِلابي. وضحكنا ثم شَرِبنا نَخْب هذا الوباء المزمن.

الصَّوت يُوقظني من النَّوم، أمدُّ ذراعي وأُمسك يده، تنسحب يدي وحدَها وتختفي تحت الوسادة، عيناه زرقاوان بلون البحيرة في يوم مشرق. أعود إلى النَّوم، وأصحو على صوت جرس التِّليفون، إنَّها صفيَّة تكاد تصرخ: صحيح يا نوال ما يقوله الدُّكتور عبد القادر؟ أفتح جفوني، وأرى الساعة تشير إلى الثَّالثة صباحًا، أَصيح بضيق: يا صفيَّة أنتِ تعرفين الدُّكتور عبد القادر مُنذ أيام الكليَّة، ألم يكن يدسُّ لك في الكشكول رسالة حب كلَّ يوم؟ إنَّه يريد الانتقام منك؛ لأنَّكِ رفضتِ الزَّواج منه، يردُّ لكِ الصَّفعةَ يا صفيَّة. الدُّكتور عبد القادر يقول لي ما أقول لنفسي يا نوال، كيف أُخلص لزوجي وهو خائن؟! الوفاءُ مقابل الخيانة ليس وفاءً بل مرضًا! إنه التعلق المريض بالزَّواج وإن كان فاسدًا، إنه الخوف المريض من فقدان الحب وإن كان غير موجود، أو فقدان الدور المزيف الذي لعبْتُه في حياة زوجي خمسَ سنوات، كيف أفقد حاجته إليَّ؟! كان يقول لي لا أستطيع الحياة بدونك، أنا لم أحبَّه يا نوال، لكني أحببت اعتماده على وجودي، لكني تشبثت به، كنت أخاف الطَّلاق، أصبحت أعتمد عليه يا نوال، لا أستطيع أن أعيش بدونه، انقلبت الأوضاع، أصبحتُ مثل الكلب التَّابع لسيده، لا يستطيع أن يفارقَه، ويموت بموته. العبارة تنطقها صفية بصوت يقطر مرارة، تضغط على الحروف، تَلوكها، تَلْفِظها من بين شَفَتَيْها حرفًا حرفًا؛ كالعلقم الْمُرِّ ينساب قطرةً قطرة ... وفاء ... كلابي؟!

عام ١٩٩٨ دق جرس التليفون في شقتي الصَّغيرة الجديدة في حي شبرا القديم، تركت شقتي في الجيزة بعد العودة من المنفى العام الماضي. عشت فيها منذ عام ١٩٦٠، سبعةً وثلاثين عامًا عشتها في شقة الجيزة شارع مراد، بعد الطَّلاق الثَّاني استأجرْتُ هذه الشَّقَّة في الدور الخامس، إلى جوار الكنيسة الكبيرة، تطل على آخِر سور حديقة الحيوان، عشت

مع طفلتي الصَّغيرة ودادة أم إبراهيم، استأجرت لأخَواتي الشَّقة في الدور الثَّالث، دخلت ابنتي مدرسة الحضانة المجاورة في شارع النيل، ودخلتْ أخَواتي الجامعة التي لا تبعد عن البيت إلا مسافة عشر دقائق على الأقدام بالخطوة السريعة.

في ديسمبر ١٩٦٤ تزوجتُ شريف، ترك بيت أسرته في الزمالك وأصبح يشاركني شقتي الصغيرة، ثلاث غرف وصالة، غرفة مستقلة لابنتي تشمل سَرِيرها، دولاب ملابسها، مكتبها الصغير، مكتبها به رفوف حتى السقف تحمل كتبها، كراريسها، ألبومات الصور، عُلَب الألوان، شرائط الموسيقى، والأفلام. منذ العاشرة من عمرها أصبحتْ تكتب خواطرها في مفكرة تشبه مفكرتي وأنا في مثل عمرها. أصبح لها أخ اسمه عاطف، ولدْتُه في المستشفى الجامعي في مدينة نيويورك فجرَ يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦٥، كنت أدرس في جامعة كولومبيا للحصول على درجة الماجستير، عدت إلى مصر أحمل ابني وشهادة التفوق، عمره سبعة أشهر، بشرته سمراء بلون بشرتي، عيناه سوداوان يكسوهما بريق، فرحت ابنتي مُنى بأخيها، أصبح شريف أبًا لأول مرة في حياته، حمل عاطف بين ذراعيه وقال: طفل جميل يا نوال لأنه يشبهك، عيناه السوداوان وبريق الذكاء. ضحكت وقلت: ربما بريق ذكاء الأب ... ألستَ أكثر مني ذكاءً يا شريف؟! ضحكت ابنتنا الطفلة وقالت أظن أنه ورث ذكاء أخته أكثر من الأب أو الأم!

أصبح لعاطف غرفة خاصة به في الشقة الصغيرة، بها سَرِيره ودولاب ملابسه، مكتبه الصغير، مكتبة بها رفوف حتى السقف تحمل كتبه، كراريسه، ألبومات الصور، عُلب الألوان، شرائط الموسيقى والأفلام السينمائية، منذ طفولته عشق عاطف السينما والموسيقى، يعزف على الجيتار، يسجل أفكاره مثل ابنتنا منى في مفكرته الخاصة.

الغرفة الثالثة في الشقة اقتسمتها مع شريف، لكل منا سرير صغير، دولاب ملابس، مكتب صغير، مكتبة لها رفوف حتى السقف، منذ تزوجنا عشنا في هذه الغرفة، نكتب فيها وننام ونقرأ ونسمع الموسيقى ونشاهد الأفلام. كانت هذه الغرفة هي حياتنا، المساحة الصغيرة الدافئة التي تضمنا، لم تكُفَّ الحكومة عن مطاردتنا داخلَ هذه الشقة الصغيرة، حوَّطها رجال البوليس والحراسة والبودي جارد، تخلل نوافذَها الأصواتُ الزاعقة في الميكروفونات تهدر دمنا، وأجهزة الإعلام والصُّحف تنشر — والهواء في الليل — الإشاعات، قطعوا الأشجار في الشَّارع أمامَنا، حلَّت مكانَها العمارات العالية والجدران الأسمنت، حجبت عنا الشمس، تتسرب من شقوق الشيش أضواء النيون المتحركة من حول الديسكو كلاب، ومآذن الجوامع التي أصبحت تتوالد وتتكاثر على نحو سريع، لا يفوقها سرعة إلا

توالد وتكاثر محلات ماكدونالد الأمريكية، أغلقت المحلات المصرية أبوابها واختفت المنتجات المحلية من السوق.

حين عُدنا من المنفى عام ١٩٩٧ وجدنا شقة الجيزة مظلمة خانقة مثل زنزانة السِّجن، تعشعش فيها ذكريات سوداء، فقدنا فيها الزمن والطمأنينة، لم يكن لنا أن نعيش داخل هذه الشقة، انتقلنا إلى الشقة الجديدة في حي شبرا القديم، غرفتان فقط والصَّالة، وغرفة خاصة بشريف ينام فيها، الصَّالة للاستقبال ومنضدة صغيرة للطعام في المطبخ، وشرفة صغيرة تطل على النيل من الدور السادس والعشرين في حي شبرا القديم.

استقلَّت ابنتنا في حياتها الخاصة، أصبحت الدُّكتورة منى حلمي الكاتبة والأديبة المعروفة، لها مؤلفاتها وكتبها ومقالاتها في الصُّحف والمجلات، ابننا استقل بحياته الخاصة، أصبح المخرج السِّينمائي عاطف حتاتة، يهتم النُّقاد بأفلامه الرِّوائيَّة، يقولون إنها تفتح بابًا جديدًا في السينما المصرية حصلت أفلامه على جوائز مهمة داخل مصر وخارجها.

أصبحت أنا وشريف نعيش وحدَنا في شقة شبرا الصَّغيرة، نهبط الأدوار الستة والعشرين كلَّ صباح في الساعة السادسة، نمشي على شاطئ النيل مسافة سبعة كيلومترات، نعود لنشرب الشاي مع الجبنة القريش أو الزبادي بدون دسم، وعسل النحل والخبز البلدي المحمص.

أصبح لنا عدد قليل من الأصدقاء والصديقات، يتناقص عددهم بمرور السنين، يموت بعضهم أو يهاجرون، أو ينشغلون بمشاكل الأولاد والأحفاد، مرت السنوات دون أن أسمع صوت الصديقات القديمات بطة وصفية وسامية، أقرأ أخبارهن من حين إلى حين، أو يرن جرس التليفون بعد غياب السنين ويأتيني صوت إحداهن.

لم تنقطع زيارات الشَّباب والشَّابات إلى بيتنا منذ عودتنا من المنفى، أجيال جديدة من المبدعين والمبدعات في مجال الأدب والفن والسِّينما، بدأنا فكرة تكوين مدرسة فكرية جديدة تضم هؤلاء الشَّباب والشابات، أصبحت الفكرة تنمو، تتخذ شكلًا أكثر تحديدًا في ظل القوانين المتغيرة، خاصةً قانون الجمعيات الجديد الذي ما إن صدر في نهاية عام ١٩٩٩ حتى ألغته المحكمة الدستورية العليا في بداية العام ٢٠٠٠، وفي مصر يحكمنا قانون الطوارئ الذي يحرِّم الاجتماعات، ويسوق إلى السِّجن أي مجموعة لا ترضى عنها القوى الحاكمة المسيطرة.

ثم دق جرس التليفون في بيتي ذات يوم من أيام شهر يونيو الماضي، صوت رجل عبر الأسلاك يقول: بطة هانم معاكِ على الخط يا دكتورة.

كلمة هانم لم أسمعها من نصف قرن، في طفولتي كانت النِّساء في عائلة جدي شكري بيه يحملن لقب الهانم، أمي كان أبي يناديها أحيانًا زينب هانم، لم تكن النِّساء في عائلة أبي الفقيرة في قرية كفر طحلة يحملن لقب هانم، كلمة هانم توحي بالرقة والنعومة والانتماء إلى الطبقات العليا وسلالات الأتراك منذ المماليك والإمبراطورية العثمانية.

– بطة هانم يا دكتورة معاكِ على الخط.

دوى صوت طويل عبر الأسلاك صوتها المألوف، وقد أصابته بحة أو شرخة الشيخوخة.

– إزيك يا نوال.

– أهلًا يا بطة.

– بنتي شيرين كتب كتابها الخميس الجاي، وقالت لي لازم يا ماما تدعي الدُّكتورة نوال، بنتي معاها الدُّكتوراه من جامعة هارفارد في النَّقد الأدبي، قرأتْ كل كتبك، ورواياتك بالعربي والإنجليزي، ومعجبة بيكي أوي يا نوال، لازم تيجي عشان إنتي وحشتيني أوي، نفسي أشوفك بعد الغيبة الطويلة دي، ده احنا صحاب من زمان من أيام الكلية، ولا يمكن الصَّداقات القديمة تروح يا نوال، أنا عاملة الفرح في الفيلا الجديدة جنب أرض الجولف في مصر الجديدة، خدي العنوان يا نوال، والعريس إنسان ممتاز، كان زميل شيرين في هارفارد ومن أكبر رجال الأعمال.

نطقت الكلمتين من أنفها وقلبت الراء إلى غين كعادتها القديمة، قالت غجال الأعمال، رنَّت في أذني عجول. بعض الأشياء السَّاقطة منذ النِّظام الملَكي عادت، ومنها اللدغة الفرنسية في اللسان، والديوك الرومية المحشوة بالمكسرات في ليالي الكريسماس، والعجول المذبوحة في مولد النبي يوزعونها على الفقراء، والزَّبيبة السَّوداء عادت بارزة فوق جباه المؤمنين الصالحين، والطرحة السوداء أصبحت تلتف حول جبين المؤمنات الصَّالحات، وصديقتي بطة ذات الميكروجيب رأيتها ترتدي الطرحة من الحرير المستورد الثمين، تميل فوق جبينها ناحية أذنها اليمنى بانحدار شديد كما كان الطربوش يميل فوق رءوس الرِّجَال أيام الملك والإنجليز.

– أهلًا يا نوال، الدُّكتور نوال يا هوانم صاحبتي من أيام الدراسة كانت أشطر واحدة فينا، لكن يا خسارة سابت الطب وبقت تكتب روايات مش معقول إن بوسيبل!

– إن بوسيبل ليه يا بطة هانم ما شاء الله الدُّكتورة نوال اسمها مالي الدنيا، ده أنا كنت في سوسيغا «سويسرا» الصيف اللي فات، كان عندي كده شوية دبريشن «اكتئاب»، والدُّكتور بتاعي، الله يمسِّيه بالخير، قال اخرجي بره شمي شوية هوا، قلت أروح أزور

بنتي في جنيف، أصل بنتي متجوزة خبير في الأمم المتحدة، طبعًا أَسْلَم وبقه اسمه جابر بدل جورج، وعندهم بنت ما شاء الله زي القمر سموها فاطمة على اسم بنت النبي، يقولوها فاتيما، تتكلم إنجليزي وألماني وفرنساوي وما تعرفش كلمة عربي، علمتها تقول يا جدتي بالعربي، أصل كلمة جدتي حلوة أوي في وداني. وأنا باحكي الحكاية دي كلها ليه؟ أيوه افتكرت، لقيت بنتي ماسكة في إيدها كتاب بالألماني، وقالت لي ده كتاب الدُّكتورة نوال السعداوي بيدرسوه في الجامعة هناك، وهتعمل عليه الدراسة، وقالت والنبي يا مامي لما تروحي مصر ابعتي لي كل كتب الدُّكتورة نوال.

صوتها يذكرني بصوت طنط هانم منذ نصف قرن، إلا أنها أكثر ثراءً، تلمع المجوهرات حولَ عنقها، ترمق خواتمها المرصعة بفصوص الماس وتمصمص شفتيها: «الحاجات» دي كانت مرمية في الصندوق خمستاشر سنة كل سنة تنطح أختها، من أيام الحراسة السودة ربنا ما يعيدها لغاية ما شفت الهانم لابسة جواهرها، الستات كلهم حواليها لابسين، رحت فاتحة الصندوق وقلت يعني أنا مش واحدة من الهوانم، ده أبويا كان بيه وأمي كان أبوها باشا، ويعني الهانم كان أبوها مين؟!

دب الصَّمت في الصَّالون المطل على الحديقة الهادئة في مصر الجديدة، وتظاهرتْ بعض الهوانم بعدم السماع، انكبَّ بعضهن على الأطعمة الممدودة داخلَ الشرفة الزجاجية الطويلة، قربت إحداهن فمها من أذني وهمست: «أصل العريس يقرب للهانم من بعيد» ونهضت إلى الطابور المتدافع نحو المائدة بخطوات وئيدة، كل منهم يحمل صحنًا كبيرًا من الصيني المزركش. تعرفت على الدُّكتور حمدي بسهولة بين الواقفين، ساقاه المعوجتان داخل البنطلون المكوي، صدره النحيف المبطط تحت البدلة الأنيقة المحكمة حول جسمه، رأسه الكبيرة بشعره المجعد، لم يَعُدْ كَثًّا كما كان ولا أسود، ظهرت له صلعة حمراء وسط الرَّأس، من حولها كتلة بيضاء من الشعر المضغوط كأنما بالمكواة الحديدية. كان يتحدث مع أحد الرِّجَال حين لمحني جالسة، تقدم نحوي وقال بصوت تشوبه حرارة غير عادية: الدُّكتورة نوال السعداوي لازم تعرفها يا محمد بيه.

– اتفضلي يا دكتورة.

وأفسح لي الدُّكتور حمدي مكانًا في الطابور، وقفْتُ أمامَه أحمل صحنًا كبيرًا فارغًا، لم ألتقط من الطعام إلا قطعة طماطم مع الجبن وأعواد قليلة من الجرجير، رائحة الأطعمة الدسمة لم تعد تثير شهيتي، منذ سنوات قاطعت السمن والزبدة والدهون الحيوانية، أصبحت أفضِّل الْخَضْروات على اللحوم. في الصحن الضخم وسط المائدة يطل فخذ خروف

أو عجل يكاد يشبه أفخاذ بني آدم، تسقط عليه السكاكين بصوت مسموع، والأسنان أيضًا صوتها يكاد يُسمع، لولا صوت الدُّكتور حمدي المرتفع يتحدث مع صديقه غير بعيد عني.

– خلاص يا محمد بيه التلفزيون والفيديو والإنترنت طغوا على كل حاجة، الكتب خلاص سوقها راحت، ماحدش بقه يقرأ يا محمد بيه.

– أيوه صحيح يا معالي الباشا.

– لكن العريس بتاعنا راجل غاوي كتب، عنده دكتوراه في العلوم الإلكترونية، من جامعة هارفارد، وراجل مثقف جدًّا جدًّا رغم أنه قريب الهانم.

جاءت العبارة الأخيرة خافتة شبه هامسة، أعقبتها ضحكة مكتومة متقطعة، ثم صمت طويل ... عادت فيه أصوات السكاكين والملاعق والأسنان. وارتفع صوت الدُّكتور حمدي مرة أخرى: إيه يا دكتورة نوال إنت مش بتاكلي ليه عاملة رجيم ولا إيه؟! عشان كده محافظة على قوامك؟ ثم دارت عيناه تبحثان عن زوجته، رآها منهمكة في الأكل والحديث مع إحدى السَّيِّدات، قرَّب فمه من أذني وهمس «قولي لصاحبتك بطة هانم تعمل رجيم.»

كانت بطة منهمكة في الحديث مع المدعوين والمدعوات، ألمح بينهم وجوه الصديقات القديمات وزملاء قدامى من الأطباء والأدباء، وجوه جديدة لا أعرفها من رجال الأعمال «البزنيس» وكلاء الشركات الأجنبية، ونساء الأعمال صاحبات الشركات الجديدة في السوق الحرة، رجال البورصة وقيادات أحزاب المعارضة، وأعضاء مجلس الشَّعب والشورى والقيادات الصَّحفيَّة والإعلامية، رئيسات الجمعيات النسائية والمنظمات غير الحكومية، في العهد الملكي كان اسمها الجمعيات الخيرية، تنشغل فيها النسوة بتنظيم الحفلات أو جمع التبرعات تحت رعاية صاحبة الجلالة الملكة أو الأميرة، تغير اللقب في عهد السادات إلى السَّيِّدة الأولى على غرار النظام الأمريكي، وكانت التبرعات توضع في مكان أمين لا ينفق منه إلا الأمناء والأمينات، يوزَّع الباقي على الفقراء والعميان «عبيد إحساناتهم» بحسب القول المأثور عن الشَّعب المصري بلسان الخديوي.

فوق الجدار لمحتُ صورةً تشبه المِلكة تتطلع بطة هانم إليها بخشوع «والله يا نوال الست دي عظيمة وبتقوم بدور مهم وبتعمل حاجات كتير أوي للنَّاس الغلابة واليتامى»، وأكملت السَّيِّدة التي سافرت تشم الهواء في سويسرا: «يسلم بقك يا بطة هانم، وربنا قال في القرآن الكريم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وربنا ما شاء الله أنعم عليها خير كتير أوي.»

قبل أن تنتهي الحفلة أخذتني بطة من يدي إلى غرفة داخلية، «لازم تشوفي الشبْكة يا نوال، إيه رأيك مش تجنن! أنا عاملة حفلة تانية صغيرة «أنتيم» أوي، داعية صاحباتي القريبين أوي واعملي حسابك حنسهر للصبح!»

الصَّداقات القديمة لها ذكرياتها الخاصة، لكن الضحك لم يعد يخرج من القلب كما كان، أكبرنا سِنًّا هي سامية بلغت السبعين عامًا، وبعدَها بطة تصغرها بعامين، ثم صفية وأنا من عمر واحد، أعلاهن صوتًا هي سامية، يخرج من الأنف المرفوع فوق الشفتين الرفيعتين شبه المتلاشيتين، قامتها طويلة نحيفة تحوطها بشال ملوَّن، تبدو كالطيف الشاحب يتلفع بألوان زاهية، عنقها نحيف ينثني قليلًا تحت رأس كبير وشعر قصير «الأجارسون» مصبوغ بلون أسود داكن، كأنَّما هو رأس مسروق من تمثال رجال إفريقي، الجاكيت من الصُّوف الإنجليزي المتين مطرَّز فوق الصدر بشعار حزب اليسار، أو حزب الطبقة العاملة، وهذا الشكل مجرد ذكرى؛ لأن صديقتي سامية لم تعد من الطَّبقة العاملة، ولا هي عاملة بل مالكة لمزرعة كبيرة في دلتا النيل وشركة استيراد وتصدير، انطفأ في عينيها العنف القديم، وأخذت رعشة تهز شفتيها المزمومتين كأنما سؤال مكبوت يتأهب للإفلات من قبضة إرادتها الحديدية.

على الرَّغم من بلوغها السَّبعين فإنَّ ابنة الطَّبقة العاملة لا تشعر بالتَّقدير الكافي لطبقتها، تتهكم على الرِّجَال في حزبها خاصةً زوجها رفاعة، تمط شفتيها المطبقتين وتقول مناضل ماركسي! بهذه العبارة من كلمتين، كانت تقدم زوجها، وقد أسقطت الكلمة الثَّانية مع سقوط الاتحاد السوفييتي.

في عينها الصغيرتين شبه الخاليتين من الرموش تلمع دمعة شفافة حين تسمع كلمة ماركس أو الاتحاد السوفييتي، الأمر بالنِّسبة لها ليس هذا ولا ذلك، بل هو إيمانها الَّذي سقط، وكانت ترغب في الإيمان بشيء تراه ضخمًا فوق عرشه معصومًا من الخطأ، محصنًا ضد الموت أو السُّقوط، ترتعش جفونها كأنَّما دمعة مكبوتة تستعد للإفلات منها.

صوتها تشوبه رنة أنفية شبه بكائية، تميل إلى النحيب الصامت، حتى قبل السقوط السوفييتي أحيانها فأقول: «لكل جواد كَبْوة يا سامية»، هنا تتحمَّس لإنقاذ ماركس: «يا نوال ده جورباتشوف الملعون تآمر مع أميركا!» تضيق عينها حتى تطفر الدمعة الحبيسة وترتعش شفتاها كأنما تكبت الرغبة في الصراخ، إلا أن هذا الغضب ينقلب إلى حزن صامت شبه مستسلم حين تتحدث عن زوجها رفاعة. يدق جرس التليفون في بيتي

ويأتيني صوتها الباكي: «نوال عاوزة أشوفك.» تجتاحها هذه الرغبة المفاجئة لرؤيتي حين تريد أن تغتابَ زوجها: «تصوري يا نوال بعد أربعين سنة جواز أكتشف إني عمري ما حبيت الراجل ده!»

في غرفة داخلية لا يدخلها الرِّجَال تربعت السَّيِّدة التي سافرت إلى سويسرا أمامها السبرتاية تعلوها الكنكة، ورائحة البن المطحون بالحبهان، فناجين صغيرة من الصيني، ترشف الهوانم القهوة، ترتسم الشفاه الحمراء على حافَة الفناجين، لا يبقى في القاع إلا الثمالة، ترجُّها السَّيِّدة بحركة تذكرني بطنط نعمات وأنا طفلة في العاشرة، تقلب الفنجان ثم تعدله وتقرأ البخت أو الطالع. هؤلاء الهوانم أكثر دجلًا من الهوانم القديمات منذ نصف قرن، يكتبن ما يسمى الوثيقة، تشبه العهد القديم بين أرواح الجان والبشر، مكتوبة على مطواة قرن غزال أو حدوة حصان، تطلب من الجان إبقاء الزَّوج مع زوجته كي لا تخلعَه من قدمها مدى العمر، وحروف مكتوبة بدم الحيض على ظهر صورة الزَّوج تأمره بالعودة راكعًا فوق ركبتيه كالخروف يعود إلى الحظيرة.

تلتقي عيناي بعيني بطة، الدُّكتور كاميليا، متربعة فوق الشلتة بجسمها القصير السمين، ازدادت سمنة، عيناها الواسعتان أقل اتساعًا، النني الأسود أقل سوادًا، جفونها وارمة شاحبة رغم الكحل الأسود، تحت الجفون تجاعيد تختفي تحت البودرة والمكياج، ساقاها السمينتان القصيرتان مضمومتان تحتها، تُبَسْمِل وتُحَوْقِل فيما يشبه الشبَق، تكركر بضحكتها القديمة كأنما عادت التلميذة الصغيرة «فاكرة يا نوال أد إيه أنا كنت باحب حسين، وكنت مخطوبة لحمدي وباكرهه زي العمى، كنت واخدة حريتي وأنا متجوزة، ولا عمري حفظت آية في القرآن ولا ركعت لربنا ركعة واحدة، وطلع طارق ابني طويل وحلو مش زي أبوه المكعبر، أصلي وأنا حامل كنت باتوحم على حسين.»

وقاطعتها السَّيِّدة الهانم التي سافرت إلى سويسرا: أيوه يا بطة هانم الوحَم مفعوله باتع زي السحر تمامًا، وربنا زكره في القرآن وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قال ...

وانطلقت أصوات النِّساء تصلِّي وتسلِّم على النبي، وبطة هانم تواصل كلامها، توجه الحديث إليَّ. كنت جمهورها المستمع الوحيد والأخريات انشغلن عنها بأحاديث جانبية، كل منهن تحكي قصة حبها المكبوت، كلمة هنا أو هناك، وعبارة تكاد تتكرر وبصوت خافت «أصل جوزي عمري ما حبيته يا حبيبتي» ويرتفع صوت بطة هانم على الأصوات، وقطعة الشَّبَّة تطرقع في النَّار وتتخذ شكلًا آدميًّا مثل جمجمة محروقة تشير إليها الأصابع القصيرة ذات الظفر الأحمر الطويل المدبب يشبه مخلب القط.

شوفي يا نوال رأسها السودة زي وشها علشان تعرفي إن البت السِّكرتيرة كانت عاملاله عمل، وأنتِ عارفة حمدي طول عمره راجل دوغري لا يمكن يبص لواحدة، إلا البت المفعوصة دي ما عرفش عملت إليه شألبت كيانه، عمرها عشرين سنة وهو فوق السبعين، أصل الرِّجَالة عقلهم بيصغر كل ما يكبروا في السن، ورحت شفتها في مكتبه، بت سودة وجربانة جلدة على عضمة، وطردتها من المكتب، رحت عملاله عمل عند الشيخ المحلاوي، ده شيخ مشهور أوي يا نوال لازم سمعتي عنه، النَّاس تيجي له من كل البلاد، حتى من أميركا وأستراليا، ناس متعلمين ودكاترة.

وكنت لا يمكن أصدق في حكاية المشايخ وأنتِ عارفاني من زمان، لكن قالوا لي عليه، وكان حمدي عشان يعاندني فرش شقة في الزمالك للبت المفعوصة، وسمعت إنه عمل معاها عقد عرفي، أو رسمي ما اعرفش، بقيت ما نامش الليل يا نوال، وقلت يانا يا هي في الدنيا. ورحت للشيخ المحلاوي، قلت أجرب، مش حاخسر حاجة، أول ما دخلت عليه شفت النور، نور يا نوال والله، نور من عند ربنا، قمر منور قاعد على الكنبة، وقال لي تعالي اقعدي جنبي يا كاميليا يا بنت سعدية، عرف اسم أمي إزاي ما اعرفش، أمي ماتت من ثلاثين سنة وماحدش يعرف اسمها، لقيته عارف عني كل حاجة، عمل لي العمل، علقه في صدري، حجاب عليه كلام من القرآن وكلام تاني لا يمكن حد يقراه غيره، وقال بعد أسبوع واحد جوزك حيرجع ويقفل شقة الزمالك.

وفعلًا يا نوال بعد أسبوع واحد بالضبط، وكان يوم جمعة الصبح، لقيت حمدي راجع، من يومها مابقتش اقرأ غير القرآن، وربنا قال عن السحر يا نوال وعن أرواح الجان، وآلاف النَّاس بتروح للشيخ المحلاوي، رغم إن الفيزيتا بتاعته بقت عشرة آلاف دولار يعني ثلاثين ألف جنيه، لكن كل يوم عنده آلاف ولازم أحجز قبلها بشهر أو شهرين، باشوفه مرة واحدة في السنة، وحمدي يقولي إزاي تصرفي فلوسك على الشيخ المحلاوي، وأقول له أهي فلوسي من عرق جبيني أصرفها على حد واحد عارف ربنا أحسن ما أصرفها على الشَّيْطان، ويسكت حمدي، يخاف يفتح سيرة الشيطان، عشان مافكروش بالفلوس اللي صرفها في شقة الزمالك.

كانت المرة الأخيرة أرى فيها صديقتي القديمة بطة، صوتها كان يأتيني أحيانًا عبر الأسلاك، يرد عليها شريف نيابة عني: نوال خرجت يا بطة لما ترجع أقولها تطلبك. لم أكن أطلبها، عيناها لا أريد أن أراهما مرة أخرى، رأيت فيهما شيئًا مخيفًا يشبه الموت، كأنما ماتت

عيناها، تسري قشعريرة باردة في جسدي إذا تذكرتهما، وأسأل نفسي أهي الصدمة النفسية العنيفة في الزَّواج وشريك الحياة؟! أهو الانحدار الذي أصاب المجتمع في السنين الأخيرة؟! أهو اليأس المطلق إلى حد الإيمان المطلق بالشيخ الأعمى؟! وكان الشيخ المحلاوي أعمى مثل الشيخ حمدان في القرية، وكانت تقول عنه أم إبراهيم منذ أربعين عامًا: «ربنا كشف الحجاب عنه يا ضكطورة وماحدش يعرف ربنا إلا العميان.»

إنها بدايات يونيو ٢٠٠٠، يوم صيفي رَمادي غارقة تحت شبورة خانقة بلون الدخان، أعيش المنفى داخل الوطن كما عشته في الخارج، أشعر بالغربة وأنا أمشي في الشَّارع، تشبه غربتي حين كنت في مدرسة منوف الابتدائية ويرمقني الرِّجَال بعيون جاحظة، يقذفني أحد الصبية بطوبة! أو كلمة نابية يسب بها أمي، يصب اللعنات على أعضاء الأنثى، خاصةً العضو المبتور بالموسَى، الملعون في الغياب كالحضور.

هربت من القرية إلى المدينة، لكن الضجيج، في النهار والليل، ومكبرات الصوت مثبتة فوق الجوامع والبيوت حتى المقابر، أصبح من حق الموتى سماع الأذان للصَّلاة وتلاوة القرآن في المأتم أو الطُّبول والغناء في الأفراح، ولم يعد من حق الأحياء النَّوم، خاصةً في الأحياء الفقيرة مثل حي شبرا القديم، وفي الأحياء الرَّاقية في مصر الجديدة لا تسمع الطَّبقة العالية ورجال الأعمال ونساؤهم إلا زقزقة العصافير وحفيف الأشجار في الحدائق الخضراء.

شبح الموت يطاردني منذ زيارتي الأخيرة لبطة، أشعر بالإثم حين تطلبني فأنكر وجودي، أقلِّب أحيانًا في ألبوم الصور القديم، أراها إلى جواري يدها في يدي نضحك وسط حوض من الزهور، شعرنا الأسود يطيره الهواء، فمها مفتوح عن آخره كأنما أطلقت نكتة من نكاتها المأثورة، تبتسم صفيَّة في الصُّورة بهدوئها المعهود، لم تكن تطلق هذه الضحكة الرنانة التي تطلقها بطة، تكركر ضحكتها مثل الماء الراقراق يخرج من عنق بِلَّوْرية ضيقة، وسامية واقفة في طرَف الصورة، شفتاها الرفيعتان مزمومتان في مواجهة الشمس القوية، لم تكن تضحك أبدًا، وإن ابتسمت لا تنفرج شفتاها عن مساحة مرئية للعين.

أحيانًا يدفعني الحنين فأطلب صفيَّة، هي أقربهن إليَّ، إن لم أجدها أطلب سامية. ذلك اليوم طلبت بطة، بالأمس تركت لي رسالة تليفونية على آلة التَّسجيل: نوال كلميني، أنا في البيت. صوتها المبحوح تشوبه شرخة خفيفة جديدة وربما عندها زكام أو برد، في صيف أيام مترِبة حارَّة يهب هواء ساخن من الصحراء مع ذرات الرِّمال والدُّخَان وفيروسات

الأنفلونزا الصَّيفيَّة القادمة من وراء البحار، ترشح الأنوف مع ارتفاع خفيف في الحرارة ثم ينتهي الزُّكام بعد أيام قليلة.

قلت: ربما أصابها فيروس وهي في البيت لم تخرج، ربما هي تنتظر مكالمتي، وأدرت قرص التِّليفون برقمها، رعشة خفيفة كالقشعريرة زحفت عليَّ كالهواء البارد، كأنَّما النافذة انفتحت مع أنَّها مغلقة كأنَّما جسدي يدرك اللَّحظة القادمة قبل أن يدركها عقلي، وجاءني صوت رجل غريب، هل أخطأت الرقم؟! كنت أضع السَّماعة حين سمعته يقول: عاوزة مين حضرتك؟

– عاوزة بطة.

– مين حضرتك؟

– أنا نوال السعداوي.

– أهلًا يا دكتورة.

– مين حضرتك؟

– أنا الدُّكتور حمدي.

– ما عرفتش صوتك يا دكتور ... أقدر أكلم بطة؟!

– بطة؟ ... تعيشي إنتي.

توقف الهواء في صدري، الكلمتان «تعيشي إنتي» نسيت معناهما، غاب عن ذاكرتي لحظة، أصبح عقلي مثل صفحة بيضاء، ثم بدأت الذاكرة تعود بالتدريج. كنت طفلة في منوف حين سمعت الكلمتين لأول مرة في حياتي، كانت لنا جارة اسمها أم محمد، سألتْ عنها أمي ذاتَ يوم فقالوا لها تعيشي إنتي. وقالت أمي إن أم محمد ماتت.

أمسكت رأسي بيدي الاثنتين وأجهشت دون بكاء دون دموع، كأنما نسيت البكاء منذ الطفولة ولم تعرف عيناي الدموع. عاد شريف إلى البيت رآني راقدة في الفراش مربوطة الرَّأس، قلت له: بطة ماتت يا شريف. كأنما أقول أمي ماتت أو أختي أو أخي، وكان أخي طلعت قد مات منذ شهور قليلة، ربما لم يكن وجهي شاحبًا مثل هذا الشحوب؛ فلم يكن أخي صديقي في الطُّفولة، لم يكن بيننا حكايات عن الحب ولم نكن نضحك كثيرًا كما كنت أضحك حين تحكي بطة آخر النُّكت، وأفقت على صوت شريف: البقية في حياتك يا نوال.

ومن يمكن أن يواسيني في هذا اليوم إلا صديقتي صفية أو سامية؟! لم تكن سامية في مصر، كانت في مؤتمر خارج البلد، وبكت صفيةُ عبر الأسلاك حين سمعت الخبر، أغرقتها بالدموع، وسماعة التليفون في يدي أصبحت مبللة.

قلت لها تعالي شوية يا صفية، وجاءت صفية إلى بيتي، جلست إلى جواري وأنا راقدة في السَّرير، حكيت لها عن زيارتي الأخيرة لبطة، كانت تعرف كل شيء، ولا شيء يدهشها، هي أيضًا تعرضت لصدمة من نوع آخر، إلا أنها لم تذهب مثل بطة إلى الشَّيخ المحلاوي، كانت تذهب إلى الدُّكتور عبد القادر أستاذ الطِّب النَّفسي، وكان زميلًا لنا في الكلية منذ أربعين عامًا، أصبح يمتلك الخمسة «عين»، ومنها عمارة عالية في مصر الجديدة يسمونها عمارة «الدُّكتور» إلى جوارها عمارة لا تقل عنها ارتفاعًا يسمونها عمارة «الشَّيخ»، أصبح الدُّكتور والشَّيخ متجاورَيْن كما كانا في العصور السَّالفة، ومن الكهنة ورجال الدِّين القدامى انزلق الأطباء إلى التَّاريخ الحديث. كان الليل قد تأخر وصفية تحكي دون انقطاع، ست ساعات مضت وهي متكئة بكوعها على الوسادة دون أن تغير جلستها على السَّرير، دون أن تتغير نبرة صوتها الخافت، أو تتحرك عيناها الشاخصتان نحو قطعة من السماء وراء زجاج النافذة المغلق، كأنما تهمس لنفسها أو لامرأة أخرى كامنة في أعماقها، أو تخاطب القوة المجهولة داخل هذا الخِضَمِّ الأسود الذي اسمه السَّماء، والَّذي بدأ سواده ينقشع بالتَّدريج ليُصبح رَماديًّا بلون الضَّباب، وانتبهت صفيَّة فجأة كمن تصحو من النَّوم وصاحت: يا خبر، النَّهار طلع يا نوال!

– باين عليك تعبانة تحبي أوصلك البيت؟!

– بيت إيه وزفت إيه خليه ينهد على أصحابه!

– نامي شوية يا صفية وبعدين نتكلم.

أغمضت عينيها، راحت في النَّوم وكوعها كما كان في مكانه لم يتغير، حرَّكتها قليلًا لتنزلق الوسادة تحت رأسها، غطيتها بالبطاطين، وأطفأت اللمبة الصغيرة إلى جواري، لتغرق الغرفة في الظلمة إلا خيطًا رفيعًا من الضوء الرَّمادي يتسرب من وراء الزجاج.

وأغمضت عيني أنشد النَّوم دون جدوى، صوت صفية الهامس يسري كأنَّما لم ينقطع، أراها إلى جواري نائمة مغمضة العينين. ليلة كاملة مضت ونحن نتحدث، تذكِّرني بليالي الدَّاخليَّة في حلوان الثَّانويَّة. كنا نقضي الليل كله في حديث متصل، تفتح القلب الذهبي يتدلى من السِّلسلة حول عنقها، تلثم الصورة وخصلة شعر من رأسه، اسمه مرقص أبوه قبطي وأبوها مسلم، هددها بالسِّكين لتقطع علاقتها بمرقص. أصابته ذبحة صدرية حين دخل أخوها سعد السِّجن بتهمة الشُّيوعيَّة، أمسكه البوليس وهو يهتف في مظاهرة ضد الإنجليز، وكانت ضابطة الدَّاخليَّة تمر علينا بكشافها، تفتش على نومنا وأحلامنا، لم نكن نحلم إلا بالحب والحرية، وفي ضوء القمر تشتعل فوق صدورنا الحروف «الجلاء بالدماء»،

والنَّاظرة تضربنا بالمسطرة فوق أصابعنا حتى تنزف منها الدِّماء، نلف حولها أربطة من الصُّوف، ندفنها تحت البطاطين ونتهامس طوال الليل، نتشاطر الألم والفرح والأمل في المستقبل.

الليل ساكن لا أسمع إلا صوت أنفاسي، وأنفاسًا خافتة إلى جواري، صفية غارقة في النَّوم، عضلات وجهها مسترخية كأنما نفضت عنها العبء، بشرتها بيضاء إلا خطًّا واحدًا داكنًا عميقًا في اللحم يمتد من زاوية عينها اليسرى حتى زاوية الفم، لم ألحظ هذا الخط من قبل، أدرك فجأة أنها لم تعد شابة، لم يبقَ أمامَها إلا شهور قليلة وتبلغ السبعين من العمر، إلا أن أنفها وذقنها وشفتيها وكل ما في وجهها يبدو طفوليًّا، كما كانت في المدرسة الثَّانويَّة، ولا شيء يخرجها من الطُّفولة إلا هذا الخط الوحيد الذي بدا أنه ظهر فجأة على وجهها كأنما طعنة مباغتة أصابت نصف وجهها الأيسر، أو صفعة حادة غيرت موضع الفك فتحرك نحو الأنف، أكاد أرى الأصابع مرسومة فوق الخد الأيسر، تشبه أصابع زوجها الدُّكتور مصطفى، كانت له كف كبيرة ضخمة تشبه قدم الفيل.

وعلى مهل ومن دون أن أوقظها طبعت على خدها قبلة خفيفة كأنَّما بهذه الملامسة السَّريعة أمسح نصف قرن من الألم الغائر في اللحم.

منذ كتابه عن أبي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ والاشتراكية في الإسلام لم يكتب مصطفى الزهيري إلا مقالات قصيرة تنشرها صحف الحكومة في مصر وصحف حكوميَّة أخرى في عدد من البلاد العربيَّة، تصله المكافآت بالدينار أو بالدُّولار على شكل شيكات، تكون فوق مكتبه قبل النَّشر، إلا أن كلمة الاشتراكيَّة سقطت تمامًا من مقالاته منذ السبعينات، وسقط أبو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ في الثَّمانينيات، ولم يبقَ في التِّسعينيات إلا الإسلام ووجه الله الكريم. أعلن الدُّكتور مصطفى الزهيري في أحد المقالات أنه رأى الله، ومنذ ذلك المقال ظهرت الزبيبة السوداء فوق جبهته العريضة، والسبحة الصَّفراء بين أصابعه لها فصوص تلمع في الظلمة، وأصبح أستاذًا له لحية طويلة بكرسيٍّ في أرضي الحجاز بجوار الحرمين الشريفين، وفي مصر أصبح يملك الخمسة «عين»، وعيونًا أخرى تتجاوز أحلام طلبة الطب والكليات الأخرى، ومنها شارع وجامع في مصر الجديدة أصبح يحمل اسم الزهري، ومكتبة كبيرة وقاعة سينما واسعة لعرض الأفلام الدينية في رمضان وموائد الرحمن لليتامى والمساكين.

حين تزوج صفية منذ أربعين عامًا على الوفاء والصدق حكى لها عن حبه الأول لابنة العمدة، حين تزوجت ابن خالتها التاجر بالموسكي، صام عن الطعام ثلاثة أيام، في اليوم

الرَّابع قرصه الجوع، كان يوم الجمعة وأمه تخبز أمام الفرن تساعدها واحدة من البنات اليتيمات، تكسب قوت يومها بمساعدة النِّساء في الخبيز. حملت أمه الخبز الساخن مع الجبن والمخلل وخرجت إلى زوجها في الحقل، كان يومًا شتويًّا باردًا، وقبع الدُّكتور الزهري — وكان عمره عشرين عامًا — على ظهر الفرن يلتهم الرغيف والبنت اليتيمة الصغيرة كانت تقاومه بذراعيها وساقيها، تستحلفه بالله والرَّسول أن يتركَها، ولم يتركها وقد تخيلها حبيبته الأولى ابنة العمدة، إلا أنَّها بلا أم ولا أب، ولن يصيبَه أذًى إذا انكشف الأمر، وفعلًا ظل الأمر طَيَّ الكتمان، ولم يعرف شيئًا عن البنت منذ حادث الفرن. غادر القرية إلى القاهرة، استأجر غرفة في شارع الملك. كانت له مع البنات والنِّساء مغامرات، حكى لصفية عنها بزهو كثير، كأن الفساد الأخلاقي هو الرجولة، وسألها عن حياتها السابقة، كانت صفية عذراء لم يمسسها بشر، إلا أن قلبها مليء بالإثم. في المدرسة كانت تعلِّق في عنقها صورة مرقص، لم تعرف في حياتها إلا هذا الحب العذري، لم يقبِّلها أحد على شفتيها أو خدها، حرقت الصُّورة ومعها الذِّكرى قبل الزَّواج، وفي ليلة الزِّفاف أرادت أن تقول الصِّدق، حكت لزوجها قصة حبها الوحيدة، نسي كل شيء في الكون إلا هذه القصة، وإن شردت عيناها لحظة نحو السماء بعد أربعين عامًا يسألها: بتفكري في الدُّكتور مرقص؟!

– كان عنده شك فيكِ يا صفية رغم السنين دي كلها؟!

– أبدًا، كان عنده شك في نفسه طول الوقت، رغم جسمه الطَّويل العريض وغزواته مع البنات والستات كان عنده شك في رجولته، ودايمًا يبلع فيتامينات ويشتري برطمانات زيت كبد الحوت وملكات النَّحل، وكل ما يسمع عن أقراص جديدة للتنشيط الجنسي يشتريها، حتى حبوب الفياجرا، لكن المشكلة مش الجنس، المشكلة الشرخ في الشَّخصيَّة من الطفولة، الفساد اللي ينخر في العضم، أبوه كان كده وجده، ويظهر إن معظم الرِّجَال بالشكل ده إلا القليل جدًّا، ويمكن كلامك صحيح يا نوال عن النظام الطبقي الأبوي، كنت دايمًا أعارضك وأقولك طبقي إيه وأبوي إيه، لكن أخيرًا فهمت بعد أربعين سنة جواز وكنت مش عارفة حاجة، ومشغولة بالعيال والشغل في المستشفى، وهو كان المدير لا شغل ولا مشغلة، ييجي آخر الليل ويقول كان في اجتماع مع الوزير، وبعد ما انحال على المعاش بقت الحجة السَّفر في المؤتمرات، والحقيقة إنه كان متجوز واحدة تانية، وعايش معاها أكثر من عشرين سنة وأنا مش داريانة، ولما عرفت قالي ده حقي حسب القانون والشرع، وإن كان مش عاجبك نعمل طلاق، قلت له نعمل طلاق، راح رافع إيده وضربني، حسيت إن عيني الشمال طارت، ولعن أبويا وأمي وقال: كان لازم أطلقك من أربعين سنة من أيام سي مرقص أفندي بتاعك!

بعد ساعة نهضت صفية وعادت إلى بيتها، لم يطلقها زوجها ولا هي طلبت الطَّلاق، جاءني صوتها مستسلمًا عبر أسلاك التليفون: طلاق بعد أربعين سنة يا نوال وأروح فين؟ ... أبويا مات وأمي ماتت والعيال اتجوزوا وما عنديش بيت إلا بيتي، يروح هو مطرح ما يروح وأنا في بيتي لغاية ما أموت، وعندي معاشي ومش عاوزة حاجة من حد، ولكن أي بنت تسألني: «أقول لخطيبي بصدق عن حياتي قبل الخطوبة؟» أقول لها: «تبقي حمارة لو قلتي والدنيا دي ما ينفعش فيها إلا الكذب!»

الشُّرفة في الدور السَّادس والعِشْرين

يوم من أيام يوليو الحارَّة عام ٢٠٠٠، أجلس في الشُّرْفَة المطلَّة على النِّيل في الدور السَّادس والعشرين، مُنذ عودتي من المنفى وَأنَا أعيش في هذه الشَّقَّة الصَّغيرة في حي شبرا القديم، أعيش المنفى داخل الوطن كما عشته في الخارج. لم يعد هناك داخل وخارج، أو شرق وغرب، أو شمال وجنوب، أو العالم الإسلامي والعالم المسيحي. نحن نعيش في عالم واحد يحكمه نظام طبقي أبوي منذ نشوء العبودية، تغيرت أشكال العبودية تحت أسماء جديدة؛ منها العولمة وحرية السوق، والخصخصة والخصوصية، يتربع على قمة النظام العالمي الجديد أقل من خمسمائة شخص يملكون أكثر من نصف ثروة العالم، ويعيش مليار ونصف من البشر تحت خط الفقر، أغلبهم نساء وشباب وأطفال، يعيشون داخل هذه البيوت على شكل العشش، أراها من حولي، تمتد من شبرا إلى إمبابة وبولاق وروض الفرج، ومن نزلة السمان عند سفح الأهرامات إلى القلعة والسَّيِّدة زينب وسفح المقطم، تتساند البيوت القديمة الآيلة للسقوط إلى جوار المباني الجديدة الفاخرة، يتربع على العرش في بلادنا قلة قليلة تملك الثروة والسلطة والسلاح، والاتصالات بالخارج، من حولها نخبة مثقفة تعيش في كنَفها، تُحوِّل جرائمها إلى بطولات. تحت اسم الدِّيموقراطيَّة يتم ذبح الدِّيموقراطيَّة، تحت اسم حقوق الإنسان يتم ذبح حقوق الإنسان، تحت اسم حقوق المرأة يتم ذبح حقوق النِّساء. من يختلف في الرأي عن الفرد الحاكم أو الأفراد الحاكمين يجد نفسه في السِّجن دون محاكمة، أو محاكمة شكلية تختفي فيها العدالة، يفقد الإنسان سمعته الأدبية أو الوطنية، يتحول من مُدافع عن حقوق الفقراء والنِّساء إلى خائن للوطن، يتم اختزال الوطن إلى أفراد قلائل أو فرد واحد يجلس على العرش، مثل فرعون القديم الحاكم والإله في آنٍ واحد.

حين يبلغ الحزن مداه تعجِز العين عن الدمع، تكف الحواس الخمس عن الإحساس، لا يبقى إلا الحاسة السادسة، المجهولة الغائرة في أعماق الجسد والعقل والتَّاريخ، القادرة وحدَها دون الحواسِّ الأخرى على إدراك أن الأرض تدور رغم السكون، أن الزمان يلتحم بالمكان، لا شيء يفصل الروح عن الجسد أو الإله عن الشَّيْطان أو المرأة عن الرَّجل.

منذ أيام قليلة أصابني غثَيان شديد وقيء، رقدت في الفراش لا أستطيع الحركة، تصورت أنَّها النِّهاية، طلبت حضور ابنتي وابني لأراهما قبل مغادرة الدنيا، الاثنان الغاليان هما قطعة من جسدي وعقلي، ثالثهما شريف رفيق العمر منذ خمسة وثلاثين عامًا، الأسرة الصغيرة الدافئة العواطف، تختلف عن أغلب الأسر الخاضعة لسيطرة رجل واحد، أسرتنا لا يسيطر فيها أحد، لا رجل ولا امرأة ولا ابن ولا ابنة، كلنا سواسية، يدور بيننا الجدل حتى نصل إلى القرار الأصوب.

قالت ابنتي: ماذا أكلتِ بالأمس يا أمي؟

قلت: لم آكل إلا بطيخًا مع جبنة بيضاء قريش.

قال شريف: هناك حالات تسمم بسبب البطيخ أو الخيار أو الخوخ، يرشونها بالمبيدات الحشرية، أو يحقنونها بالهرمونات، يستوردون أغذية من الخارج غير صالحة للبشر، يرسلونها إلى بلادنا الإفريقية بمثل ما يرسلون النُّفايات النووية لتُدفن في صحرائنا الشرقية أو الغربية، أصيب بعض الفلاحين في قرية ميت حلفا بمحافظة القليوبية بإشعاع نووي وماتت أسرة بكاملها، ويعيش سكان القرية تحت رعب الإشعاع، وهناك تكتم شديد على هذه الأخبار الأخيرة، لا نعرف بالضبط ماذا حدث ... لكن بعض الحقائق تتسرب إلى الصُّحف.

اشتدَّ الغثيان والدوار، قلت لشريف ولابنتي وابني: لا أريد أن أُدفن في مقبرة تحت الأرض ليأكل جسدي الدود، أريد أن أتبرع بجسدي إلى مشرحة عادلة، تشرِّح جسدي وتعرف الأسباب الحقيقة لهذا التسمم الغذائي، وأرجو محاكمة المسئولين الكبار عن مشروعات التنمية والإصلاح الاقتصادي، التي أدت إلى مزيد من الفقر والجهل والمرض.

سمعت صوتي يصرخ وأنا في الفراش، لازم النَّاس دي تتحاكم محاكمة علنية عشان النَّاس تعرف. رأيت حولي ثلاثة من الأطباء، شخَّصوا الحالة تسممًا غذائيًّا، أخذت العلاج ثم تماثلت للشفاء بعد أن فقدت شهيتي لجميع أنواع الفاكهة في مصر.

أجلس في الشرفة العالية، أُطل على أسطح البيوت القديمة الآيلة للسقوط، جسمي لا يزال ضعيفًا بعد النقاهة من المرض، أشعر بالدوار كلما حرَّكت رأسي، كأنما سأفقد

الوعي. فكرة الموت تلوح قريبة مني، أتذكر أمي حين ماتت ويدها في يدي، أكاد أحس يدها تمسك يدي، رغم مرور أكثر من أربعين عامًا على موتها، وجه أبي يلوح أمامي كأنما مات بالأمس، كنت في أول الشَّباب أتفتح كالزهرة المغلقة الأوراق، لا أعرف شيئًا عن جرائم الإله المتنكر في زي فرعون، لا أحد يحاسب الإله، يعيش ويموت ملفوفًا بالعلم المقدس، ويُساق إلى المقصلة كبش فداء من عامة الشَّعب، يطلقون عليه اسم الشَّيْطان. رجل فقير نطق الحقيقة دون أن يدري، أو فتاة صغيرة غريرة حملت سفاحًا ولم تعرف من الذي اغتصبها في ظلمة الليل، ربما هو الإله ذاته المتنكر في ثوب رب العائلة الكبيرة أو الصغيرة، تسقط عنه الجريمة بحكم القوة أو القدسية، تُساق الفتاة إلى الموت أو إلى الزَّواج ممن اغتصبها؛ حماية لشرف العائلة.

تغيرت الأشياء عبر أربعين عامًا، تضامنت النِّساء المقهورات تحت اسم الشرف مع الرِّجَال المقهورين تحت اسم الفقر. بدأ الترابط بين القهر الجنسي والقهر الاقتصادي، أخطر ما يهدد النظام الحاكم هو هذا الترابط، بين الجنس والاقتصاد. منذ نشوء العبودية حتى اليوم، كيف يغتصب الإله الفتاة العذراء في الظلمة وكيف يسرق قوت الفقراء من الشَّعب، كيف ينجو من العقاب تحت اسم السيادة أو القدسية، ربما يحاكَم بعد الموت، ربما ينقلب عليه بعد الموت أحد أعوانه ويكشف جرائمه تحت اسم «عودة الوعي».

قبل أربعين عامًا كنت في ربيع الشَّباب، اليوم أنا في مكان آخر وزمان آخر، أشعر بشيء من الوهن بعد النقاهة من التسمم الغذائي، أشعر بشيء من التفاؤل كلما زاد الترابط بين المقتولين تحت اسم التنمية والإصلاح الاقتصادي. رغم المحاولات لضرب التَّضامن بين هؤلاء وهؤلاء فإن المقهورات والمقهورين لا يكفُّون عن التمرد والثورة والاستمرار في الكفاح ضد النظام الحاكم وأعوانهم من النُّخبة المثقفة.

يحدث هذا في مصر وفي بلاد العالم الأخرى، تتكرر المظاهرات الشَّعبية في عواصم الغرب والشرق، والشمال والجنوب، ضد الآلهة في واشنطن ولندن وباريس ودمشق والرياض والقاهرة والخرطوم وبغداد وتونس والرباط وموسكو وطوكيو وبكين وغيرها وغيرها، يتجمع الآلهة في اجتماعات القمة هنا وهناك تحت اسم العولمة والدِّيموقراطيَّة وحقوق الإنسان وحقوق النِّساء، ويتجمع الشياطين المقهورون والمقهورات في مظاهرات في الشوارع تحت اسم العولمة من أسفل، يضربون الآلهة بالحجارة والطوب والزلط، يرد الآلهة بالقنابل النووية والمسيلة للدموع.

قرأنا عن المظاهرات في سياتل في خريف ١٩٩٩، ومظاهرات أخرى تتكرر، آخرها المظاهرات في جنوب فرنسا في أول يوليو ٢٠٠٠، تجمَّع الرِّجَال والنِّساء والشَّباب والأطفال وضربوا معاقل الآلهة، منهم «ماكدونالد» الإله القوي الذي يلد نفسه في جميع بلاد العالم، و«سينسبري» الإله الجديد المنافس للآلهة القدامى، وفي شارعنا الذي يسمونه شارع معهد ناصر فتح «سينسبري» محلًّا ضخمًا، أطلق عليه اسم «سينسبري أغاخان»، ليست منطقة أغاخان الثرية المجاورة لنا، ولكن منطقة حي شبرا القديم الفقير. جاء هذا السوبر ماركت البريطاني الجديد ليضرب محلات البقالة الصغيرة والمنتجات المحلية المصرية، وليملأ شارعنا بالصناديق الفارغة والقمامة والذباب دون أن تحاسبه وزارة البيئة المصرية، رغم أنها تحاسب المحلات المصرية الفقيرة حسابًا عسيرًا، وقد تأمر بإغلاقها إن لم تتخلص من قُمامتها أو ما يسمونها النُّفايات. حاولنا أنا وشريف مع سكان الحي الفقير أن نعترض على النفايات المتراكمة في شارعنا، التي يلقي بها السوبر ماركت اللامع البلاط «سينسبري» إلى عرض الشَّارع الذي نعيش فيه، ذهبت محاولاتنا حتى اليوم عرض الرياح، لم يتحرك مسئول واحد في الحكومة المصرية لحماية حي شبرا الفقير من نُفايات الإله البريطاني الجديد.

يدور الصِّراع غير المتكافئ بين الآلهة الكبار القليلين المالكين للإعلام والسلاح والمال، وبين الملايين من الشعوب الفقيرة المعدَمة من النِّساء والرِّجَال، يلعب الإعلام دورًا أمضَى من السلاح العسكري. بالأمس قرأت في بعض الصُّحف المصرية تشويهًا للمظاهرات الشَّعبية الأخيرة في جنوب فرنسا، كتب أحد رؤساء تحرير صحيفة حكومية يقول في ١ يوليو ٢٠٠٠ التالي: شهدت فرنسا مظاهرات شعبية مؤيدة للشذوذ الجنسي ضمن الْهُتافات ضد العولمة، تحولت هذه المظاهرات إلى ما يشبه الظاهرة العالمية لتشجيع الشذوذ الجنسي تحت اسم محاربة العولمة والشَّرعية الدولية، وقد قطع الرِّجَال والنِّساء في الغرب شوطًا كبيرًا في قبول الشذوذ الجنسي كأنما هو شيء طبيعي، مع أنه انحراف أخلاقي خطير، وقد شارك في هذه المظاهرات مِئات الألوف من الشَّعب الفرنسي تتقدم صفوفَهم الأحزابُ السِّياسيَّة المختلفة ومنظمات حقوق الإنسان؛ فهل يمكن لنا أن نؤيد مثل هذه المظاهرات المنتشرة في الغرب اليوم؟! نحن بلاد شرقية لنا خصوصية دينية وقيم نابعة من تراثنا وثقافتنا وهويتنا الأصليَّة، ولا نقبل أن ننساق وراء هذه الإباحيَّة والشُّذوذ الجنسي الخطير!

هكذا تم الربط بين المظاهرات الشَّعبية ضد العولمة وضد كافة أشكال القهر الاقتصادية والجنسية إلى مجرد مظاهرات ضد القيم والأخلاق والخصوصية والهوية.

جسدي ينتفض بالغضب وأنا أقرأ الصُّحف، أكتشف الزيف بحكم خبرتي ومشاركتي في بعض هذه المظاهرات الشَّعبية العالمية، التي كسرت الحواجز بين النَّاس، حواجز الدين أو الجنس أو الجنسية أو العِرْق أو اللون أو المهنة أو غيرها. كنت أجد نفسي بين آلاف البشر بصرف النظر عن اختلافاتنا نهتف معًا ضد هؤلاء القلة من الآلهة الذين يتربعون على العروش في جميع البلاد، وأسمع صوت شريف يقول: هذا الغضب يا نوال مُضِرٌّ بصحتك، وأنتِ لا زلتِ في دور النقاهة بعد هذا التسمم الغذائي، علينا أن نحافظَ على صحتنا. وأقول له: معك حق يا شريف، لكن كيف لا أغضب وأنا أقرأ هذا التزييف اليومي تحت اسم الهوية والخصوصية واحترام الاختلافات الثقافية، يشجعون الخصخصة وضرب الاقتصاد المحلي، وتحت اسم العولمة من أعلى يضربون العولمة من أسفل.

كان معنا تلك الليلة صديق قديم لشريف، اسمه عادل أمين، وهو محام معروف، تولى الدفاع عني حين دخلت السِّجن عام ١٩٨١، جاء في زيارة لنا تلك الليلة يحمل زجاجة نبيذ وكتابًا جديدًا سجل فيه وقائع محاكمة الشيوعيين عام ١٩٥٣، ضحك عادل أمين وهو يجلس معنا في الشرفة العالية، يرشف من كأسه على مهل، وقال: لا بد لنا من نبيذ عمر الخيام يا دكتور شريف حتى نتذكر هذه المحاكمات منذ سبعة وأربعين عامًا، وفي هذا الجزء من كتابي نقلت أقوالك في التحقيق عام ١٩٥٣، وأقوال الدُّكتور إسماعيل صبري عبد الله وغيره من قيادات الشيوعيين، وسوف تكتشف الفرق الكبير بين أقوالك في التحقيق وأقوالهم، وأنت يا شريف إنسان صادق مستعد أن تدفع حياتك لتعبر عن رأيك، وهذا واضح في التحقيق معك، لكن بعض زملائك الشيوعيين لم يكونوا كذلك، لقد دخلوا السِّياسة لأهداف أخرى مثل الحصول على منصب وزير أو رئيس وزراء أو جوائز الدَّوْلة، وأنت لم تحصل على شيء من هذا، لكنك حظيت باحترام الجميع وأنا منهم.

تركت شريف وعادل أمين يتبادلان الذكريات عن التحقيقات، أخذت الكتاب إلى غرفتي لأقرأ ماذا قال شريف حتاتة في ذلك التحقيق عام ١٩٥٣، ذلك العام كنت طالبة بكلية الطب، أعاني ما يعانيه أحمد حلمي والفدائيون الذين شاركوا في حرب القنال عام ١٩٥١، أصبحوا كبش الفداء بين صفقة الحكومة المصرية والاحتلال البريطاني، مات بعضهم على أرض المعركة، مات بعضهم في المنفى في الخارج أو في الداخل، من عاش منهم أصابه المرض النفسي أو الإدمان من أجل النسيان، حتى اليوم لم يؤرِّخ أحد لهذه الفترة من حياة مصر، سقطت أسماء هؤلاء الفدائيين الشهداء في العدم.

تحت اللمبة الكهربية في غرفتي فتحت كتاب عادل أمين وقرأت أقوال شريف حتاتة في التحقيق:

> ذكر شريف أنه قُبض عليه في ٣ نوفمبر ١٩٥٣ الساعة الرابعة صباحًا، وأُودع السِّجن الحربي، وتم التحقيق معه يوم ٥ نوفمبر ١٩٥٣، وقيل له إنه مقبوض عليه بأمر من مجلس قيادة الثورة، وعومل بطريقة غريبة، السِّجن الانفرادي المطلق لمدة أربعة شهور محرومًا من كل شيء، صحف أو كتب أو الاتصال بعائلته أو بمحامٍ، وضُرب عدة مرات ضربًا مُبَرِّحًا، وكُبل بالحديد الخلفي والحديد في الأرجل، وهدده ضابط المخابرات أحمد محمود بالشنق، وبالاعتداء الجنسي، والانتقام من أفراد عائلته إن لم يُدْلِ بالأقوال التي يريدها، كما هدده عدة مرات بالاعتداء عليه وشنقه داخل زنزانته. لم يصدر أمر من النيابة العامة بحبس شريف حتاتة إلا في ١٥ مارس ١٩٥٤، ونُقل إلى سجن مصر بأمر حبس عسكري، مطلوبًا تقديمه لمحكمة الثورة وإعدامه مع بعض زملائه، لولا أن هذه المؤامرة أُحبطت. كان التحقيق يجري في ظل الأحكام العرفية. وقال شريف في التحقيق: إن الشَّعب المصري يريد الكفاح المسلح في القنال لطرد الاحتلال، وإن النيابة مشترِكة في الجريمة ضده، وإنه يحتجُّ على هذا الإرهاب. وأضاف أن التعذيب أدى إلى إصابة زميله كمال عبد الحليم باختلال في قواه العقلية، وعولج بالصدمات الكهربية في المستشفى العسكري، ومَرِضَ الآخرون بحالات عصبية وجسمية يحملونها معهم بقية العمر.

وتم مع شريف حتاتة ضبط مطبوعات كالآتي: ست نسخ من نشرة صوت الفلاحين، ست عشرة صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة ومطبوعة بالرونيو في شكل كتيِّب صغير، الصفحة الأولى منها عبارة مأثورة عن فردريك إنجلز تقول: «بغير نظرية ثورية لا يمكن أن توجد حركة ثورية»، وفي الختام عبارة تقول: «رجال الحكم في مصر يتعاونون مع الاستعمار لا يستطيعون مواجهة الشَّعب إلا بالدبابات والمشانق ومحاكم الثورة»، ثم هذه العبارة الأخيرة: «تسقط جمهورية الدكتاتورية العسكرية وتحيا الجمهورية الشَّعبية الدِّيموقراطيَّة.» وقد حُكم على شريف حتاتة بعشرة أعوام سجن مع الأشغال الشاقَّة، أدَّاها بالكامل داخلَ سجون مصر، لم يُطلق سراحه إلا عام ١٩٦٣، وظل تحت المراقبة عدة سنين بعد ذلك، حتى غادر مصر عام ١٩٧٣، ثم عاد إلى الوطن عام ١٩٨٠.

وفي عام ١٩٨١ دخلت أنا السِّجن وبقي شريف خارجَه، وعشنا المطاردة عدة سنوات حتى ١٩٨٨، حين دخل اسمي قائمة الموت. وفي عام ١٩٩١ وجهت إلينا الحكومة ضربة كبيرة بسبب وقوفنا ضد حرب الخليج. وفي عام ١٩٩٢ كان لا بد من السَّفر خارج الوطن حمايةً لأرواحنا، ثم عدنا إلى الوطن بعد ستة أعوام في المنفى، وها نحن نعيش المنفى داخل الوطن، في تلك الشقة الصغيرة، تكاد تشبه العُلبة من الأسمنت المعلقة بين السماء والأرض في الدور السادس والعشرين في حي شبرا القديم، لولا هذه الشرفة العالية المطلة على النيل والفضاء الواسع، لولا انهماكنا في الكتابة الإبداعية، ولولا زيارات الأصدقاء القدامى والصديقات الجديدات من الشابات والشَّباب ... ربما أصابنا الاختناق أو الموت بالذبحة الصدرية أو التسمم الغذائي.

في هذه الشرفة نجلس في الليل، شبورة سوداء ترقد تحتها مدينة القاهرة، المآذن وقباب الكنائس تغرق في الخِضَمِّ الأسود على حد سواء، أصوات صاخبة ترتفع من خلال مكبرات الصوت، تراتيل دينية بصوت ذكوري خشن، وتراتيل غنائية بأصوات المطربات وراقصات يطرقعن بالصاجات، رائحة الهامبرجر الأمريكي تتصاعد من قُمامة سينسبري البريطاني فوق الشَّاشة، وفي الإذاعات تتكرر الصورة الواحدة والصوت الواحد للحاكم الإله، من حوله رجال ونساء البلاط.

قلبي ينوء بالحزن على هذا الوطن، ستون مليونًا من البشر يعيش نصفهم تحت خط الفقر، أغلبهم نساء معذبات داخل البيوت، يعانين إلى جانب الفقر الاغتصاب الجنسي داخلَ الزَّواج أو خارجَه، يقهرهن رجال العائلة بمثل ما يقهرهن رجال الدَّوْلة.

منذ ولدت في بداية الثلاثينيات وأنا غاضبة ثائرة ضد هذا الظلم منذ الطفولة أحلم بعالم آخر، أبحث عن شيء لا أعرف ماذا أسميه، تعجِز اللغة الطبقية الأبوية عن التعبير عنه، ليس هو الحب الذي يتغنى به هذا العالم المزدوج الوجه، وليس هو الإله الذي يعبده الرِّجَال ويضعهم في درجة أعلى من النِّساء.

شيء أبحث عنه لا أجده في هذا الكون، قد يجذبني البريق في عيني الإنسان أو الإنسانية، أنتبه كالعشب الحساس العاري، أبحث تحت البريق عن الشيء العميق، أنخدع وأخدع نفسي المرة وراء المرة، ثم أُفيق بعد عام أو عامين أو عشرين عامًا، أكتشف جزءًا من الحقيقة التي تتخفى مثل جبل الثلج، يتراكم الحزن في قلبي العامَ وراءَ العام، لا شيء إلا الحزن حين أواجه الحقيقة في هذا العالم.

مفتوحة العينين أحملق في وجه الموت، أحملق في وجه الزيف، في وجه فرعون الإله حاكم البلاد، أثبت عيني وهو جالس فوق المنصة العالية، أشير إليه بإصبعي وأقول له: أنت أول من يحاسب عن الظلم والفساد والفقر في هذا البلد وليس نائبك أو مندوبك؛ لأنك الوحيد الذي تقبض في يدك على السلطة المطلقة، ومن يملك السلطة هو المسئول.

لكنهم يفصلون بين السلطة والمسئولية، كلما ازدادت السلطة اكتسب الحاكم حصانة أكبر، مثل الإله يصبح مسئولًا عن الخير فقط، أما الشر فهناك كبش الفداء أو الضحية، يسمونه الشَّيْطان أو حواء الآثمة، أي النِّساء الفقيرات المغتصبات جسديًّا واقتصاديًّا تحت سطوة القيم الطبقية الأبوية.

في المرآة أرى سحابة الحزن تكاد تُخفي البريق القديم في عيني، أجلس في الشُّرفة العالية أُطل على المدينة، القاهرة لأهلها المقهورة بحكامها، أقاوم الحزن بالكتابة، أحب ملمس القلم بين أصابعي، الأوراق متراكمة فوق مكتبي بخط يدي، تُطل من داخل الغِلاف البرتقالي مكتوب عليه: أوراقي حياتي، الجزء الثالث. مفكرتي الصغيرة غِلافها أزرق تشبه الكشكول في طفولتي عام ١٩٤٢، مكتوب عليها ٢٠٠٠. ثمانية وأربعون عامًا مضت منذ بدأت أكتب في مفكرتي السرية، لم يعد عندي أسرار، كتبتها كلها ونشرتها على النَّاس، تحولت من ذكريات مكبوتة تبعث على الخزي والعار إلى قيمة علمية وأدبية يدرسها الطلاب والطالبات في جامعات العالم، ما عدا الجامعة المصرية.

هناك مَثَل شائع يقول: «لا كرامة لنبي وسط أهله.» أحيانًا أُدرك أن الحظ يحالفني؛ لأنني أعيش ولم يغتلني أحد بعد، أفرد ذراعي عن آخرهما وآخذ شهيقًا عميقًا، أشعر بحرية الخروج من دائرة المألوف، أتذكر أبي منذ اثنين وأربعين عامًا حين ترك الحكومة المصرية، فرد ذراعيه عن آخرهما وقال: أخيرًا تحررت بعد ثلاثة وثلاثين عامًا عشتها رهين المحبسين، الوظيفة الحكومية وسرير الزَّوجية!

ضحك شريف وقال: أبي أيضًا مثل أبيك تحرر من الحكومة بعد الإحالة إلى المعاش. لكنه تحرر من سرير الزَّوجية قبل ذلك يا شريف كان أبي مخلصًا لأمي، لم يكن يفصل بين الإخلاص للزوجة والإخلاص للوطن. قال شريف: أنتِ مثالية يا نوال، كل شيء نسبي في الحياة، لا يوجد إخلاص مِائة في الِمائة. قلت: كم تستخدم نظرية النسبية يا شريف لتبرير كثير من الموبقات في العالم! ضحك شريف وقال: وكم من موبقات أكثر تحدث تحتَ اسم المثالية والمطلق.

يدور الحوار بيني وبين شريف ونحن جالسان في الشرفة، ستة وثلاثون عامًا منذ تزوجنا ونحن في حوار دائم، نُطل من الشرفة العالية على القاهرة من أهرامات الجيزة

إلى جبل المقطم والقلعة، مساحات من الأسمنت بلا شجرة خضراء أو حديقة للأطفال، قطعوا الأشجار وزحفت الجدران على الزرع، جدران سوداء بلا نوافذ، أو نوافذ كالشقوق داخل الشقق، كالعُلب المستوردة، يحفظون فيها الفاصوليا وحبوب الصويا، داخل كل علبة تكدست الأجسام، الجد والجدة والأب والأم والأولاد والبنات والأحفاد والحفيدات، والأعمام والأخوال والخالات والعمات وأولادهم وبناتهم، يرقد اللحم إلى جوار اللحم في غرفة واحدة، يدس الواحد منهم إصبعه في عين الآخر دون أن يراه، يدخل قضيب أحدهم في ثقب مظلم داخل الجدار أو داخل اللحم، لا يُعرف في الظلمة الجدار من الجسد. لا شيء يتحرك في النَّوم إلا الأشباح وأرواح الجان، ورد ذكرهم في كتاب الله، كلهم يؤمنون بالكتاب وبالأرواح الخفية، ينامون دون أن يتكلم أحد في النَّوم، في النهار يسيرون بعيون نصف مغمضة، لا أحد ينطق بشيء مما يدور في عقله، إنهم يعيشون تحت حكم قانون الطوارئ يشبه قانون الأحكام العرفية، إن نطق أحدهم بما يدور في رأسه أخذوه إلى السِّجن دون تحقيق. بالأمس وافق مجلس الشَّعب على مد العمل بقانون الطوارئ ثلاثة أعوام أخرى حتى عام ٢٠٠٣، وبعدها لا أحد يعرف الغيب إلا الله والسَّيِّد الرَّئيس.

بالأمس اعترض مجلس الشَّعب على حق المرأة في السفر دون إذن زوجها، قلت لابنتي: أنتِ أكثر حرية من أمك لأنك غير متزوجة. قالت ابنتي: ولماذا تزوجتِ يا أمي؟ قلت: لم يكن ممكنًا أن أُنجب أطفالًا منذ أربعين عامًا دون زواج، أنا لا أومن بورق الزَّواج أو شهادة الطب أو الأدب أو شهادة الميلاد أو الوفاة، لكني تزوجت بعقد مكتوب ليكتسب أطفالي الشَّرعية، لكن اليوم لم يعد عقد الزَّواج الرسمي صالحًا، لم تعد النِّساء خاضعات مكسورات، أغلب الشَّابات المثقَّفات يرفضن الزَّواج الرَّسمي، بدأت أنواع أخرى من الزَّواج غير الرَّسمي تنتشر مثل الزَّواج العرفي وزواج المسيار، وزواج الدم، وكلها تتحدى الزَّواج الرسمي المختوم بالنسر.

في هذه الشرفة في الدور السادس والعشرين يدور الحوار بين أجيال مختلفة من الشَّباب والشابات، من عمر ابنتي، وعمر ابني، أرمقهم بإعجاب ... عيونهم لم تعد منكسرة، رءوسهم لم تعد مُطْرِقة إلى الأرض، عيونهم لم تعد نصف مُغْمَضة، يتحاورون ويعبرون عما يدور في عقولهم دون خوف.

وقال شريف: سيكون المستقبل أفضل من الحاضر يا نوال! قلت: لكننا لن نكون هنا يا شريف. قال: لا يهم أن نكون هنا بأجسامنا لكن أفكارنا ستكون موجودة في الكتب.

وأسأل بدهشة: أيكون الورق أطول عمرًا من البشر؟! ألهذا لجأ الآلهة أيضًا إلى الكتب من أجل البقاء؟!

مِنْ مُفكرتي السِّريَّة عام ١٩٤٧

اليوم ٩ يوليو ٢٠٠٠، تجمع في بيتي أعداد من الشابات والشَّباب، أسسوا جمعية جديدة باسم النهضة الفكرية للمرأة المصرية. بدأت معاكسات وزارة الشُّئون الاجتماعية، رفضت تسجيل الجمعيَّة في مارس الماضي، لكن العضوات والأعضاء أصرُّوا على مواصلة العمل، أنظر إلى وجوههم، أتذكر نفسي منذ أربعين عامًا، حين كنت في مثل هذا العمر، ربيع الشَّباب، يعود إليَّ حماسي كما كنت في العشرين أو الثلاثين، ابنتي منى وابني عاطف جزء من هذه النهضة الفكرية والفنية الجديدة، هذه الوجوه تشبه ابنتي وابني، كأنما ولدتهم جميعًا في مكان وزمان لا أدري عنه شيئًا.

لا شيء يعيد إليَّ التفاؤل والأمل مثل العمل الجماعي، هذه الوجوه الشابة المليئة بالتفاؤل والأمل، عيونهم يكسوها البريق، يبتسمون ويضحكون، يتحركون في بيتي كأنما بيتهم، يدخلون إلى المطبخ، يصنعون الشاي، يقطعون فطيرة الذرة، ثم تتولى واحدة منهم إدارة الاجتماع، شابة في الخامسة والعشرين اسمها ابتسام، تكتب الأدب والشعر، تخرج إلى المظاهرات ضد الفساد في الدَّوْلة والعائلة، خاضت تجرِبة الزَّواج والأمومة، خرجت من التجرِبة برواية جديدة طويلة وطفلة عمرها ثلاثة أعوام، تحملها معها في كل مكان، تدربها منذ الطفولة على رؤية العالم، والتحدي، تعيش وحدَها مع طفلتها، تنفق عليها من راتبها الشهري، تشتغل في إحدى الصُّحف الجديدة، تحصل على ما يكفيها ويكفي طفلتها … قالت ابتسام في الاجتماع: أنا امرأة سعيدة أستمتع بالحياة دون حاجة إلى رجل. قال أحد الشَّباب: ليس كل الرِّجَال متخلفين. ضحك الجميع، وقال شاب: أغلبهم متخلفون، لا بد

من الاعتراف أن قلة نادرة من الشَّباب تخلصوا من عقدة الذكورة. وقالت إحدى الشابات: لا بد من الاعتراف أن قلة نادرة من الشابات تخلصن من عقدة الأنوثة.

يدور الحوار بينهم وهم جالسون في صالة بيتي، أستمع إليهم، ربما هم هؤلاء القلة النادرة، وإلا فلماذا جاءوا إليَّ أنا بالذات؟! وقالت ابتسام: قرأت كتبك يا دكتورة نوال وتغيرتْ حياتي كلها، استطعت أن أحوِّل كل تجرِبة مؤلمة مررت بها إلى عمل إبداعي. هذه الكلمات ترنُّ في أذني كالموسيقى، كالماء يروي الزهرة، كالهواء النقي يدخل صدري، يطرد الغبار والحزن واليأس، أتلفَّت حولي وأرى الفقر يشتد، الجهل يشتد، المرض يشتد، الثالوث المزمن القديم منذ عهود الملكية والإقطاع: «الفقر، الجهل، المرض»، هذا الثالوث يتجسد أمامي أينما ذهبت، كأنما لم يتحرك الزمن منذ كنت طفلة في السابعة من العمر.

لكن هذه الوجوه الشابة تعيد إليَّ التفاؤل والأمل، تقول ابتسام: لسنا قلة نادرة يا دكتورة نوال، نحن أغلبية هذا الشَّعب، الأغلبية الصامتة التي لم يكن لها صوت، أصبح لنا صوت، ربما ضعيف في مجموعة صغيرة لكنَّ صوتنا سوف يكبر ويكبر. تطلق ضحكة مرحة يشاركها الجميع الضحك، أضحك معهم، أسمع صوت ضحكتي بأذني، أستعيد طفولتي وشبابي، يتسرب الألم من جسدي والحزن، أنهض بحركة خفيفة كأنما في العشرين من العمر، كأنما تلاشت أربعون سنة من عمري، أيكون الزمن هو الوهم؟! أتكون الشيخوخة هي المرض المؤقت لا يشفيه إلا الأمل؟!

همست لشريف في الليل، سأعيش حتى القرن الثَّاني والعشرين، ضحك شريف وقال: بالأمس قلتِ يا نوال إنك ستموتين غدًا. نعم يا شريف، كان ذلك بالأمس، لكن اليوم أنا شابة من جديد، ما رأيك في كأس من النبيذ وقليل من الفول السوداني، وكثير من الحب؟! يضحك شريف، الساعة الآن الثالثة صباحًا يا نوال. إيه يعني يا شريف؟! وليه تبص في الساعة؟! تعوَّد شريف أن ينام والساعة حول مِعْصَمه، وخاتم الزَّواج حول إصبعه، أي خاتم، ولا أعترف بأي خاتم.

يقول شريف عنها: «الفوضى الضرورية لأي نظام»، نحن في حاجة إلى شيء من الفوضى لندرك النظام، شريف كان يدرس معي في جامعة ديوك المادة الجديدة التي أطلقنا عليها اسم «التمرد والإبداع». حين التقيت بشريف لأول مرة منذ ستة وثلاثين عامًا قلت له: أنت يا شريف متمرد ومبدع، في أعماقك حنين للفوضى رغم مظهرك الخارجي المنظم جدًّا.

أصبحت نظرية الفوضى في علم الكون الجديد جزءًا لا ينفصل عن النظام، وفي علم الفلسفة الجديد أصبح الشَّيْطان جزءًا من الإله، تلاشت الثنائيات الباطلة الموروثة منذ

نشوء العبودية؛ ومنها ثنائية الذكر والأنثى والحاكم والمحكوم؛ ألهذا السبب لا أعترف بأي حكومة في العالم؟! تشترك الحكومات جميعًا في بعض الصفات الأساسية، على رأسها القهر والتضليل، ما إن ترن كلمة «حكومة» في أذني حتى تتكوَّر يدي في قبضة قوية، كأنما سأضرب رأس ثعبان.

وأندهش حين يفخر أحد بمنصبه العالي في الحكومة، أو حين ينال جائزة حكومية تحمل اسم جائزة الدَّوْلة.

– ما الفرق بين الحكومة والدَّوْلة؟

– في الأنظمة الدكتاتورية لا يوجد فرق؛ لأن الشَّعب لا يشارك في الحكم.

– وهل يشارك الشَّعب في أي حكم في العالم؟

– في عالمنا الطبقي الأبوي هذا؟

– نعم.

– لا توجد ديموقراطية حقيقية في أي بلد، العالم تحكمه القوة والأموال وليس العدل أو الحرية.

يدور الحوار في بيتنا عام ٢٠٠٠ كما كان يدور منذ نصف قرن في بيت أبي، سقط النظام الملكي وبدأ النظام الجمهوري وظلت الحكومات كما هي، لا يمكن لحكومة أن تبقى مستقرة فوق عرشها دون قهر الشَّعب وتضليله، كان أبي يقول: لا شيء يضلل الشَّعب مثل نظام التعليم.

كنت في الثامنة والعشرين من عمري حين مات أبي، كلماته محفورة في ذاكرتي، وزارة التعليم تلعب دورًا في تجهيل النَّاس بالحقيقة، المعرفة إثم حتى اليوم، أصبحت عمليات التجهيل أكثر إتقانًا مع تطور تكنولوجيا التعليم والإعلام الحديث وما بعد الحديث.

في أعماقي حنين منذ الطفولة للمعرفة، شهوة المعرفة أكبر عندي من الشهوة الجنسية، لا يجذبني الرِّجَال ذوو الفحولة الذكورية، لقد مر بحياتي رجال كثيرون، انجذبوا إلى أنوثتي الخادعة، إلى البريق المطل من العينين، تصوروا أنني أبادلهم الحب، لكن سرعان ما تحدث المأساة، تصطدم الذكورة التقليدية بأنوثة مختلفة غير قابلة للاختراق.

بعد موت أبي وأمي تصورت أنني تحررت، في طفولتي كنت أحلم أنهما ماتا لأخرج من البيت بدون إذن، أصحو من النَّوم مبللة بالدموع، أبكي على موتهما بمثل ما أبكي على عدم موتهما.

بعد موت أبي جاءت صديقتي بطة لتعزيني، مرت عليَّ بعيادتي في ميدان الجيزة، كانت الساعة السابعة أول الليل، العيادة خالية من المرضى والتمورجي في إجازة، انتهزْتُ فرصة موت أبي لأغلق عيادتي شهرًا كاملًا، علَّقت ورقة على الباب تقول:

«العيادة مغلقة حتى يوم ٢١ مارس»، كنت أريد أن أكتب «العيادة مغلقة إلى الأبد»، لقد فتحت هذه العيادة من أجل أبي، دخلت كلية الطب من أجل أبي، وقد مات أبي وانتهت علاقتي بمهنة الطب، أما العيادة فقد أصبحت مقرًّا لندوات الأدب، حيث ألتقي الأصدقاء والصديقات.

دخلت بطة كعادتها مثل ريح تدفع الباب، تدق الأرض بكعب حذائها العالي المدبب، جسمها السمين القصير مدكوك داخل ثوب حريري أسود، علامة الحداد على موت أبي، فتحة الصدر واسعة تكشف عن عنق سمين ناعم حتى الشق العميق بين النهدين المضغوطين بالمشد، رأت وجهي الشاحب الحزين فجلست مُطْرِقة إلى الأرض ترسم على وجهها علامات الحزن، عيناها السوداوان الواسعتان مرسومتان بالكحل، تملأهما ضحكة مرحة مكتومة الصوت.

– تشربي إيه يا بطة؟

– قهوة سادة سوداء يا نوال، مش كده ولا إيه؟

أفلتت من شفتيها الممتلئتين تنهيدة قصيرة، لعقت بطرَف لسانها شفتها السفلى السمينة وقالت: عندك حاجة تانية؟ قلت: عندي ينسون يا بطة. هنا أطلقت ضحكتها المرحة وقالت: مش تبطلي طفولة بقة إنت كبرتي يا نوال، عندك جين تونيك؟

كانت أول مرة في حياتي أسمع كلمة «جين تونيك»، قالت بطة: إنه الشيء الوحيد الذي تشربه حين تكون حزينة، المشروب الوحيد الذي يبدد الكآبة وتبدو الحياة تحت أضواء جديدة، في أعماقي حنين لأذوق كل ما تشتهي الأنفس، وكان وجود أبي في حياتي كاللوح الزجاجي السميك الشفاف، أرى من خلاله الحياة وإن مددت يدي نحوها يعترضني حاجز لا أراه.

دق جرس التليفون فوق مكتبي، جاءني الصوت يقول: البقية في حياتك يا نوال، سأمر عليك بعد ساعة. لمعت عينا بطة وتساءلت: مين هو؟ قلت لها: رجاء الشاعر. مطت بوزها وقالت: يعني! وهي كلمة شاعت في ألسن النَّاس في مصر منذ الوحدة مع سوريا، وهي تعني الموافقة وعدم الموافقة في وقت واحد، بعد فشل الوحدة وانفصال سوريا عن مصر بقيت الكلمة تتردد على الألسن، وتعني اللامبالاة أو عدم الاهتمام، يهز الواحد منهم

كتفه ويقول «يعني»، أو تمط الواحدة منهن شفتيها وتقول «يعني»، فندرك ماذا تعني. بدأت الكلمة أول ما بدأت على لسان جمال عبد الناصر في الأيام الأولى للوحدة مع سوريا، دخلت الكلمة القاموس المصري بقرار شفهي شبه جمهوري، تشبهًا بالسوريين، ثم انتقلت إلى المصريين تشبهًا بالرَّئيس عبد الناصر، وأعقب ذلك الإمساك بالسبحة بين الأصابع. ودخلت كلمة أخرى إلى القاموس المصري مع تحريك حبات السبحة، وهي كلمة «واللا»، تضحك بطة وهي تردد كلمة «واللا» بصوت عبد الناصر، تعقبها بكلمة «يعني»، ثم تطرقع أصابعها القصيرة البضة وتمط شفتيها وتقول: عارفة يا نوال أنا باعرف بتوع الاتحاد الاشتراكي من طريقة كلامهم. وكان الاتحاد الاشتراكي قد تكون بعد صدور القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١، وعُقد المؤتمر الوطني للقوى الشَّعبية عام ١٩٦٢، وخرج الميثاق إلى الوجود وصديقتي بطة تسخر من كل ذلك، تمط بوزها وتقول: يعني!

لم يكن صديقي رجاء الشاعر يعجب صديقتي بطة، تقول عنه «اشتراكي غارق لأذنيه في عشق البرجوازية»، وهو نحيف الجسم قصير القامة، قدماه صغيرتان، وهي لا تطيق القدم الصغيرة في الرِّجَال، كما لا تطيق القدم الكبيرة في المرأة، ترمق بإعجابٍ قدمها الصغيرة البضة المقوَّسة داخلَ الحذاء ذي الكعب العالي، تقارنها بقدمي الكبيرة داخل حذائي بدون كعب، وتمط شفتيها: مش عارفة يا نوال إيه اللي عاجبك في جزم الرِّجَالة دي اللي بتلبسيها! كانت بطة تتولى مَهمة تحويلي إلى أنثى مثلها، ترمق بشرتي السمراء بشيء من الامتعاض، وتقول: عارفة إيه اللي ناقصك يا نوال عشان تبقي ملكة جمال، شوية بودرة وروج وتصبغي شعرك الأبيض ده!

كأنما كانت النقيضة لي، رغم اختلافي معها في كل شيء، كان هناك شيء غامض يجمعنا، تلازمني في كل مكان أذهب إليه كظلي، تطلبني كل يوم في التليفون وتأتي لزيارتي في البيت أو العيادة، أصمم في كل مرة ألا أرد عليها، لكن ما إن يرن الجرس وأعرف صوتها حتى أقول أهلًا بطة. كانت تملأ حياتي الحزينة بشيء من المرح، تملأ حياتي الجادة بشيء من الاستهتار، إلى جوارها أحس بالنقاء، كأنما يحتاج النقاء دائمًا إلى شيء من الفساد ليرى نفسه، كالضوء لا نراه إلا في الظلمة.

حين قالت بطة «يعني» ومطت بوزها، قلت لصديقي رجاء الشاعر: إنني متعبة وحزينة لموت أبي ولا أقابل أحدًا من النَّاس. أحسست في صوته خيبة الأمل، كان يريد أن يراني في تلك الليلة، وكانت معي صديقتي بطة، وهي قادرة على تسليتي أكثر منه، تجعلني أضحك من أعماق قلبي، لا تحدثني عن سوريا أو العراق أو مصر أو الإيمان بالله أو الوطن،

تُخرج من حقيبتها زجاجة الجين، وتسألني: عندك ثلج يا نوال؟ لا تنتظر مني الإجابة، تنهض وتفتح الثلاجة في البيت أو العيادة، تضع قطع الثلج في صحن صغير، تفتح زجاجة ماء التونك، تخلط الجين بالتونيك مع الثلج وقطعة من الليمون على شكل الدائرة، تغمسها في الكأس بطرَف إصبعها ثم تمصه وتقول: يا ترى مين العبقري ده اللي اكتشف الجين تونيك؟ تعرفي أنا باحسدك ليه يا نوال؟ لأنك قدرتي تطلقي جوزك؛ ولأن أمك وأبوكي ماتوا وبقيتي إنسانة حرة!

تطلق بطة ضحكتها المرحة المعدِيَة مثل المرض؛ فأضحك مثلها بقوة لا إرادية، أود أن أشعر أنني إنسانة حرة، لكن القيود تلفني كخيوط من الحرير، ذراعايَ مشبوكتان حول صدري، لا أستطيع أن أطلق هذه الضحكة العالية المرحة التي تطلقها وتكاد تخرق الحوائط الأربعة.

– يا بختك يا بطة بتقدري تضحكي من كل قلبك.

تتوقف بطة عن الضحك فجأة، يسقط وجهها كأنما في قاع مجهول، تكسو عينيها سحابةُ حزن كثيفة، ترشف الجين تونيك في صمت، تمصمص شفتيها وتقول: أنا باضحك معاكي بس يا نوال، باحاول أفضفض عن نفسي … وسرعان ما تنقشع السحابة، تلمع عيناها من جديد، يطل منهما بريق مشع متأجج بالرغبة المكبوتة، يشتغل رأسها بالخيال الجامح، تبدأ في الاعتراف بشيء لا تنطق به وهي في كامل الوعي، تعرفي يا نوال أنا نفسي في إيه دلوقتي؟ تصمت لحظة مترددة ثم تهمس: نفسي أخرج وأمشي في الشَّارع وأصطاد أي راجل يقابلني، راجل لا يعرفني ولا أعرفه، متهيأ لي يا نوال إن هو ده الراجل اللي ممكن يقدر يحقق المعجزة، ممكن يحقق المستحيل، اللذة المستحيلة يا نوال!

كانت بطة تؤمن أن هناك تناقضًا بين الحب والجنس، لا يمكن أن تتحقق اللذة الجنسية إلا مع رجل فاسد لا يؤمن بالثالوث المقدس: «الله، الوطن، الحب». وكانت تقول إنها حين تحب الرَّجل لا تمارس معه الجنس حتى يحتفظ بصورتها الملائكية حتى الموت، ثم تطلق ضحكتها وأنطلق أضحك كأنما بالعدوى.

كنت وحدي بالبيت، مات أبي ليلةَ الخميس ١٩ فبراير ١٩٥٩، مضت سنة كاملة على موته وخمسون يومًا. الليلة هي أول إبريل عام ١٩٦٠، لم يكن بيتنا يخلوا إلا نادرًا، تلك اللحظات يتسع الأفق فجأة، وأكاد أرى الإله «رع» وراءَ السحابة البعيدة. يصمت الكون وأكاد أسمع دبة النملة، وحفيف أوراق الأشجار البعيدة، نسمة الليل تصيح رقيقة ناعمة

كحرارة الجسم، أستشعر اللذة حين أفرد جسمي حتى النِّهاية، أمد عنقي حتى النِّهاية، يصبح رأسي عاليًا قريبًا من رأس الإله «رع» في السماء، لم تكن هذه الحركة مباحة للنساء، والمفروض ألَّا يعلوَ رأس المرأة عن رأس أبيها أو زوجها، فما بال من هو أعلى منهما في الكون، كانت قامتي شامخة وعنقي طويلًا، وكان لا بد من علاج هذا العيب.

أصبحت أمشي بقامة منحنية قليلًا، لا أستطيع أن أفراد جسدي حتى نهايته في اليقظة أو في النَّوم، الانحناءة تنمو كالصنم فوق ظهري دون أن أدري، كالعضو الغريب ينمو خِلسة ويصبح جزءًا من الجسم، كالخوف من عقاب الله يتسلل إلى العقل ويكمن فيه، كالمرض المزمن. كانت أسرتنا كبيرة العدد، يسميها أبي «الفاميليا» ينطق الكلمة بسخرية، ينفث الهواء مع الياء الأخيرة، والألف المدودة يمدها مع زفير طويل، مملوء بالضجر والزهو الخفي، يشير إلينا بإصبعه الطويل ونحن متراصُّون حول المائدة:

«الفاميليا الكريمة تسعة من العيال وأمهم.»

عرفت منذ الطفولة أن الفاميليا هي أسرة أبي فقط، أمي مثلنا نحن الأطفال واحدة من العيال، كلمة العيال ترن في أذني مهينة تنم عن الاحتقار، العيال هم من يعيشون عالة على غيرهم.

لم تكن أمي تواظب على الصلاة أو تلاوة القرآن، يسألها أبي كلَّ يوم: ليه يا زينب مش بتصلي؟ تضحك أمي ضحكتها المرحة الساخرة وتقول: أنت بتصلي بالنيابة عني يا سيد. يندهش أبي ويقول: بالنيابة عنك إزاي يا زينب؟ تواصل أمي السخرية: إنت بتنوب عني في كل حاجة حسب القانون والشرع، يبقى لازم تنوب عني في الصلاة كمان، ولا إيه؟!

في طفولتي لم أفهم كلام أمي، أدركت بالفطرة أنها لا تؤمن بالله، تزمجر أحيانًا بغضب مكتوم وتخاطب السماء قائلة: يعني كل حاجة من حق الرِّجَال دنيا وآخرة واحنا مافيش حاجة؟! تتراجع بعد لحظة وتهمس: أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

بعد موت أبي أدركت أن الفاميليا ماتت، ألم يكن عمودها وعميدها؟! ألا يسقط البناء بسقوط العمود؟! الفرح الخفي يهزُّني وأنا أرى البناء يسقط، يبدو لي منذ الطفولة واهيًا، مصنوعًا من الوهم، أو مجرد الاسم، كانت أمي تضحك حين يشير أبي إلينا نحن التسعة ويقول بزهو: أولادي!

تضحك أمي وتسأله: مَنْ قال إنهم أولادك؟! يضحك أبي مدركًا الفكاهة، ثم سرعان ما ينتابه سُعال جافٌّ ويصمت فجأة كأنما يسقط في بئر عميقة بغير قاع.

كان أبي يؤمن بالحياة الأخرى بعد الموت، يحكي لنا كيف يعاقب الله المذنبين، كيف تُلقى أجسادهم في النار لتحترق، نختفي نحن الأطفال تحت السَّرير من شدة الخوف،

تقول أختي الصغرى: إن الميت لا يمكن أن يحس شيئًا. كان الموت في نظرنا نحن الأطفال هو الموت، هو نهاية الألم ونهاية الإحساس، لم نصدِّق في طفولتنا ما يقوله الكبار، كانت أختي الصغرى تشاركني اللعب تحت السَّرير، وتقول لي: إن الأطفال يعرفون ما لا يعرفه الكبار. وأسألها: ليه؟ تقول: لأن الكبار عقلهم صغير. وننفجر بالضحك المكتوم حتى لا يسمعَنا أبي أو أمي الجالسان في الصالة.

كان البيت خاليًا تلك الليلة، دادة أم إبراهيم أخذت ابنتي الطفلة وأخواتي الأربع الصغيرات في رحلة إلى القرية، ربما كانت إجازة شم النسيم أو عيد الربيع، أو الاحتفال بعيد العمال أو أحد المشاريع الاشتراكية الجديدة، أصبحت أم إبراهيم تتغنى بالاشتراكية مثل وزير الصِّحَّة. بعد موت أمي أصبحت هي بديل الأم، تطبخ وتغسل الصحون وتدعك المرحاض. بعد موت أبي أصبحت أنا بديل الأب، أتولى الإنفاق على الفاميليا الكبيرة، ورثتها عنه ضمن أشياء أخرى منها أثاث البيت واسمه الكريم ودينه الحنيف، ونصف فدان من الأرض الزراعية في كفر طحلة، استولى عليها الحاج محمد ابن عمه.

أول كل شهر أناول أم إبراهيم مرتبها مثل الموظفين في الدَّوْلة، أوراق البنكنوت تُمسكها في يدها لحظة قبل أن تدسَّها في جيبها، عيناها يكسوهما البريق القديم، كشعاع من الضوء ينفذ من قاع عظام الرَّأس، ترتعش أطراف أصابعها قليلًا كأنما تجري وهي واقفة، ثم تطلق ضحكتها المرحة وتقول: «أصل الفلوس يا ضكطورة راكبها عفريت اللهم احفظنا يا رب من شرهم!»

كان الليل هادئًا وأنا راقدة فوق الكنبة في الشرفة البحرية، أستمتع بالوحدة وغياب الأسرة عن البيت. لم تكن الأصوات تنقطع في بيتنا إلا في منتصف الليل، حينئذ تسري من خلال الجدران أصوات الجيران. كانت غرفة نومي ملاصقة لغرفة نوم جارتنا الست حمدية وزوجها السَّيِّد أحمد عبد التواب، يسري أنينها في الليل وأنا غارقة في النَّوم، أو صوت أم كلثوم تغني قرب الفجر، «هو صحيح الهوى غلَّاب ما عرفش أنا»، أو صوت جمال عبد الناصر يخطب في إحدى المناسبات الوطنية، يضغط على مخارج الألفاظ بقوة، «الاشتراكية! أيها الإخوة والأخوات! علينا جميعًا أن نبني المجتمع الاشتراكي الجديد!»

تلك الليلة أول الربيع كان الكون هادئًا وأنا وحدي في البيت بلا أسرة ولا صوت يسري من عند الجيران، إلا شيء خافت يشبه حفيف الشجر من بعيد، ربما هو صوت أمإلا شيء خافت يشبه حفيف الشجركلثوم تغني في راديو الجيران بمناسبة عيد الربيع، أو صوت جمال عبد الناصر يخطب في عيد العمال. حروف الكلمات لم تعد مسموعة والصوت لم يعد

صوتًا، بل صار شيئًا مسحوقًا يتسلل من وراء الجدار الحجري كالرَّماد الناعم، كحفيف أوراق الأشجار في الأفق البعيد، إلا كلمة واحدة ظلت متماسكة الحروف، تقاوم الانسحاق داخل الجدار، تحملها نسمة الليل إلى أذني وأنا راقدة فوق الكنبة في الشرفة، ترن في الجو بصوت أنثوي يشبه صوت سامية عضو اللجنة القيادية في الاتحاد الاشتراكي، تقف فوق المنصة وراء الميكرفون وتنطق بصوت جمال عبد الناصر كلمة الاشتراكية! الاشتراكية أيها الإخوة والأخوات.

لم تكن سامية أقرب الزميلات إليَّ في عنبر الدَّاخلية، كانت تكبرني بعامين اثنين، بدت في ذلك الوقت كأنما تكبرني بقرن أو قرنين، تعرف قواميس لغات لا نعرفها، تفك طلاسم كلمات غامضة على عقولنا نحن التلميذات الصغيرات، ومنها كلمة الشُّيوعيَّة والمادية الدياليكتيكية، وعلى رأسها اسم «ماركس»، وهو اسم يختلط في أذاننا مع اسم «مركس» بصوت زميلتنا «بطة»، حين كانت تقلب حرف القاف الخشن إلى حرف الكاف الرقيق، تشبهًا بالطبقة الراقية والأجانب، ويصعد الدم إلى وجه صفية حين ترنُّ في الجو كلمة «مركس» أو «مرقس»، فهو الاسم الذي تُعلقه داخل القلب الذهبي فوق صدرها، يحتقن خداها البيضاوان بلون الدم، ترمقني بعين حمراء كأنما أنا أفشيت السر، وكانت هي تحكي قصة حبها للزميلات في عنبر الدَّاخلية، أو لأي زميلة تسهر معها بعد أن يدق جرس النَّوم، تقفان معًا في النافذة تطلان على القمر والنجوم في غياب أبلة عزيزة ضابطة الدَّاخلية.

لم تكن «بطة» معنا في حلوان الثانوية، أصبحت زميلة لنا في كلية الطب، كان الحديث بين الزميلات موصولًا على الدوام، لا يفصل المدرسة عن الجامعة أو الطفولة عن المراهقة عن الشَّباب، لا يقطعه زواج أو طلاق أو موت الزَّوج أو أي حادث آخر يعترض حياة البنات والنِّساء، كأنما عطش الحب لا يرتوي أبدًا حتى تبلغ المرأة مِائة عام.

كنت منذ الطفولة أُخفي عن أبي وأمي كثيرًا من المحرَّمات التي تتردد في عقولنا نحن الأطفال، أغلبها يتعلق بالحب أو الموت، ومنها فكرة أن الموت نهاية الألم، أي أن الجسد الميت لا يحس شيئًا إن وضع في النار. كانت هذه الفكرة واضحة لعقلي منذ الطفولة الأولى قبل أن أبلغ السابعة من العمر، لكنها بدأت تختفي كلما كبرت ودخلت المدرسة. كانت صفية أقرب الزميلات إليَّ في عنبر الدَّاخلية، تكبرني بعام واحد، وتبدو كأنما هي امرأة ناضجة، ثدياها ممتلئان باللحم مثل أمي، كأنما تزوجت وأنجبت، أو خاضت تجارِب في عالم الحب لا نعرفها، حول عنقها سلسلة ذهبية يتدلى منها قلب مصنوع من الذهب، تفتحه بأطراف أصابعها الناعمة البضة كأصابع أمي، تلثمه بشفتيها، وصدرها يعلو ويهبط من أنفاسها،

تلتقط خصلة شعر رفيعة ملفوفة داخل تجويف القلب، تقربها من أنفها وتشمها، تأخذ شهيقًا عميقًا مع تنهيدة طويلة، ثم تفتح جفونها ورموشها، ترتعش وتقول بصوت يتقطع مع أنفاسها: «باحبه يا نوال باموت فيه!» ... تكرر هذه العبارة الليلة وراء الليلة، كلما وقفْتُ معها في النافذة بعد أن يدقَّ جرس النَّوم، حين يغلبني النُّعاس أتركها وحدَها واقفة في النافذة تُناجي القمر، وفي الحُلم أراها ممدودة فوق السيخ المحمي في النار، يحرقها الله المرة وراء المرة، إن إثمها ليس واحدًا بل اثنين، الإثم الأول هو الحب، كان الحب محرمًا على البنات إلا في الأغاني والأفلام، الإثم الثَّاني هو «مرقس» حبيبها القبطي وهي مسلمة، كنت أهمس في أذنها «الحب ده حرام ربنا حيحرقك في النار يا صفية»، تهز كتفيها، تمط شفتيها إلى الأمام وتهمس: «بعد ما أموت يا نوال مش حاحس بحاجة»، يسري صوتها في هدوء الليل كحفيف الأشجار تتراءى من بعيد في الظلمة كالأشباح أو أرواح الجانِّ، يتسلل الحفيف إلى أذني في الليل مخيفًا مثل فحيح الشَّيْطان، يرتعد جسدي وأنا واقفة في النافذة إلى جوارها، تسري القشعريرة من قمة رأسي إلى بطن القدمين، أحس البرودة تصعد من بلاط العنبر إلى منابت الشعر تحت الجلد، والشعيرات الدموية تنتصب فوق ذراعيَّ العاريتين كرءوس الإبر، أقرِّب شفتيَّ المرتعشتين من أذنها وأهمس: «يعني مش حانحس بالنار بعد ما نموت يا صفية؟» وتفلت من بين شفتيها ضحكة مكتومة وهي تخفي فمها بيدها الناعمة البضة «نار الحب يا نوال بس نحس بيها.» أتركها وحدَها واقفة في النافذة وأختفي تحت الغطاء، كل شيء في كياني يرتج، والسَّرير من تحتي يرتج في صرير مسموع يكاد يوقظ بنات العنبر، وأنتفض تحت الأغطية كالفرخة المذبوحة، إلا خلية واحدة في رأسي تظل هادئة وقورة لا ترتجُّ ولا تهتز، كأنما هي تعرف الحقيقة منذ ولدت، أو كأنما هي الخلية الوحيدة في عقلي التي عاشت منذ الطفولة.

لم تنقطع صداقتي بصفية حتى اليوم، أصبحت زوجة الداعية الإسلامي الكبير الدُّكتور مصطفى الزهيري، تلف رأسها بحجاب أنيق يتمشى مع الأصالة ولا يتعارض مع الحداثة، يسمونه «البونيه»، كلمة فرنسية تنطقها بصوت قوي يشبه صوت زوجها، تضغط على أسنانها وهي تقول «البونيه» بلهجة رجولية تتناقض مع وجهها السمين البض الذي يفيض أنوثة، وشفتاها المتلئتان الناعمتان ضغطت عليهما بإصبع الروج الأحمر قبل أن تخرج من البيت، وبعد أن ارتدت البونيه وأحكمته حول رأسها، لا يظهر من شعرها الأسود المصبوغ إلا خصلة نافرة رفيعة تتدلى فوق جبهتها العريضة من الأمام، أو فوق عنقها القصير السمين من الخلف.

في النَّوم يتكرر الحلم القديم رغم مرور السنين، وأراها تشوى في النار كخروف العيد، دون أن تشعر بالألم، تنطلق ضحكتها في سكون الليل، وصوتها يسري في أذني كالسيخ الحامي «نار الحب يا نوال بس نحس بيها»، كنت أحكي لها الحلم وهي واقفة إلى جواري في النافذة، عيناها تشتعلان بالضوء كأنما بنار خفية، تسري حرارتها إلى رأسي وعنقي وأنا واقفة إلى جوارها، دون أن تلامسني أو ألامسها، كأنما هي شعلة مختبئة في الأعماق، لا أعرف من أين تتدفق هذه السخونة وتسري من قمة رأسي إلى أسفل الكعبين، يصبح البلاط ساخنًا تحت قدميَّ الحافيتين، والبنات غارقات في النَّوم داخل العنبر، وأبلة عزيزة ضابطة الدَّاخلية غائبة في إجازة، ولا أحد يطل علينا من السماء إلا القمر المكتمل بدرًا، يتألق نوره فوق رمال الصحراء الممدودة تحت عيوننا حتى الأفق، بحر من الفضة السائلة تشع موجاته ومضات من الضوء الأبيض تبدو في الظلمة كفصوص اللؤلؤ.

هذه الصورة محفورة في عقلي رغم مرور خمسة وأربعين عامًا، وقصيدة من الشعر كتبتها في مفكرتي السرية قرب الفجر، بعد أن سهرت الليل واقفة عند النافذة مع صديقتي صفية، هي تحكي عن نار الحب وتحلم بالزَّواج من مرقس بعد أن يعتنق الإسلام، وأنا أحلم بأن أكون كاتبة أو شاعرة أو ممثلة فوق المسرح أو راقصة أو أي شيء آخر إلا الزَّواج.

كان الشفق الأحمر بلون الدماء يسبق ضوء الفجر إلى السماء، وكنت أشعر كأنما تورَّمَتْ قدماي من طول الوقوف، ثماني ساعات أو تسع منذ دق جرس النَّوم ونحن واقفتان نطل على القمر والنجوم ... تركتني صفية قبل الفجر بقليل ونامت، كان النَّوم قد هجرني كأنما إلى الأبد، ولن يعرف جسدي التعب أو الألم، كأنما ينبوع ينفجر في أعماقي بأشياء لا أعرفها، أمسكت القلم وأنا واقفة، الورقة البيضاء فوق حافَة النافذة، وبدأت أكتب، كان القلم يمشي وحدَه كأنما بقوةٍ خارجَ جسدي وعقلي، خارجَ الزمان والمكان، كلمات من الشعر أو النثر تكتب نفسها بنفسها.

قرأت على صفية في الليلة التالية، وفي الليلة التي بعدها، والتي بعدها ... تلمع الدموع في عينيها وأنا أقرأها، أتوقف لحظة لأبتلع دموعي، أطوي الورقة وأخفيها تحت مرتبة السَّرير، تشدها من تحت المرتبة وتقرأها. في ليلة وهي تعيد قراءتها بدت الكلمات قديمة كأنما راحت شحنتها الأولى المتوهجة، أمسكت الورقة ومزقتها، وفي يوم كنت وحدي بالعنبر، خرجت كل البنات في رحلة إلى الحديقة اليابانية، فتحت مفكرتي السرية وأعدت كتابة القصيدة، بقيت في ذاكرتي حتى اليوم، أعطيتها عنوان: «لن أموت»، أردد بعض أبياتها أحيانًا حين يفيض بي الشجن أو الحنين، لا أعرف من أين ينبعث الشجن ولمن يكون الحنين، ربما هو

الحب الغائب الحاضر، الطيف الذي لا يتجسد أبدًا في الواقع والحقيقة، ربما هو الوهم أو الحزن أو الخوف من الموت، أقول لنفسي حين تتأزم الأمور وأوشك على الهلاك: «لن أموت، سأتحدى القضاء والقدر، ولا لن أموت.»

في خريف عام ١٩٨١ حين كان التشاؤم يسود المسجونات معي في الزنزانة، ويحوم شبح الموت حول رءوسنا، إذا بالقصيدة تهب منتصبة داخلي كالمارد، تقاوم اليأس، تتحدى الموت، وأسمع صوتي الغاضب يقول: لن نموت، وإن متنا فلن نموت ساكتات ... لن نمضي في الظلمة دون ضجة، لا بد أن نغضب ونغضب، نضرب الأرض ونرج السماء ... لن نموت دون أن نكسر قضبان الحديد، وإن متنا فلن نموت صامتات.

مذكراتي في سجن النِّساء ١٩٨١

وفي مفكرتي السرية عام ١٩٤٧، وأنا تلميذة في المدرسة الدَّاخلية في حلوان الثانوية، ظلت هذه القصيدة مكتوبة بالحبر الأسود، محفورة في ذاكرتي وفوق الورق:

قبل أن أغيب في النَّوم كل ليلة، أقول لنفسي:
سيأتي الصبح حتمًا ولن أموت، وإن مت
فلن يؤلمني شيء، بعد الموت
لا السقوط في الامتحان، ولا الضرب
على أطراف الأصابع بالمسطرة
ولا زمهرير البرد ولا لهيب الشمس ولا نار الجحيم
لم أجد إلا صديقتي في العنبر لأسألها: هل نموت؟
وإن متنا هل يؤلمنا أن نموت؟ أين نحن؟!
الآن في عنبر الموتى، في اللامكان واللازمان
ولا وجود للحب إلا بعد أن نحترق في الحريق
ونصير كالرَّماد، وكرمال الصحراء في حلوان
كأننا يا صديقتي متنا قبل الأوان
رأيت المشهد في الحلم، وعرفت أننا نمضي
إلى حيث لا ندري، فهل أكون في الغد ما أريد أن أكون؟!
شاعرة أو ناثرة أو حتى آثمة؟!
هل أرى اسمي فوق كتاب ممنوع؟! وأشق السماء

بقلمي، وأجعل المطر رهن مشيئتي؟!
والنهار والشعر والنثر
ينثال من خطيئتي،
فليحرقني الله في نار جهنم
ولتشرب الأرض دمائي
لكني أبدًا لن أموت.

حلوان الثانوية ١٩٤٧

الباحثة عن الحب

صيف عام ١٩٦٣ بدأت كتابة رواية أعطيتها عنوان «الباحثة عن الحب»، في أعماقي حنين غامض لشيء أكثر غموضًا، لا أعرف بالضبط عما أبحث، بلغت الثَّانية والثلاثين من العمر، أصبحت طبيبة ناجحة وأديبة معروفة، في حياتي كثير من الأصدقاء والصديقات، نساء ورجال أتبادل معهم الحديث على شاطئ النيل، نتحاور في الطب والأدب والفلسفة، مع قضمات من الحمام المشوي ورشفات نبيذ عمر الخيام، نطل على مدينة القاهرة من فوق ربوة الأهرامات، نتسكع في المدينة بعد أن ينام الكون … أعشق الشوارع الخالية من السيارات والبشر، يصفو عقلي وأتطلع إلى النجوم، يعود إليَّ السؤال الطفولي — كنت أسأله لأبي وأنا في السابعة من العمر: مين خلق النجوم دي كلها؟ ربنا يا ابنتي. ومين خلق ربنا يا بابا؟ ربنا خلق نفسه بنفسه يا ابنتي. لم يكن عقلي الطفولي يقبل هذه الفكرة، أن يخلق أحد نفسه بنفسه.

في العشرين من عمري نسيت الأسئلة الطفولية كلها، انشغلت بالدراسة في كلية الطب والنجاح في الامتحانات آخرَ العام. قبل الامتحان بأيام قليلة أواظب على الصلاة، لم أكن أرى أمي تصلي إلا وقت الأزمات، أسمع الشيخ في الراديو يقول النِّساء ناقصات عقل ودين. بدأت أتشبه بأبي، أواظب على الصلاة في غير أوقات الامتحان، بلغ بي الإيمان ذروته عام ١٩٥٢، حين بلغت الواحدة والعشرين من العمر، أصبحت في الأوراق الرسمية مواطنة في سن الرشد، أحظى بحقوق الإنسان فيما عدا الحقوق التي منحها الله للرجال دون النِّساء، كان الدستور المصري ينص على المساواة بين النَّاس أمام القانون، لكن شريعة الله تنص على أن الرِّجَال أعلى درجة من النِّساء، كان التناقض واضحًا بين الدستور والشريعة، لم أكن أرى هذا التناقض وأنا في الواحدة والعشرين من عمري، الإيمان المطلق الأعمى يجعلني لا أرى التناقضات الواضحة للعيان.

كنت أمشي في طريقي من البيت إلى الكلية في خط مستقيم، لا أحرك رأسي هنا أو هناك، وأعود من الكلية إلى البيت مباشرة دون أن أتطلع إلى هذا أو ذاك، كلَّ يوم أروح وأجيء في الطريق ذاته، كالبقرة العمياء معصوبة العينين تدور في الساقية، وفجأة التقيت بأحمد حلمي ... كنت أمشي في فناء الكلية حين استوقفني وناداني باسمي: نوال. توقفت عند سماع اسمي بهذا الصوت، كأنما لم ينادني أحد باسمي من قبل، أو كأنما كلمة نوال لم تكن اسمي، أصبحتُ اسم امرأة أخرى جديدة ولدتْ لتَوِّها في هذه اللحظة.

ربما هما العينان وليس الصوت، عيناه وهو واقف أمامي في الفناء، عيناه فقط رأيتهما، ربما لم تكونا هما العينين، بل شيء آخر لم أره تمامًا؛ لأنني لم أملك القدرة على النظر إليه، فقدت شجاعتي قبل أن ترتفع عيناي إليه.

أتوقف عند هذه اللحظة بعد مرور خمسين عامًا، أتذكرها، أستعيدها، تعود إليَّ كما حدثت، تعود معها التفاصيل الصغيرة الدقيقة، تصورت أنها ضاعت من الذاكرة خلال نصف قرن، تُفاجئني أنها تعيش في الحاضر كما عاشت في الماضي، لحظة لم تتكرر في حياتي منذ خمسين عامًا، أتكون هي لحظة الحب الكبير أو الوهم الأكبر؟!

كان أحمد واقفًا في الفناء، بالضبط عند الباب الصغير بين فناء الكلية والمدخل إلى مستشفى قصر العيني القديم، كان يرتدي قميصًا أبيض، وفي يده مجلة يناولها إليَّ ويقول: ده العدد الجديد من مجلة شعلة التحرير يا نوال. ينطق حروف اسمي كأنما يعرفها، كأنما يألفها، رغم أنها المرة الأولى التي أقابله وجهًا لوجه. أخذت المجلة وانشغلت بفتح حقيبتي وإدخال المجلة فيها بين كتب الطب وكشاكيل المحاضرات والمشرط وأدوات التشريح، حقيبتي كانت ثقيلة ممتلئة، وكان عليَّ أن أفتحها وأضع المجلة فيها، حركة أنقذتني من النظر إلى عينيه، تظاهرت أني منهمكة في فتح الحقيبة، وإفساح مكان للمجلة بين الكتب والكشاكيل، بدت الحقيبة مكدَّسة بأشياءَ قديمة مهترئة لا قيمة لها إلى جوار المجلة الجديدة، يبرق اسمها فوق الغِلاف بخط أحمر، يلمع تحت شعاع الشمس: «شعلة التحرير».

– يا ريت يا نوال تقري قصة العدد وتقوليلي رأيك.

كنت في طريقي إلى مدرج علي باشا إبراهيم، أُسرع الخطى قبل أن أتأخرَ عن موعد المحاضرة. كان الأستاذ هو «أنريب»، يدرِّس لنا علم الفسيولوجي، يلقي المحاضرة بلغة إنجليزية تشوبها لكنة روسية. جاء من روسيا إلى مصر ليصبح أستاذًا في كلية الطب في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، قصير سمين مربع الجسم داخل معطف أبيض، له

وجه مربع عريض يشبه الدب الأبيض، لحيته كثيفة تشبه لحية تشيكوف ودوستيوفسكي. كان يحكي لنا عن العالم الروسي «بافلوف» الذي اكتشف نظرية الارتباط الشرطي، أحدثت طفرة في علم الفسيولوجي، وفي نظرية المعرفة. خيالي الأدبي كان يسرح مع الدُّكتور «أنريب» وهو يحكي لنا قصة الكلب والجرس، إنها التجرِبة التي أجراها بافلوف في المعمل، كان يضع الطعام أمام الكلب كل يوم في ساعة معينة، يُقبل الكلب على الطعام بشهية، كلَّ يوم في الموعد نفسه يجد الكلب الطعام في المكان نفسه، يأكل بشهية، ويلحس الصحن، أصبح بافلوف يدق جرسًا عدة دقات تصاحب اللحظة التي يأكل فيها الكلب الطعام، بدأ الكلب يسمع دقات الجرس مع قضمات أسنانه على الطعام، تكرر الحدث كل يوم، عدة أيام، ثم بدأ بافلوف يدق الجرس دون أن يقدم الطعام للكلب، أصبح لعاب الكلب يسيل لمجرد سماع صوت الجرس، وأصبحت معدة الكلب تفرز الأنزيم الخاص بالهضم كأنما هي تستقبل الطعام. لقد ارتبط صوت الجرس في خيال الكلب وعقله برائحة الأكل ومذاقه في فمه ومعدته. توصل بافلوف إلى الارتباط الشرطي بين المادي والخيالي في عملية التعليم والتدريب في حياة الكلاب، وحياة البشر على حد سواء. كانت العلاقة بين المادة والروح تشغلني أحيانًا، أُدرك أن الجسد لا ينفصل عن العقل، وأن الخيال جزء من الحقيقة.

كنت أستغرق بعقلي وجسدي فيما يقوله الدُّكتور أنريب. لم يكن يتلو علينا المحاضرة مثل الأساتذة الآخرين، كان يحكي لنا الحكايات، نفهم الفسيولوجي ونظرية المعرفة الجديدة عن طريق القصص، والربط بين الخيال والواقع، الربط بين الماديات والروحانيات.

يتخلخل الإيمان الأعمى بانفصال الروح عن الجسد، تدور في رأسي الأسئلة الطفولية القديمة، عيناي ترتفعان إلى السماء في رهبة، كلمة «الله» ترمز إلى الروح بدون جسد، عقلي الطفولي كان عاجزًا عن الإيمان بوجود الروح دون جسد. بلغت سن الرشد، ونسيت البديهيات، سرت نحو النضوج والإيمان الأعمى بالأرواح المنفصلة عن الأجساد، بدأت أرى في الليل أشباح الجن، أومن بوجودها وبكل ما ورد في القرآن.

في غرفة الطالبات فتحت حقيبتي، الغِلاف الجديد والعنوان بالخط الأحمر، شعلة التحرير، لمَحَتِ الصديقاتُ البريق في عيني، رمقتني بطة بعين مجرِّبة وهمست: حب جديد يا نوال؟! لم يكن للطالبات حديث في أوقات الفراغ إلا عن الحب. كثيرة هي قصص الحب بين الطلبة والطالبات، يدس الطالب رسالة حب في كشكول الطالبة، تقرأها علينا في غرفة الطالبات، تتورد خدود البنات وهنَّ جالسات تحت شجرة الكافور الضخمة، يحفرن بمشرط التشريح فوق جذع الشجرة حروف الاسم داخل القلب، يرسمن القلب بدقة كما هو مرسوم في الكتاب، وكما يظهر في صدر الجثة فوق منضدة التشريح.

كنت واحدة من هؤلاء البنات المراهقات في كلية الطب، أومن بالحب الروحي المنفصل عن الجسد، كما أومن بالله، الروح العليا في السماء، المنفصلة عن الجسد الأدنى فوق الأرض، وكنت أجد رسالة الحب داخل الكشكول، كل يوم يدس أحد الطلبة الرسالة، كان الطلبة عددهم بالمئات، والطالبات عددهن قليل يعد على أصابع اليد الواحدة، أو اليدين الاثنتين. كان نصيبي من رسائل الحب أكثر من زميلاتي، لم يكن للزميلات نشاط في الندوات الأدبية بالكلية، أو الاجتماعات السِّياسيَّة أو المظاهرات الوطنية، ربما كنت الطالبة الوحيدة في ذلك الوقت التي تكتب القصص القصيرة والمقالات، وكان رؤساء تحرير المجلات من الطلبة الكبار يأتون إليَّ وأنا جالسة بين زميلاتي في المشرحة، تحمر وجوه البنات حين يأتي إلينا طلبة غرباء ليسوا زملاء لنا في المشرحة. كان الطلبة الغرباء أكبر سنًّا وأكثر جرأة في التطلع إلى البنات، يرفعون رءوسهم في كبرياء كأنهم زعماء، يتنافسون على الخطَب في المظاهرات، ينقسمون إلى فرق متناحرة بعدد الأحزاب في مصر قبل سقوط الملك: الإخوان المسلمون يرفعون شعار السيف والقرآن، الشيوعيون شعارهم المطرقة والمنجل، والوفديون يحملون صورة النحَّاس باشا، الحزب الوطني يردد كلمات مصطفى باشا كامل، أحزاب الأقلية لكل منهم شعاره، الحكومة والسراي والإنجليز لكل منهم حزب داخل البلاد، المستقلون لهم أحزابهم، بعضهم يتبع عزيز المصري، بعضهم يؤمن بالألمان والنازية، بعضهم يؤمن بالحلفاء والدِّيموقراطيَّة، كلهم توابع للقوى المتصارعة في الساحة السِّياسيَّة.

بدا أحمد حلمي كأنما هو المستقل الوحيد، مجلة شعلة التحرير يُصدرها مع مجموعة من زملائه، يدفعون نفقاتها من جيوبهم. كان هو رئيس التحرير، قرأت عددين أو ثلاثة، نشرت فيها بعض القصص القصيرة بأقلام طلبة الطب ذوي الميول الأدبية. قرأت قصة أحمد حلمي بعنوان «كلب وغلام»، لا أنسى القصة رغم مرور نصف قرن من الزمان، صورة الكلب الصغير الأعرج يأكل من صفيحة قُمامة إلى جواره طفل أعرج. كان أحمد حلمي ينظم الندوات الأدبية، يربط بين الفقر والمرض، بين الطب والأدب. لم يكن يوسف إدريس يكتب القصة بعد، كان يكتب المقالات السِّياسيَّة ويرأس مجلة أخرى اسمها «الجميع».

في إحدى الندوات الأدبية قال يوسف لأحمد: قرأت قصتك «كلب وغلام»، إزاي كتبتها يا أخي؟ شيء عجيب فعلًا، تصور يا أحمد وأنا نايم في عز النوم أشوف الكلب الأعرج بياكل من الزبالة مع الطفل الأعرج، يا أخي القصة دي أحسن من مِيت مقال سياسي!

لم يكتب أحمد حلمي شيئًا بعد هذه القصة، سافر إلى القنال وعاد محطَّمًا، خانه الأصدقاء قبل الأعداء. تزوجنا ضد إرادة أبي، كان أبي يؤمن بالعمل الفدائي والموت من

أجل الوطن، ملأ خيالي وعقلي منذ الطفولة بأناشيد الفداء، بلادي بلادي أفديكِ بروحي ودمي. عاش أبي المنفي في منوف عشر سنوات، كف فيها عن النشيد، أصبح ينوء بالحِمل الثقيل، عائلة من تسعة عيال وأمهم، أصبح رهين المحبسين الوظيفة الحكومية والأسرة الأبوية.

كان أبي يؤمن بالله والوطن، ولكن أحمد حلمي كان يؤمن بالوطن فقط. في أول حديث لنا عن الدين سألني: أتؤمنين بالله يا نوال؟ قلت: طبعًا ... مرت لحظة صمت طويلة، كنا نجلس في حديقة الشاي، مكان هادئ يطل على بحيرة صغيرة، يعوم فيها البط داخلَ حديقة الحيوان بالجيزة. كنت أرتدي بلوزة وردية جديدة، أرى وجهي منعكسًا فوق مياه البحيرة، عيناي يكسوهما بريق، الدقات تحت ضلوعي محسوسة، أنفاسي تتعاقب بسرعة لم أتعودها، أحاول أن أتظاهر بالهدوء وأنشغل بمراقبة البط يفرد أجنحته في الماء، يتطاير فوق ريشة الرذاذ مثل ذرات من اللؤلؤ تلمع تحت أشعة الشمس.

– وأنت يا أحمد هل تؤمن بالله؟

– لأ يا نوال.

الصدمة الأولى في الحب، تجمَّدت الدقات تحت ضلوعي، توقفت الأنفاس وقدرتي على النطق، لم أعد أرى البحيرة ولا البط، غامت عيناي، مرت سحابة حجبت الشمس، تصورت أن الله سمع كلمة «لأ» وأراد أن يدمر الأرض والشمس وكل ما في الكون.

فتحت عيني ورأيت أحمد جالسًا أمامي، كأنه كائن ميت لا أقوَى على النظر إليه.

– آسف يا نوال إذا كنت صدمتك، أنا دائم التفكير في فكرة نشوء الكون، أنا غير مقتنع بنظرية الخلق في الكتب السَّمَاوية، أنا شرَّحت جسم الإنسان في المشرحة، وقريت كتاب داروين «أصل الأنواع»، الكتاب ده بمثابة المسمار في عرش الإمبراطورية البريطانية؛ لأنه هدم أهم أركانها وهو الكتاب المقدَّس، أو أهم ما في الكتاب المقدس وهي نظرية الخلق ونشوء الكون.

صمت أحمد قليلًا، أحسست الجفاف في حلقي، شيء يؤلمني تحت الضلوع، أنفاسي عادت بطيئة ودقات القلب لم تعد هناك، أحس الدم يمشي في صدري بطيئًا بارد الملمس، كأنما جرح في صدري مفتوح منذ الطفولة، جرح لم يلتئم منذ ولدت ولم أسمع الزغاريد، لم أشهد في العيون إلا الحزن والصمت، أصابع غليظة سمراء كالمسامير الصدئة تحاول خنقي تحت الماء، وأنا أرفس بقدمي وذراعي وأطفو، صوت يخرق أذني مثل السيخ المحمي في النار، بنت وليست ولدًا! العوض على الله! كلمة «الله» تنفذ إلى أذني مثل المسمار الحديدي

الذائب في النار، الله يفضل الرِّجَال على النِّساء، الله صاحب الجلالة مذكر وليس مؤنثًا، في القرآن الله لا يلد ولا يولد، وفي التوراة — الكتاب الأول المقدس — الله لا يلد البنات، أبناء الله تزوجوا بنات النَّاس وأنجبوا البشرية.

– قريتي أصل الأنواع يا نوال؟

– لأ.

– لازم تقريه يا نوال، وكمان كتاب كارل ماركس «رأس المال»، في سنة ١٨٨٢، السنة نفسها اللي احتلت فيها مصر مات داروين، عملوا له مقبرة عظيمة في وست مينيستر أبي، كان كارل ماركس في لندن من سنة ١٨٤٩، مات في لندن بعد داروين بسنة واحدة، قبل ما يموت أهدى كتابه «رأس المال» لداروين، لكن داروين كان مؤمنًا بالمسيح والإمبراطورية البريطانية، عشان كده رفض هدية كارل ماركس، رفض أن يستلم كتاب «رأس المال»، كان خايف من الكنيسة والحكومة في لندن، قريتي «رأس المال» يا نوال؟

– لأ.

– ده كتاب مهم يا نوال، أنا مش ماركسي ولا شيوعي لكن الكتاب ده مهم لازم تقريه.

دار هذا الحوار بيني وبين أحمد قبل زواجنا وقبل سفره إلى الحرب مع الفدائيين، عدت إلى البيت سيرًا من حديقة الحيوان إلى بيت أبي في أول شارع الهرم، قدماي تسيران وحدَهما في الطريق وعقلي شارد. كادت سيارة تصدمني وأنا أجتاز الشَّارع لأهبط تحت نفق القطار، كأنما أسير في نفق مظلم لا أعرف الحقيقة من الخيال. بدا كل شيء من حولي يتخبط في الوهم، الحب والإيمان بالله، والكتاب المقدس ونظرية الخلق ونشوء الكون … أتطلع إلى السماء كأنما أتوقع أحدًا يرد، أتطلع إلى أبي في البيت أود أن أسألَه لكن صوتي لا يخرج، لم تعد كلمة «الله» تخرج من فمي عادية، أصبحت مشحونة بالكهرباء أو الديناميت، أخشى لو نطقت بها أن ينفجر المكبوت في أعماقي منذ الطفولة، أن ينكشف السبب الحقيقي وراءَ إيماني، وهو الخوف من أبي أو الخوف من الله ونار جهنم الحمراء بعد الموت.

بعد أن سافر أحمد إلى الحرب في القنال بدا الكون خاويًا بلا معنًى، بلا إله ولا شيطان، ولا أي شيء، كلية الطب بدت بلا معنًى وبلا هدف، الطلبة يُهَرْوِلون إلى المشرحة والمستشفى كالأشباح في عالم من الوهم، الأرواح الخفية والجان وكل ما ورد في القرآن، أرى أبي راكعًا يصلي فأشفق عليه من الوهم، أكاد أقول له لا توجد جنة بعد الموت ولا جدوى من الركوع والصلاة، أضع يدي فوق فمي أحبس الكلمات في حلقي.

حزمت حقيبتي وقررت السفر إلى القنال، تطوعت مع بعض الممرضات في المستشفى للسفر إلى الجبهة، تدربت على الإسعافات الأولية. كانت لي صديقة بين الممرضات اسمها وديدة، خطيبها سافر مع الفدائيين إلى القنال، أرادت أن تراه ثم تعود، أنا أيضًا أردت أن أرى أحمد ثم أعود، لم يكن الطريق إلى الإسماعيلية طويلًا، ساعتين بالسَّيَّارَة، ويمكن أن أعود بالسَّيَّارَة في اليوم نفسه، أو في اليوم التالي.

ركبت مع وديدة السَّيَّارة اللوري، جوار السائق، خلفَنا جلس أحد المرضين وسط زجاجات الدم والبلازما، أفقت على صوت السائق يقول: فاضل كيلو واحد على الإسماعيلية، قلبي يخفق تحت الضلوع، لم يعد إلا كيلو واحد وألتقي أحمد، أحوط صدري بذراعيَّ، أكتم الخفقات عن السائق بجواري، أخشى أن يَكتشف السبب الحقيقي وراء سفري إلى الإسماعيلية، لقد أعلنتُ له أنني متطوعة مع الممرضات من أجل الوطن.

خرجنا من القاهرة في الليل، وديدة ركنت رأسها فوقَ حافَة النافذة، شردت عيناها في السماء، صوتها المبحوح يدندن بأغنية أم كلثوم «هو صحيح الهوى غلاب ماعرفش أنا»، يذكرني صوتها بزميلتي فاطمة في مدرسة حلوان الدَّاخلية. فتحتُ حقيبتي وأخرجت الساندويتش، رغيف فينو طويل داخلَه جبن رومي وبيضة مسلوقة بالملح والفلفل، قسمت الرغيف ثلاثة أقسام ناولت السائق جزءًا، وديدة جزءًا، وأخذت الجزء الأخير.

كنت جائعة، رائحة الخبز والجبن والفلفل تصيبني بانتعاش مفاجئ، أعود طفلة تأكل بشهية، أتذكر أمي حين كانت تجهز الساندويتش لآخذَه إلى المدرسة وأنا طفلة في السابعة من العمر.

رائحة الخبز والجبن والفلفل أعادت إلى خيالي صورة أمي في طفولتي، مثل صوت الجرس في تجرِبة بافلوف، يستحضر في خيال الكلب صورة الطعام، هناك تشابه بين خيال الكلب وخيال الإنسان. تعود إلى ذاكرتي قصة «كلب وغلام»، كان لأحمد أسلوب مميز في الكتابة، كلماته فوق السطر تتتابع بهدوء يشبه خطوته فوق الأرض، يشبه صوته حين يتكلم، الإيجاز في التعبير يبدو كالإعجاب، والتصوير الدقيق إلى حد التجسيد. يتراءى لي جسم الغلام الصغير النحيف، وجسم الكلاب يشبه الغلام صغيرًا ونحيفًا، يأكلان معًا من صفيحة القمامة، عيونهما غائرة داخل عظام الجمجمة، المقلتان السوداوان بارزتان فوق البياض مشتعلتان بنار الجوع، كل منهما ينظر إلى الآخر في ألفة وصداقة، يتيمان وحيدان في مدينة القاهرة الراقدة تحت شبورة رمادية، وسماء ملبدة بالآلهة غير مبالية.

همست وديدة في أذني والعربة اللوري تدخل إلى مشارف الإسماعيلية: لازم أعرَّفك باليوزباشي رجب، ناويين نتجوز على طول أول ما يرجع من الحرب، وحشني موت يا نوال، حتبقى مفاجأة لما يشوفني، ما يعرفش إني تطوعت في كتيبة التمريض عشان أشوفه.

ثم أطبقت شفتيها في صمت، كأنما تخون الوطن، تفكر في الحب وقت الحرب، وتنتمي إلى عالم النسوة العاطلات الخاملات، لا شيء يشغلهن إلا الرِّجَال.

سمعنا دَوِيَّ الانفجارات من بعيد، أسرع السائق فوق الطريق المحاذي للسكة الحديد، لم أكن أعرف إلى أين نتجه، الظلمة كثيفة، الشفَق الأحمر تراءى من بعيد، دَوِيُّ الانفجارِ يشتد، السائق يدوس على البنزين، صوته يعلو على صوت الموتور: لازم نوصل المعسكر قبل الفجر ما يطلع. كأنما هو في سباق مع حركة الشمس حول الأرض أو الأصح حركة الأرض حول الشمس كما قال كوبرنيكس، كوكب الشمس مركز الكون وليس الأرض، مسمار كبير في نعش الكنيسة عام ١٥٤٣، قبل مسمار داروين بثلاثة قرون ونصف، وكم من مساميرَ أخرى تعاقبت حتى اليوم، وأصبحت الشمس مجرد كوكب ضمن أربعمِائة بليون كوكب آخر في المجموعة الشمسية، تبعد عن الكوكب الأرض أربع سنوات ضوئية، أي بلايين البلايين من الكيلومترات، المسافة بين الشمس والأرض أكثر من مِائة وخمسين مليون كيلو متر تجتازها أشعة الشمس في ثماني دقائق ضوئية، أي بسرعة نصف مليون كيلومتر في الثَّانية الواحدة.

المدافع تُدَوِّي في أذني، السَّيَّارَة اللوري تتخبط فوق مطبات الطريق، الموتور يعلو فوق صوت السائق، زجاجات الدم والبلازما تتخبط وراءنا، التمورجي القابع في قاع السَّيَّارة يشير إلى السماء في فزع، فيه غارة جوية وفوق راسنا طيارة!

كان ذلك في نهاية عام ١٩٥١، كنت في العشرين من العمر، لا أعرف معنى الحرب، كنت أسمع عن المدافع والرشاشات، لم أعرف في حياتي حتى ذلك الوقت إلا رشاشة الْفِلِت، أُمسك مِقْبَضها بيدي وأحرِّكه كالمنفاخ، يتطاير رذاذ الفلت ويقتل الذباب. منذ سافر أحمد إلى القنال وأنا أرى حُلمًا يتكرر في النَّوم، أُمسك رشاشة الفِلِت وأحرك مِقْبضها، يتساقط الجنود الإنجليز إلى الأرض كالذباب الميت. في طفولتي كان يُطربني سماع صَفَّارة الإنذار تُعلن عن الغارة الجوية، ينطلق النَّاس خارجَ بيوتهم إلى المخابئ تحت الأرض، تخرج النِّساء بقمصان النَّوم والرِّجَال بلا أحذية ولا بدل ولا كرافتة. في المخبأ تذوب الفوارق بين الأغنياء والفقراء، يختلط النِّساء بالرِّجَال والبنات بالأولاد، نلعب نحن الأطفال معًا في الظلمة بقِطَع الطوب الصغيرة، نرسم فوق التراب المربعات ونلعب السيجة، حين تنطلق

صَفَّارة الأمان نشعر بالحزن، تعود كل عائلة مع أطفالها وراءَ جدران بيتها، تعود التقاليد تفصل البنات عن الأولاد، تبقى البنات داخل المطبخ ويخرج الأولاد يلعبون في الشَّارع. كانت جدتي تقول: إن الله فرَّق بين البنات والأولاد، وهو الذي خلق العائلات وخلق البيوت والجدران.

لم أكن أرى الكشافات في القرية، كنت أراها في بيت جدي في القاهرة، حين تُدَوِّي صَفَّارة الإنذار أجري إلى الشرفة الواسعة المطلَّة على السماء، تتعلق عيناي بكشافات الضوء، تروح وتجيء في الكون اللانهائي، أذرعها بيضاء طويلة تمسح الظلمة من السماء، كأنما هي أذرع الله تكشف طائرات الأعداء، وترن أصوات المدافع في أذني من بعيد مثل صواريخ العيد.

توقفت العربة اللوري عند المعسكر، خيام سوداء متفرقة تتخفى تحت الشجر، عربات جيب مصفحة مركونة على جانب الطريق، عربات كارو تجرُّها الخيول أو الْحَمِير، أوعية للأكل وماء داخلَ قِرَب من جلد الماعز، شباب يرتدون بدل حرب العصابات، بدو الصحراء يجرُّون جِمالهم من فوقها الأسلحة مختفية تحت عباءات من صوف الإبل.

بدأ الشَّباب ينقلون زجاجات الدم والبلازما، رأيت رئيس المعسكر واقفًا أمام باب الخيمة، يتأمل الشَّباب ينصبون خيامهم، يحفرون خنادق تحت الأرض، الجو مشبع بالرمال والتراب. سألت أحد الشَّباب عن أحمد حلمي، لا أحد يعرف أحدًا باسمه الحقيقي، الجميع يحملون أسماء تنكرية.

من بعيد وسط الضباب على شط القنال كتلة ضخمة من السواد تنتصب في الظلمة مثل قلعة ضخمة تحرس قناة السويس، يقولون عنها معسكرات الإنجليز، قناة السويس ترتبط في خيالي الطفولي بالخديوي عباس، وديليسبس، والفلاحين يحفرون القناة من أجل الله والوطن، كالعبيد بنوا الهرم الأكبر من أجل فرعون والوطن ... الكرابيج كالسياط تلسع أجسادهم، يسقطون من الإعياء ويموتون، يتطوع أبناؤهم الفقراء فداء الوطن، يتلقَّوْنَ الرصاص في صدورهم، يُستشهدون في ساحة القتال وهم يهتفون: الملك، الله، الوطن!

سمعت الشَّباب يهتفون، كل فرقة تهتف بشعار مختلف: الإخوان المسلمون يرددون لا إله إلا الله محمد رسول الله، الشيوعيون يهتفون الكفاح المسلح الكفاح المسلح يحيا الشَّعب، شباب الوفد يهتفون النحاس النحاس. تختلط أصوات الشَّباب وتذوب في الصمت، يتعالى الغبار مع ضربات المعاول في الأرض. على الضفة الأخرى للقناة أرى تلال سيناء، رمالها تشوبها حُمرة تحتَ أشعة الشمس كأنما هي غارقة في الدم. منذ التَّاريخ كانت سيناء هي

البوابة الشمالية يدخل منها الغزاة، يركبون الخيول والْحَمِير والدبابات أو الطائرات. فوق الخريطة تبدو مثلثةَ الشكل، شبه جزيرة سيناء، تلال من الرمال دُفنت تحتَها أجساد الشَّباب الفقراء، لم يكن أبناء الأثرياء يذهبون إلى الحرب، يدفع الأب الفدية، مبلغًا من المال يشتري به حياة ابنه، يموت الشاب الفقير في سبيل الله والوطن.

في الليل، داخل الخيمة، همستْ وديدة في أذني: ما حدش عارف حد هنا، مش عارفة أنام يا نوال، خايفة موت نرجع من غير ما أشوفه. ثم أغمضت عينيها وراحت في النَّوم ... تشبه الطفلة، شعرها أسود غزير يغطي وجهها، ترتدي قميص نوم من الكستور الأبيض فيه زهور صغيرة حمراء. فتحت عينيها ورأتني شاخصة إلى سقف الخيمة، همست في أذني: صاحية ليه يا نوال؟! اللي واخد عقلك يتهَنَّا بيه! لازم أرجع بكره يا وديدة، بابا ما يعرفش إني هنا، قلت لهم في البيت إني في مستشفى القصر العيني وعندي نوبتشية، لازم أرجع بكرة يا وديدة.

كانت المرة الأولى أكذب على أبي وأمي وأبيت خارج البيت، رتبت مع السائق أن أعود معه في العربة اللوري في الصباح. فقدت الأمل في العثور على أحمد. كل شيء هنا يبدو غريبًا، مثل الحلم المفزع. رأيت الممرضات يغسلن الجروح من الدم والصديد، في إحدى الخيام رقد شباب ينزفون الدم، فوق رءوسهم زجاجات الدم والبلازما، والخراطيم السوداء الرفيعة يجري فيها الدم من الزجاج إلى الأذرع الممدودة فوق الأرض، أحد الشَّباب لفظ النفس الأخير، دفنوه في الأرض في مقبرة بجوار الخيمة.

لم يعرف أحد كم من الفدائيين ماتوا في هذه الحرب عام ١٩٥١، لكن الأرقام نُشرت بعد ثلاثين عامًا. في عام ١٩٨١، وأنا داخلَ الزنزانة في سجن النِّساء بالقناطر الخيرية، جاءت زوبة، من عنبر المومسات تحمل أرغفة الخبز لنا، لفَّت الأرغفة الثلاثة الخاصة بي داخلَ ورقة من أوراق الصُّحف، وهمست: بالهناء والشفاء يا دكتورة نوال. كانت زوبة تهرِّب لنا بعض أوراق الصُّحف. الصحيفة تحمل تاريخ ٢٧ أكتوبر ١٩٨١؛ أتذكره لأنه تاريخ ميلادي. لم تكن إلا صفحة واحدة داخلية، فيها بعض الأخبار وخبر صغير في أسفل الصفحة يقول: في حرب ١٩٥١ قُتل من الفدائيين ما يزيد عن مِائتي فدائي. كشفت الحقائق بعد ثلاثين عامًا عن أن هذه الحرب ضد الاحتلال البريطاني هي التي مهَّدت لثورة يوليو عام ١٩٥٢، إلا أن أسماء هؤلاء الشهداء ضاعت في التَّاريخ، بعضهم حُفر اسمه على عمود من الحجر بالقرب من شط القنال، سقط الحجر مع الزمن واندثر الاسم في العدم.

كنت أرمق هؤلاء الفدائيين بعين ملؤها الحسد، وهم يسيرون برءوس مرفوعة، سلاحهم فوق كتفهم، عيونهم تلمع بالكبرياء، إنْ سقطت قنبلةٌ فوقَ الخيمة يموتون

واقفين في كبرياء، وأنا أموت في فراشي راقدة مع النِّساء المرضات. لم يكن للمرأة أن تنال شرف الموت وهي تقاتل، كانت تموت وهي راقدة في فراشها، أو وهي تحمل بُراز الفدائيين في الجردل، أو تغسل جروحهم من الدم والصديد.

من بعيد كنت أرمق معسكرات الإنجليز، ينتابني القلق أو الخوف من المجهول، هل أعيش حتى أرى هذه المعسكرات حُطامًا؟! إنها تبدو مثل القلعة المحصَّنة، مثل الأبراج العالية تسكنها كائنات غير بشرية، مفترسة ومخيفة، يتراقص من فوقها العلم البريطاني، مثل طائر خرافي من الطيور الجارحة، خطوطه حمراء بلون الدم تتقاطع مع خطوط سوداء بلون الموت.

بعد أربعة عشر عامًا جئت إلى الإسماعيلية بعد حرب ١٩٦٧، تغير شكل العلم فوق معسكرات الأعداء، أصبح يحمل نجمة داود، يرفرف في الظلمة، والعربة اللوري تشق الطريق ما بين الإسماعيلية وبورسعيد.

تحت ظلمة الليل كانت الصحراء تتلاشى والسماء، كل شيء في الكون يتساوى في الظلام، أعلام الدول ومعسكرات الأعداء، كلها تتساوى وتذوب في السواد، عيناي مفتوحتان لا أنام، وديدة راحت في النَّوم تحلم بعودة خطيبها من الحرب وليلة الزفاف. أخشى أن أسقط في النَّوم ولا أصحو في الصباح، أخشى أن تسقط قنبلة وأموت في الإسماعيلية، يكتشف أبي وأمي أنني كذبت عليهما وقضيت الليلة في الإسماعيلية وليس في نوبتشية القصر العيني، كان الموت أهون في نظري من انكشاف الكذب.

خرجت من الخيمة أتمشى في الصحراء، الشفق الأحمر يَسري في صدري مع نسمة الفجر، أستشعر الحنين للحب، أمشي نحو عين الماء، أتصور أنني سوف ألتقي بأحمد هناك، ربما نهض من النَّوم ليشرب، ربما يدرك أنني هنا في الإسماعيلية، في الخيمة المجاورة له، وأنني أنهض وأمشي إلى عين الماء، كأن بيننا موعدًا وأنا أمشي إليه، وهو يمشي إليَّ، نقطتان صغيرتان في الكون تمشيان نحو بعضهما، نجمان مؤرَّقان في سماء الليل والكون كله نائم. لم يكن أحد عند عين الماء، أحسست خيبة الأمل، كأنما أحمد خان العهد وتخلف عن الموعد. غسلت وجهي وذراعي بالماء البارد، ملأت كفي بالماء وشربت، ليس له طعم ماء النيل، له نكهة معدنية، كأنما أضيفت إليه مادة كيمائية، هل سمم الأعداء الماء؟! كنت أسمع من البدو أن الأعداء يسممون عيون الماء والآبار. من بعيد رأيت البدو يسيرون وهم يقودون الحمير أو الجمال، نصبوا خيامهم وانضموا إلى كتائب الفدائيين، الفلاحون أيضًا جاءوا بفئوسهم، وقطَّاع الطرق جاءوا بالأسلحة. والفلاحات أيضًا، منهن امرأة فارعة القامة تحمل بندقية

فوق كتفها يسمونها أم الفدائيين، ترتدي جلبابًا واسعًا أسود، تربط رأسها بحزام من جلد الماعز، قدماها كبيرتان سمراوان، كعبان مشققان، تشبه جدتي الفلاحة أم أبي، خطوتها واسعة فوق الأرض، خفيفة الجسم، قفزاتها سريعة كوثبات الفهد.

هنا وهناك بركت الجمال والحمير، راحت في ما يشبه النُّعاس، والحصان الأبيض يركبه رئيس المعسكر، أهداه إليه أحد الأعراب من سيناء، تلال سيناء وصخورها منتصبة في غضب، كأنما تريد الانقضاض على معسكرات الأعداء.

«الله أكبر ولله الحمد، هذه التلال يا إخواني خلقها الله لتحميَ المسلمين من غزوات الكفرة!» هذا هو صوت أحد الفدائيين في كتيبة الإخوان المسلمين، صوته ينطلق مع أذان الفجر. وصاح شاب من كتيبة الوفد أو الشيوعيين «والحماية العسكرية هنا ليه يا أخ إذا كانت التلال دي حاميانا؟!» نشب حوار أشبه بالمعركة بين الشَّباب، كادت تُستخدم فيه الأيدي والبنادق. لم يفُضَّه إلا حضور رئيس المعسكر، عضلاته مشدودة، علامة القيادة، سلاحه يُطل من جيبه، يرتدي كاسكيت يحجب نصف وجهه العلوي، ذقنه مربعة عريضة، راح يتمشى بعد أن فض العراك بخطوة الأسد الهادئ الواثق من نفسه، يرفع وجهه نحو السماء، عيناه تشردان في الأفق نحو معسكرات الأعداء، ربما كان يتخيلها حُطامًا، يتخيل نفسه بطل النصر، أينتصر حقًّا على الإنجليز؟! وإن انتصر وأصبح بطلًا لمن يدين بهذه البطولة؟! لهؤلاء الشَّباب الفدائيين أم للإنجليز الأعداء؟!

أغمض عينيه كأنما نام وهو واقف، ثم أطرق إلى الأرض، ربما اجتاحه شعور بالإثم وتأنيب الضمير، سؤال يدور في عقله، أيمكن أن يكون بطلًا دون وجود الإنجليز الأعداء؟! أحرجه السؤال فاستدار، لم أعد أرى إلا ظهره، وارتفع صوت الفدائي يمزق الصمت: يا إخواني، إن جبل سيناء معنا ضد الإنجليز؛ فقد ظهر الله فوق هذا الجبل لسيدنا موسى عليه السلام، اصطفاه الله من كل جبال العالم ليهبط فوقه، وهناك أيضًا معبد سانت كاترين، والطريق الذي سارت فيه السَّيِّدة مريم مع سيدنا عيسى عليه السلام ويوسف النجار هاربين إلى مصر، هذا يا إخواني جبلٌ مقدَّس، الرمال فيه مقدَّسة، التلال والصخور تتربص بأعدائنا الإنجليز، وإذا كان الجبل معنا فإن الله معنا والنصر معنا، وسوف تصبح هذه المعسكرات حُطامًا بإذن الله، نُزِيلها من الوجود، ونبني مكانَها جامعًا ومئذنة يرتفع من فوقها صوت الحق، الله أكبر الله أكبر!

دبَّ الحماس في الشَّباب، هتف بعضهم: الله أكبر. فريق آخر راح يهتف: يحيا كفاح الشَّعب المسلح! وانطلقت أصوات أخرى تهتف: النحَّاس النحَّاس! وارتفع شعار الهلال

والصليب في الجو، مع راية عليها سيفان يحملان المصحف الشريف، وراية أخرى مرسوم عليها المطرقة والمنجل، وعلم مصر يرفعه بعض الشَّباب.

كان رئيس المعسكر واقفًا من بعيد يتطلع إليهم، نصف وجهه العلوي يختفي تحت الكاسكيت، عضلات فمه مشدودة، يمسك ذقنه المربعة بأصابع متوترة، ربما كان يفكر أن معركته الأولى هي إخضاع هذه الفرق المتناحرة، ثم بعد ذلك يأتي إخضاع الإنجليز، أيكون إخضاع الإنجليز أسهل؟! هؤلاء الشَّباب الفدائيون ليسوا جنودًا من أبناء الفلاحين الفقراء الجهلة، إنهم طلبة في الجامعات، رءوسهم محشوَّة بالأفكار الجديدة: حرية الرأي، الاستقلال، الدِّيموقراطيَّة، العدالة الاجتماعية. هل تنفع هذه الأفكار في الحرب؟! الحرب ليس فيها إلا فكرة واحدة: الطاعة العمياء للأوامر وقتل العدو أينما كان!

كلما فرغت الدماغ من الأفكار أصبح الجندي أفضل.

كان واقفًا من بعيد مطرق الرَّأس كأنما يفكر في هذه العبارة، الغبار الرَّمادي الأصفر يغطي الكون، العواصف الصحراوية تهب يعقبها نُباح الكلاب، صوت طلقات الرصاص من بعيد، أهي بنادق صيد؟! هل خرج الإنجليز في رحلة للصيد في الصحراء أم خرجوا مع كلابهم في حملة استكشاف أوكار الفدائيين؟! كلابهم لديها جهاز عصبي حساس يعرف رائحة العدو، هذه الرياح الصحراوية قد تحمل رائحة الفدائيين إلى أنوف الكلاب، الرياح قادمة من ناحية الجبل، أينقلب الجبل ضد المسلمين ويصبح مع الإنجليز؟!

كان السؤال يدور في رأسي وأنا واقفة أنتظر سائق اللوري، أتلفت حولي في دهشة لا أكاد أعرف من أين جئت وإلى أين أمضي؟! الأرض مفروشة داخل الخيمة بقطع من فروة الخرفان، سرير من الصاج ترقد فوقَه وديدة، فوقَها كليم من الصوف، طشت نُحاس وإبريق ماء، تحت وسادتها المصحف الكريم، آية منقوشة تتدلى عند باب الخيمة ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، مقعد من القش المجدول، كنبة من البامبوه أو عيدان البوص المشغولة بأيدي النِّساء من البدو، حصيرة فوق الأرض من القش أو الجريد.

كانت وديدة راقدة في سريرها تُحَملق في الظلمة، تنظر إلى أصابع يديها، أصابع شاحبة رفيعة تهتز في الضوء الشاحب، ترسم على الجدار ظلالًا سوداء على شكل أصابع، عيناها شاخصتان مفتوحتان لا يطرف لهما جفن. سرت فوق جسدي قشعريرة، «وديدة!» ناديتها بصوت هامس، لم تتحرك شفتاها، تصورت أنها ماتت في هذا الوضع، يدها اليمنى فوق صدرها، صغيرة ناعمة كأصابع الطفلة، خاتم الخطوبة يلتف حول إصبعها، يشع في الظلمة ضوءًا خافتًا ذهبي اللون.

بعد عام واحد من هذا اليوم كنت أمشي في فناء مستشفى قصر العيني الجديد، رأيت وديدة تمشي منحنية الظهر ترتدي ملابس الحداد السوداء، تصورت أن خطيبها قُتل في الحرب؛ لكنها أجهشت بالبكاء، وهمست في أذني: يا ريته كان مات في الحرب على الأقل كنت أفتكره بالخير ... مسحت دموعها وصمتت، تصورت أن خطيبها تعرض لخيبة الأمل مثل أحمد حلمي، يحقن نفسه بالسم لينسى الخيانة، الحرب مثل وابور الطحين يا وديدة، إن لم تقتل الجسد قتلت الروح، يصبح الإنسان ميتًا وإن عاش.

أجهشت وديدة بالبكاء المكتوم، أنفاسها تتقطع مع كلماتها وهي واقفة في فناء المستشفى: موت الضمير أفظع شيء يا نوال، والرَّجل الخائن للحب يخون الوطن أيضًا. كان خطيبها من البوليس السياسي، تنكر في زي الفدائيين، عاد من القنال سرًّا قبل حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢. اختفى عن خطيبته وديدة ستة شهور حتى قيام ثورة ضباط الجيش يوم ٢٣ يوليو، ظهر اسمه في الصُّحف بعد بضعة شهور، فتحت وديدة الجريدة ذات صباح، رأت صورته وخبرًا عن حفل زفافه إلى ابنة أحد رجال الثورة، كان الحفل ليلة عيد رأس السنة الجديدة أو يناير ١٩٥٣. ارتدت وديدة ملابس الحداد السوداء، ابتلعت مِائة قرص لونه أسود مع كوب من الماء، تمددت في سريرها داخل عنبر الممرضات، أنقذوها في المستشفى بغسيل سريع للمعدة. أجهشت بالبكاء حين عادت إلى الحياة، حاولت الانتحار مرة ثانية، أنقذها من الموت طبيب جديد في سنة الامتياز، وقعت في حبه وكفَّت عن الانتحار.

بعد عشرة أعوام وأنا أمشي داخلَ حديقة الحيوان التقيت أحمد حلمي وجهًا لوجه، كان ذلك في يوم حارٍّ من صيف عام ١٩٦٣، كنت أهبط في الصباح الباكر من بيتي في شارع مراد، أمشي مسافة دقيقة أو دقيقتين لأصبح في شارع الجيزة، أمام باب حديقة الحيوان. لم أكن أدفع رسوم الدخول، أصدر الطبيب البيطري للحديقة أمرًا بإعفائي من الرسوم، قلت له: إنني أكتب رواية طويلة جديدة، وأن الوحي لا يهبط عليَّ إلا وأنا أتمشى في ممرات الحديقة. كان رسم الدخول خمسة قروش فقط، ليست لها قيمة الآن، كانت تبدو لي منذ سبعة وثلاثين عامًا مبلغًا كبيرًا لا يمكنني دفعه كلَّ صباح، وكان الطبيب البيطري يتابع ما أنشره من قصص ومقالات.

– وإيه عنوان الرِّوَاية الجديدة يا دكتورة نوال؟

– الباحثة عن الحب يا دكتور.

لمعت عيناه الضيقتان لحظة ثم انطفأ البريق، كأنما عادت إلى ذاكرته صورة من الماضي البعيد، كان رجلًا قصيرًا ممتلئ الجسم في الخمسين، يبدو لي عجوزًا وأنا في مرحلة

الشَّباب. كنت أقف أمام جبلاية القرود، تلفَّت حوله في دهشة يتأمل وجوه الحيوانات، كان الشمبانزي جالسًا مربعًا فوق جذع شجرة يشبه الإنسان. تركته واقفًا يتأمله وسِرْت إلى حديقة الشاي، هناك كانت المنضدة التي أجلس إليها كلَّ يوم وأكتب الرِّوَاية، أتسلَّى بمراقبة البط في البحيرة الصغيرة، يسبح تحت أشعة الشمس الذهبية، يفرد أجنحته ويطير فوق سطح الماء، ينفض عن ريشه الرذاذ، تتناثر من حوله القطرات اللؤلؤية، تشع ضوءًا مثل ذرات تتساقط من الشمس.

كنت أكتب الفصل الأخير من الرِّوَاية، كانت البطلة قد أعلنت لبطل القصة أن ما بينهما قد انتهى، وسألها بدهشة كيف ينتهي الحب؟! قالت: الحب ينتهي مثل زهرة تموت ولا تعود، مثل فراشة تطير فوق الزرع يقبض عليها الأطفال وتموت في أيديهم. سألها: هل في حياتك رجل آخر؟ قالت: ليس في حياتي رجل آخر، لكن في حياتي نساء ورجال كثيرون، بعد أن خرجت من خندق الحب إلى الحياة الواسعة.

رفعت وجهي من فوق الأوراق، كانت الشمس قد مالت نحو الغرب، أسراب البط عادت إلى بيوتها، رأيت إلى جواري شخصًا واقفًا، كان يرتدي قميصًا أبيض، ونظارة سوداء تُخفي عينيه، ابتسم قليلًا، تذكَّرته على الفور.

– أهلًا يا أحمد.

– إزيك يا نوال!

لم تعد كلمة نوال بصوته تهزني، لا شيء يدق تحت ضلوعي، لعب الزمن دوره في نسيان الألم والحزن والفرح والحب، قميصه الأبيض أصبح مثل أي قميص، نظارته السوداء مثل أي نظارة سوداء، واسمه أحمد حلمي أنطقه كأي اسم عادي.

جلس معي بعض الوقت قبل أن ينصرف، طلبت له كوب شاي، قال: أتذكرين حين جلسنا هنا في أول لقاء لنا منذ اثني عشر عامًا؟!

كنت أذكر اللقاء الأول، لم تعد الذكرى تؤلمني أو تفرحني، جلست معه أشرب الشاي كما أجلس مع أي زميل أو صديق، أتكلم معه بحرية وسهولة، أصبحت العلاقة بيننا أكثر إنسانية.

لم تعد علاقة بين رجل وامرأة، تحرَّرنا من ثقل التَّاريخ والإرث العبودي القديم، جلست معه ودار الحوار بيننا أجمل مما كان، نكهة الشاي أصبحت أحلى مما كانت، أصبح أحمد إنسانًا بعد أن كفَّ عن أن يكونَ زوجي.

إجهاض الثورة

صباح السبت ١٥ يوليو ٢٠٠٠.

جالسة إلى مكتبي أحاول الكتابة، أود أن أُنهيَ هذا الجزء الأخير من قصة حياتي، القلم بين أصابعي لا يتحرك، شريف يقرأ الصُّحف في الصباح، ثم يجلس إلى مكتبه يواصل كتابة روايته الجديدة، لا أعرف كيف ينتقل بهذه السهولة من قراءة الأخبار إلى كتابة الرِّوَاية؛ إنْ قرأت الصُّحف أتوقف عن الكتابة يومًا أو يومين حتى يزولَ التوترُ والغضب، حتى أنسى حوادث القتل والحرب، أو أخبار المفاوضات من أجل السلام، كلاهما محكوم بقوة السلاح والمال والإعلام؛ الثالوث الذي يحكم العلاقات بين الدول أو الجماعات والأفراد.

أصبحت أقرأ الصُّحف بطريقتي الخاصة، أكتشف التناقضَ بين السطور المكتوبة وغير المكتوبة، والصور المرسومة في الصفحة الأولى، الابتسامات العريضة فوق الوجه واليد تختفي وراء الظهر ممسكة بآلة القتل. هذا الصباح كانت صورة الثالوث في كامب ديفيد الثَّانية، منذ واحد وعشرين عامًا كانت كامب ديفيد الأولى، الوجوه الثلاثة في الصفحة الأولى، الرَّئيس الأمريكي والرَّئيس الإسرائيلي والرَّئيس المصري، يبتسمون للكاميرا ويتفاوضون من أجل السلام، كلمة السلام تعني الاستسلام أمام بطش السلاح والمال والإعلام. خرج الرَّئيس المصري صِفْر اليدين يبتسم للكاميرا يعلن الانتصار، وفي عيد النصر ٦ أكتوبر ١٩٨١ انطلقت مِائة وعشرون رصاصة في صدره، سقط قتيلًا وهو يشهد موكب النصر المصنوع من البالونات والألعاب النارية الملونة، سار في جنازته الرؤساء الأميركيون والإسرائيليون

وتخلف الشَّعب المصري عن الموكب. ذلك اليوم كنت في زنزانة داخل سجن النِّساء بالقناطر الخيرية، كان الرَّئيس المصري القتيل هو الذي أمر باعتقالي ضمن المعارضين لمعاهدة كامب ديفيد، كان يسميها معاهدة النصر والسلام، أصبح اسمها اليوم معاهدة الهزيمة والاستسلام، لا تتكشف الأوراق السرية للمفاوضات والمعاهدات إلا بعد عشرين أو ثلاثين عامًا من حدوثها، لا تعرف الشعوب شيئًا عما يدور في المداولات السرية، تنشر الصُّحف وأجهزة الإعلام أخبارًا ملفَّقة، يعيش النَّاس في أوهام النصر، وأوهام الثراء بعد الموت، في قصور الجنة، يموتون والابتسامة على وجوههم وقلوبهم محروقة وفلذات أكبادهم مقتولة.

هكذا كانت صورة الرَّئيس الفلسطيني في كامب ديفيد الثَّانية، يبتسم للكاميرا، يداه وراء ظهره فارغتان، لا يملك شيئًا، لا السلام ولا المال ولا الإعلام، ظهره عارٍ لا يستند إلى أية قوة، جردوه من سلاحه ومن شعبه، جرُّوه إلى مائدة المفاوضات في كامب ديفيد.

الرَّئيس الأمريكي يبتسم في وجه الرَّئيس الإسرائيلي، أياديهما تتشابك من وراء الظهر، يتبادلان السلاح والمال والإعلام، حصلت إسرائيل بالأمس فقط على ٢٫٨ مليار دولار، وحصلت مصر على ٢ مليار دولار، صدر قرار الكونجرس الأميركي والمفاوضات تجري في كامب ديفيد. قرأت الخبر في الصُّحف بالأمس، واليوم السبت ١٥ يوليو ٢٠٠٠ أرى صورة الرؤساء الثلاثة الأميركي والإسرائيلي والفلسطيني، تحت الصورة مانشيت كبير يتألق تحت أضواء النصر: تلعب مصر دورًا قياديًّا في عملية السلام كامب ديفيد الثَّانية كما لعبت في كامب ديفيد الأولى.

شريف يناولني الصحيفة لأقرأ الأخبار، أختفي في غرفتي، أشعر بالعار! ما علاقة خبر المعونة الأمريكية لمصر ومعاهدة كامب ديفيد الأولى والثَّانية؟!

كلمة المعونة تجعل الدم يصعد إلى رأسي، كأنما شريان سينفجر حتمًا، ترن كلمة المعونة في أذني نابية، مثل البصقة أو الصفعة على الوجه. منذ عهد السادات أصبحتْ مصر تتلقى المعونة الأميركية؛ من أجل استمرار المعونة تحدث التنازلات. قلت لشريف: الدَّوْلة التي تعيش عالةً على غيرها كالمرأة أو الطفل الذي يعيش عالة على غيره، منذ بلغت سن الرشد أصبحت أعول نفسي بنفسي، لكن كيف يكون الفرد مستقلًّا في وطن غير مستقل؟!

منذ الطفولة أهتف مع أبي، الاستقلال التام أو الموت الزُّؤَام. لم أعرف ما هو الموت الزُّؤَام، تصورت أنني لن أموت وإن سِرْتُ إلى الموت بقدمي، كنت أسمع أمي تقول: نرمي نوال في النار ترجع سليمة. أصبحت أمشي داخل النار دون أن أحترق، أسافر إلى جبهة القتال ثم أعود دون أن أموت.

كم مرة سافرت وعدت من دون أن أفقد ذراعًا أو ساقًا، بعد هزيمة ١٩٦٧ تطوعت ضمن مجموعة من الأطباء، سافرنا إلى جبهة القتال في القنال، كان عددنا ستة أطباء متطوعين، انقسمنا إلى ثلاث فرق، كل فرقة تتكون من طبيبين، سافرت الفرقة الأولى إلى السويس، والثَّانية إلى الإسماعيلية، والثالثة إلى بورسعيد، كنت ضمن الفرقة التي سافرت الإسماعيلية مع زميل لي اسمه الدُّكتور طلعت حمودة.

كان صباحًا مُكْفَهِرًّا مُلَبَّدًا بالغُيوم، تركت مكتبي في وزارة الصِّحَّة لأركبَ العربة اللوري إلى مدينة الإسماعيلية، جلست إلى جوار السائق في المقعد الأمامي، صعد طلعت حمودة من الخلف وجلس فوق دكَّة خشبية بين الصناديق المعبأة بزجاجات الدم والبلازما، كان شابًّا من عمري نحيف الجسم قصير القامة، يمكن أن يجلس بسهولة في أي مقعد، الطريق بين القاهرة والإسماعيلية يستغرق بالسَّيَّارَة حوالي الساعتين، عجلات العربة اللوري ضخمة تضرب الأسفلت بقوة، أصابع السائق طويلة سمراء مشققة، تحوط عجلة القيادة كالأم تحتضن طفلها في صدرها، عيناه غائرتان تحت جبهة عريضة تتطلعان نحو جبهة القتال بشيء من القلق، يرتدي بدلة صفراء مهترئة، طاقية فوق رأسه لونها أصفر شاحب، شعر رأسه كثيف مجعد يتخلله الشيب، عمره خمسون عامًا، بدا لي عجوزًا وأنا في تلك المرحلة من الشَّباب، كنت أناديه عم محمد، يناديني باسم الضكطورة ... يذكِّرني بلهجة دادة أم إبراهيم وأقاربي في القرية، كان صامتًا طوال الطريق، مستغرقًا في التفكير، جسده القصير الممتلئ يهتز مع اهتزازات العربة اللوري، أصوات الزجاجات تتخبط داخل الصناديق، صوت الدُّكتور طلعت حمودة يأتينا من الخلف: فاضل كام كيلو يا عم محمد على الإسماعيلية؟

– أربعة كيلو يا ضكطور.
– أنا سامع أصوات انفجارات.
– أيوه يا ضكطور.
– جايه منين دي يا عم محمد؟
– عساكر إسرائيل بيضربوا الإسماعيلية من البر التاني.

أتابع الحوار بين السائق والدُّكتور طلعت حمودة دون أن أدرك ماذا يحدث، لم أكن أعرف ما هي الحرب حتى ذلك اليوم في نهاية عام ١٩٦٧، لم أكن أسمع صوت القنابل إلا في الأفلام، لم أكن شهدت القتلى والأشلاء الممزقة إلا في الصور.

سمعت صوتًا غريبًا، يشبه صوت الريح تعوي بصَفَّارة حادَّة تكاد تخرق الأذن، يشبه صوت طائرة نفاثة أو جسم صلب مدبب يخترق الكون بسرعة تفوق سرعة الضوء. كانت

العربة اللوري قد دخلت الإسماعيلية، ضغط السائق على دواسة البنزين، اختار الطرق الجانبية بعيدًا عن شاطئ القنال، لم تكن إلا دقائق حتى وصلنا إلى المستشفى، في هذه الدقائق توقف عقلي عن التفكير، اختفى الدُّكتور طلعت حمودة تحت الصناديق، أخفيت رأسي بذراعي الاثنتين، سمعت عم محمود يقول: ربنا ستر يا ضكطورة، فيه دانة عدت من ورانا، ربنا ستر!

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة «دانة» إنها مثل القذيفة التي تنطلق في الجو وتُحدث ذلك الصوت الشبيه بصَفَّارة الريح العاتية، يعقبها على الفور صوت الانفجارات. رأيت جدرانًا تسقط ونيرانًا تشتعل، أغمضت عيني كأنما في الحلم، كأنما العربة اللوري تمشي داخل النار، وصوت أمي يأتيني من تحت الأرض: نوال نرميها في النار ترجع سليمة.

فتحت عيني على مشهد عجيب، وجدت نفسي واقفة أمام باب المستشفى، العربة اللوري واقفة بجوار الرصيف داخلَها الصناديق، مقعد السائق عم محمد خالٍ ليس فيه أحد، فقط ذراعه اليمنى بأصابعه الخمسة السمراء المشققة قابضة على عجلة القيادة، أين ذهب جسد السائق عم محمد؟! رأيت بعض الوجوه من حولي، وصوتي يقول كأنما ليس صوتي: فين عم محمد؟! فين الدُّكتور طلعت حمودة؟!

كان الدُّكتور طلعت حمودة منبطحًا تحت الصناديق فوق أرض العربة اللوري، أخرجوه من الباب الخلفي شاحب الوجه يهمس بصوت متحشرج: حصل إيه يا دكتورة نوال؟

– مش عارفة يا دكتور طلعت.

رأيت من حولنا بعض التمورجية بالمرايل البيضاء، أصواتهم تصرخ فينا: ادخلوا المخبأ بسرعة! أخذوني والدُّكتور طلعت حمودة إلى المخبأ تحت المستشفى، كان هناك مدير المستشفى والأطباء والممرضات والتمورجية وعدد من الجرحى، سمعت أصواتًا تقول: عم محمد راح، مسكين، ضربته الدانة، وفجأة اهتز المخبأ كأنما زلزال يرجُّ الأرض، تَساقط الترابُ فوق رأسي من السقف، تصورت أن السقف سوف يسقط، وسوف نموت كلنا تحت الأنقاض.

توالت القذائف والدانات فوقَ المكان الذي نحن فيه، انخلع قلبي وانبطح الجميع فوق الأرض، تصورت أنهم ماتوا جميعًا وأنا الوحيدة على قيد الحياة، ثم سمعت صوت مدير المستشفى يقول: الضرب المرة دي جاد، يظهر عاوزين يهدُّوا المستشفى. وقال أحد الأطباء: أصلهم بقوا قريبين أوي مننا، بقوا على الناحية التانية من القنال قصادنا على طول، وجايز شايفينا.

كان الجنود الإسرائيليون قد وصلوا إلى الضفة الأخرى من قناة السويس، بعد احتلالهم لأرض سيناء كلها بعد خمسة أيام فقط من حرب يونيو ١٩٦٧، وكان التراب يتساقط فوق رأسي وأنا جالسة فوق الأرض متكوِّرة حول نفسي، أضع يدي فوق أذني حتى لا أسمعَ صوت الدانات التي تصفِّر وتعوي كالريح العاتية، يعم السكون لحظةً ثم تدَوِّي الصَّفَّارة في أذني، يعقبها صوت الانفجار ويتساقط مزيد من التراب فوق رأسي، اخترقت إحدى الدانات جدار المخبأ ورأيت مدير المستشفى راكعًا يصلي يقرأ الشهادة بصوت مرتعش.

يوم من الأيام السوداء في حياتي، رأيت الموت دون أن أموت، دون أن أفقد الوعي لحظة واحدة.

غرقت تحتَ التراب المتساقط من السقف إلا أنني بقيت في مكاني أتنفس، وكان هناك في الناحية الأخرى جهاز تليفزيون فوق منضدة، كانت الصور تظهر على الشَّاشة رغم الدانات، لم ينقطع التيار الكهربي، ولم ينقطع الإرسالُ لحظةً واحدة، لم أعرف ماذا كان يُعرض فوق الشَّاشة، ربما أحد الأفلام القديمة لأني رأيت راقصة تشبه سامية جمال ترقص وفريد الأطرش يغني. كان مشهدًا غريبًا مذهلًا، نحن في الإسماعيلية غارقين تحت التراب تنهال علينا الدانات من الجيش الإسرائيلي المرابط على ضفة القنال، ومدينة القاهرة ترقص وتغني.

بدا المشهد كأنما في مسرحية عبثية، وقد تطوعتُ للموت من أجل وطن يرقص ويغني بينما أنا أموت، إلا أنني نجوت وعدت إلى القاهرة بعد عدة أيام. مات زميلي الدُّكتور طلعت حمودة بعد أسبوع واحد بالسكتة القلبية وهو يقود سيارته في الشَّارع بجوار وزارة الصِّحَّة. وقلت لشريف: تصور يا شريف كان التلفزيون نازل رقص وغُنا واحنا تحت الأرض بنموت! يظهر التلفزيون في بلد واحنا في بلد تانية! وكتبت قصة قصيرة بعنوان بلد غير بلد. ودق جرس الباب صباح يوم، رأيت أحد الرِّجَال يناولني ورقة صغيرة: استدعاء الدُّكتورة نوال السعداوي للحضور إلى إدارة المخابرات العامة بسراي القبة. أخذني شريف بسيارته الفيات الصغيرة إلى مبنى المخابرات، انتظرني في الشَّارع ما يقرب من ست ساعات، تركوني في غرفة تشبه الزنزانة أربع ساعات، ثم جاء رجل بوليس، أخذ يحقق معي ساعتين، أول سؤال كان عجيبًا: لماذا سافرت إلى الإسماعيلية؟ أدركتُ أننا نعيش في دولة المخابرات، وأن النظام في مصر لم يتغير منذ الملك فاروق، وكما طارد البوليسُ الفدائيين بعد أن عادوا من حرب ١٩٥١، وحرب ١٩٥٦، فإنه يطارد الأطباء الذين تطوعوا لبناء الطوارئ الطبية في مدن القنال الثلاث بعد حرب ١٩٦٧.

أما الدُّكتور طلعت حمودة فقد مات بالسكتة القلبية بعد أيام قليلة من عودتنا من الإسماعيلية، ترك وراءه زوجة شابة وطفلين صغيرين، أقاموا له في وزارة الصِّحَّة حفل تأبين، يشبه حفل تأبين زميلي أحمد المنيسي الذي استُشهد على أرض القنال في نهاية عام ١٩٥١، حفروا اسمه على لوحة الشهداء في فناء الوزراء، سقطت اللوحة بعد سنوات قليلة، وراح اسم طلعت حمودة في العدم، بمثل ما راح اسم أحمد المنيسي وأحمد حلمي وغيرهما من الفدائيين. أما السائق عم محمد فقد اندثر اسمه مع جسمه في العدم، دون حفل تأبين، دون لوحة شرف يسقط فوقها اسمه.

في صيف عام ١٩٦٨ أرسلت نقابة الأطباء إلى جبهة القتال في الأردن فريقًا من الأطباء المتطوعين، كنت الطبيبة الوحيدة التي تطوعت للسفر ضمن مجموعة من خمسة أطباء، لماذا تطوعت؟! لا أعرف، كنت في حاجة إلى السفر بعيدًا عن القاهرة، بعيدًا عن الصُّحف وشاشة التلفزيون، لم أكن أطيق رؤية تلك الوجوه التي تظهر فوق الشَّاشة أو على الصفحة الأولى من الجرائد اليومية، لم أعد أطيق سماع الأكاذيب في الإذاعات، سجلت اسمي ضمن الأطباء المسافرين إلى جبهة القتال في الأردن.

وجدت نفسي أعيش في خيمة بمنطقة الأغوار بالقرب من السلط، أركب عربة الإسعاف مع امرأة يداها وقدماها محروقة بالشمس، تلف رأسها بالشال الفلسطيني، يسمونها أم الفدائيين. كانت عربة الإسعاف تنطلق بنا في الليل تقود العربة فتاة فلسطينية فدائية، عيناها مرفوعتان إلى أعلى، فيهما بريق خاطف، تتطلع نحو شاطئ نهر الأردن، إلى جوارها سلاحها، السَّيَّارَة مصفحة من نوع الجيب، عجلة القيادة كبيرة تقبض عليها يد الفتاة، أصابعها طويلة، عظامها قوية تشع من تحت الجلد ما يشبه الضوء، وحركة خفيفة لها إرادتها الخاصة، أصابع كالحديد لا تَلِين، قابضة على عجلة القيادة الحديدية كأنما هي لُعبة أطفال، أرمق يدي خِلْسة وأنا جالسة إلى جوارها، عظام أصابعي تبدو رقيقة هشة، يدي اليمنى معقودة مع يدي اليسرى فوق حِجْري، يدها اليمنى تقود السَّيَّارة وحدَها دون الاستعانة بيدها اليسرى؛ مبتورة عند الكوع، تستعين بها حين تهتز فوق مطبات الطريق.

كانت صامتة شاخصة إلى الأمام، وجهها من الجانب من الفولاذ أو الماس، نوع من الأحجار الكريمة المشعة، لا أستطيع أن أحرك عيني بعيدًا عن هذا الأنف المرفوع الشامخ، يشق الظلمة مثل نصل السيف، أيكون لأنفي مثل هذه الارتفاعة الشامخة، لم تحرك رأسها ناحيتي، وأنا لا أحرك رأسي بعيدًا عنها.

في المقعد الخلفي جلستْ أم الفدائيين، عيناها غائرتان عميقتان تغطيهما طبقة شفافة من الدموع، تشبه اللمعة الخاطفة أو الابتسامة الدَّائمة، تشبه أم إبراهيم أو جدتي الفلاحة

في قريتي على ضفاف النيل، ملامح وجهها مؤكدة في عتمة الليل، الجبهة البارزة القوية مثل النتوء الصخري يطل على النهر، يناديها الفدائيون «أُمَّنا»، كما ينادون الأرض الضفة الأخرى من النهر، حيث الوطن والأهل، هي تناديهم أطفالي كما تنادي الأرض نبتها الأخضر. لم يكن لها بيت، لا رجل ولا أب ولا أم، البيوت كلها بيتها، الرِّجَال كلهم رجالها، النِّساء نساؤها، في ذاكرتها منذ ثلاثين عامًا قصة حب، وجنين في أحشائها لم تلده أبدًا، أو ولدته ثم ضاع منها في الأغوار.

الظلام مكتمل والقمر والنجوم غابت، العربة المصفحة تشق الليل كالسهم المارق، الجنود الإسرائيليون يُطِلُّون علينا من أبراج المراقبة، الظلمة تحوطنا، تخفينا عن عيونهم، وصلنا إلى حُطام مدينة اسمها الكرامة، وقعت معركة الكرامة من شهرين فقط، ٢١ مارس ١٩٦٨، قُتل كل سكانها. توقفت العربة بجوار جدار أسود مثقوب بالرصاص والدانات، مرسوم عليه وجه طفل يبتسم، عين الطفل اليمنى مثقوبة تحت الابتسامة وحروف متعرجة محفورة في الحجر: سنقاتل حتى الموت. البيوت كلها متهدمة، الشوارع والأزقة خالية من البشر. عثرت وأنا أمشي في شيء صغير، فردة حذاء طفل، انحنت الفتاة الفدائية بجسمها النحيف الممشوق، التقطت فردة الحذاء بأصابعها الطويلة القوية، ضمتها إلى صدرها كأنما تضم الطفل، عيناها مرفوعتان تشقان الظلمة، تتطلعان إلى الأرض وراء النهر، إلى البيت القديم الذي ولدتْ فيه، كانت في العاشرة من عمرها حين استولى الإسرائيليون على البيت، ذبحوا أباها أمامَها، أربعة منهم اغتصبوا أمها واحدًا وراء الآخر، ثم بقر أحدُهم بطنَها قبل أن يقطع ثدييها بخبطة واحدة. أخوها أخذوه إلى السِّجن الذي يسمونه سجن الأنصار، قطعوا أصابع يده اليمنى، لم يعد قادرًا على حمل السلاح، يجلدونه كلَّ يوم بالسياط، يُدخلون في فتحة الشرج عمودًا من الحديد، يطفئون السجائر في جسده، بتروا ساقيه وذراعيه، دون جدوى، لا يمكن أن يعترف، لا ينطق اسم أحد زملائه الفدائيين أو الفدائيات، نماذج من القوة الإنسانية يعجِز عنها الخيال.

عادت الفتاة إلى العربة ومعها فردة الحذاء، وضعتها إلى جوار سلاحها، وانطلقت في الأغوار. عند حافَة النهر توقفت، كان هناك الجريح راقدًا داخل العشب، حوطته أم الفدائيين بذراعيها كالأم تعثر على ابنها، تناديه باسم طفلها الغائب، لم تعد الأسماء تهم، غسان أو يوسف أو فتحي أو زياد، كلهم هذا الجسد الجريح ينزف الدم، فقد ذراعيه وساقيه، يَئِنُّ بصوت مكتوم، يناديها أمي، وهي تغرقه بدموعها وتناديه ابني.

حملنا الفدائي الجريح إلى الخيمة في معسكر السلط، شُفي بعد ثلاثة شهور، أصبح يمشي داخلَ مقعد يتحرك فوق العجلات، جسد ورأس بلا أطراف، عيناه زرقاوان عميقتان تشعَّان ما يشبه اللهب الأزرق، ابتسامته عريضة، أسنانه بيضاء مثل فصوص من اللؤلؤ.

في المدرسة الابتدائية في منوف كانت لي زميلة اسمها حميدة مبتورة الساقين، داست عليهما عجلات كارو في يوم العيد، لم يكن في إمكاني النظر إلى جسمها المبتور، يرتعد جسدي لمنظر الأجساد المشوهة، كأنما التشويه مرض مُعْدٍ ينتقل لمجرد النظر.

في الخيمة كنت أنام تحت رأسي قطعة حجر ناعمة دافئة تشع حرارة الشمس في الليل، إلى جواري أم الفدائيين نائمة عيناها نصف مفتوحتين، شفتاها نصف منفرجتين، أنفاسها عميقة مسموعة في صمت الليل، ملايين الأصوات الخافتة الهامسة تصنع الصمت، تدوِّي في أذني بكلمة واحدة: «ابني».

تركت في القاهرة ابني عاطف عمره عامان ونصف، وابنتي منى عمرها عشرة أعوام، يرعاهما زوجي شريف، غبت عنهم ثلاثة شهور ونصف الشهر، الحنين إليهم يشدني إلى القاهرة، أود العودة وأود البقاء. بدأت رواية جديدة أعطيتها عنوان: عين الحياة، بطلتها امرأة تشبه أم الفدائيين، طويلة القامة فارعة مثل جدتي الفلاحة في القرية، هذه المرأة ظلت تتراءى لي في النَّوم حتى جلست إلى مكتبي، تجسدت فوق الورق باسم عين الحياة. بعد عودتي إلى القاهرة كنت أتابع أخبارها حتى ماتت في مدينة عمَّان بالأردن في سبتمبر الأسود عام ١٩٧٠، قبل موت جمال عبد الناصر بشهر واحد؛ لكنها بقيت حية في روايتي عين الحياة، يقرؤها النَّاس في بلادنا العربية، وفي بلاد أخرى بعد أن نشرت الترجمة فيما بعد. أستعيد صورتها وهي تمشي على حافَة النهر تبحث، لم يكن بحثًا عاديًّا تعرف فيه الشيء المفقود، أو تعرف أنها قد تجده وقد لا تجده، كان بحثًا غريبًا عن ابن لم تلده، أو ولدته ثم ضاع منها في زمان ومكان لا تدري عنهما شيئًا.

الليلة الأخيرة في معسكر السلط قبل أن أعودَ إلى القاهرة، خرجت من الخيمة أتمشى في الأغوار، كنت أرتدي بدلة الفدائيين، من فوقها معطف الأطباء الأبيض، الليل ساكن إلا من حفيف الأشجار، صوت مياه النهر من بعيد، نسمة الصيف الناعمة تتسلل بين جبال الأردن، أمشي في الأغوار كأنما أمشي في حُلم داخلَ حُلم. أسمع وقع حذائي على الأرض الصخرية، لونها أحمر كالدم يغطيها عشب أخضر، ريح باردة خفيفة من الشمال لها رائحة الخيال، نسمة دافئة تهب من الناحية الأخرى، حيث يرقد الشاب قبل أن يفقد أطرافَه، أغمض عينيه

ويحلم أنه عاد إلى الضفة الغربية حيث ترقد أمه العجوز، تبحث في النَّوم عن ابنها الغائب في الضفة الشرقية، تصطك أسنانه قليلًا كأنما من الرجفة، أو رعشة الخيال، الريح محملة برائحة الحلم، صوته يسري في أذني في سكون الليل: أراكِ في مِعْطَفك الأبيض تسيرين بين الخيام، أراكِ بالعين في جسدي، في مكان غير المكان الذي توجد فيه العيون، هل عندك وقت لأكشف لك عن هذه العين وأخبرك بسِرِّ قوة ذراعيَّ وساقيَّ؟! لا تخافي يا دكتورة هناك في الضفة الأخرى وراءَ النهر أعداءٌ اعتقدوا أنني مت، لكني لم أمت، أنا فقط جريح، والجرح ليس في محجر العين، أنا أراك هنا والآنَ في ضوء القمر المختفي، أشهد ما بعد الموت، لماذا أنتِ صامتة؟ هل أنتِ جريحة مثلي؟ لا تخافي إن فقدْتِ ذراعيك وساقيك، ما دمتِ قادرة على الاستماع إليَّ، فأنتِ قهرتِ الموت، قهرتِ العدو داخلَكِ قبلَ العدو هناك على الضفة الأخرى، وأنا مثلك قادر على الاستماع إليك، ليس لأمثالك إلا الاقتراب، أو التلامس جسدًا لجسد، أعطيني يدَكِ، ضعيها فوق صدري العاري لألمسها وتلمسين، انتظري لا تبتعدي عني، لا تخافي من شكلي المختلف، ربما فقدت أطرافي لكني لم أفقد قلبي، لست من الرِّجَال الذي يغتصبون النِّساء في الظلمة، لم يعد لي جسد رجل أو امرأة، إنما هي الرغبة الأخرى يا دكتورة، أتعرفين الرغبة الأخرى؟!

كان راقدًا فوق ظهره مبتور الذراعين والساقين، حول عينه اليسرى رِباط من الشاش الغارق في الدم، بشرته بلون الطوب الأحمر، لم يكن وَهْمًا ولا خيالًا، كان فدائيًّا فلسطينيًّا في لحظات الاحتضار الأخيرة، يفتح فمه ويغلقه في صمت، يحاول أن يَكْشِفَ قبلَ أن يرحل عن سرٍّ خفيٍّ، اقتربْتُ بأذني من فمه وقلت: تكلم ... أنا أسمعك يا غسان.

– يا دكتورة أتعرفين الرغبة الأخرى؟! كل الأجسام الراقدة هنا في الخيام كانوا شبابًا مثلي فقراء، لا يملكون شيئًا في الحياة إلا أجسادهم، وهذه الأجساد أيضًا لا يملكونها، تملكها القيادة العسكرية، وهي قيادة لها رائحة تشمينها من البعد، أتعرفين رائحة القيادة؟! هواء ثقيل بارد يهب من هذه الناحية، انظري، لم أكن أعرف أن السلطة لها رائحة، ولها صوت يَصْطَكُّ مثل قرقعة الحديد أو ارتطام الفولاذ بالمعادن الصُّلبة، يتحول الصدى إلى صوت أشبه بهذا الصوت الذي نسمعه، اسمعي!

حركت رأسي في الاتجاهات الأربعة أحاول التقاط صوت الريح فلم أسمع إلا صمت الليل، ملايين الأصوات الهامسة التي تصنع الصمت، قربت أذني من فمه.

– لا أسمع شيئًا يا غسان.

– لأنك فقدت أذنيك يا دكتورة منذ زمن بعيد، منذ ولدت على هذه الأرض، وأردتِ أن تحمي نفسك من سماع الكلمات النابية؛ مثل كملة «مَرَة»، ألم تسمعي كلمة السباب الأولى

فوق هذه الأرض؟ إذا أرادوا إهانة رجل يقولون له: «ابن الْمَرَة». إن أعدائي قادرون على تمزيق جسدي بالألم، لكنه أخف منذ هذه الإهانة، وفي يوم قال لي قائدنا أو زعيمنا كما يسمونه، قال لي: «ابن المره»، منذ ذلك اليوم فقدت أذني حتى لا أسمع الكلمة مرَّة أخرى. لم أكن فعلت شيئًا سوى أنني لم أضع قليلًا من السكر في فنجان قهوته، نسيت أنه يشرب القهوة ع الريحة كما تقولون في مصر، وكان يفقد مزاجه إن لم يشرب قهوته ع الريحة في الصباح، يصبح هائجًا كالضبع، يكاد يعض مَن حوله بأسنانه، ومن فمه تنثال كلمات السباب، أولها هذه الكلمة يا ابن المره! وهربت من المعسكر بعد أن فقدت أذني، وكنت قد فقدت ذراعي اليمنى في عملية فدائية داخلَ الضفة الأخرى، في قلب أرض العدو، التي كانت أرض أمي، نجحت في تدمير معسكر العدو وبدأت أهرب لأعود إلى هنا، وأنا أزحف فوق بطني شممت رائحة أمي في الأرض، تمهلت قليلًا، توقفت لحظة أملأ صدري بالرائحة، وانهمرت طلقات الرصاص من حولي مثل سرائب الحمام الأبيض في ظلمة الليل، لم أعرف أنها طلقات رصاص، كنت مستغرقًا في اللذة الطفولية، عدت طفلًا أدسُّ أنفي داخلَ صدر أمي وأملأ صدري بالرائحة، أتذكرين رائحة أمك يا دكتورة؟!

– رائحة أمي؟!

فاجأني السؤال، ماتت أمي منذ تسع سنوات، نسيت رائحة أمي، بدأ الهواء يتحرك حاملًا لي الرائحة، أوشكت الإمساك بها قبل أن تتسرب من الذاكرة، لكن الهواء تحرك بفعل الريح؛ فهربت مني كما تهرب السمكة الصغيرة من بين أصابعي في البحر.

جلستُ فوق قطعة حجر بجوار الخيمة، وهو راقد كما كان فوق ظهره، قطعة مربعة من اللحم البشري بلا ذراعين ولا ساقين، عين مربوطة بالشاش، العين الأخرى ترمقني في الظلمة كالنجمة الوحيدة في سماء سوداء، صوته يدخل مَسامَّ جسدي مع نسمة الليل كالحُلم.

– هربت من المعسكر يا دكتورة أزحف فوق قطعة من الخشب لها أربع عجلات، أدفعها بكتفي، لم أعرف ماذا أفعل بجسمي بلا أطراف ولا آذان ولا عيون، ولا شيء إلا هذا الصدر المكشوف والضلوع تحتها قلبي يخفق ممتلئًا بالحنين للحب، ورأيت عيون الأطفال ترمقني من بعيد في خوف، يتحسسون أذرعهم وسيقانهم، يطمئنون إلى وجودها، يخشَوْن فقدانها، كأنما يرَوْن مستقبلهم فيَّ، وعيون الكبار ترمقني من بعيد أيضًا، يُلقون إليَّ بقطعة من النقود من بعيد، لا يكاد يقترب مني أحدهم إلا وضاعت منه أطرافه وأذناه وعيناه، تسقط قطعة النقود فوق بطني، ألتقطها بلساني، الذي أصبح يدي ألتقط بها

الأشياء، وصنعت لي القيادة ملفًّا صغيرًا ضمن ملفات أصحاب العاهات أو الشحاذين، كنت ألتقط طعامي من فضلات النَّاس في الطريق، وإذا جاء المبعوث الأميركي يزور قائدنا تنتشر عربات الجيب المصفحة في الشوارع تلم الشحاذين، تكنس الشوارع من القمامة، تدهن سيقان الأشجار بالبويا البيضاء، ترفع الأعلام وأقواس النصر، تحولت من الفدائي وجه الوطن المشرف إلى الوجه المخزي المطلوب إخفاؤه كالعورة عن عيون الضيوف.

– وكيف عدت إلى معسكر الفدائيين يا غسان؟

– آه يا دكتورة، هذا سؤال مهم، جاءني مندوب من القيادة وسألني؛ أيهما تفضل: أن تعيش شحاذًا محتقَرًا أم تموت شهيدًا مكرمًا؟ قلت على الفور: أموت! كنت أنشد الموت دون جدوى، أريد أن أمسك بيدي مسدسًا أو موس حلاقة لأقتل نفسي، لم تكن لي يد أمسك بها آلة القتل، ربطوا حول صدري وبطني حزامًا من القنابل الموقوتة، حملوني مثل طرد من الديناميت إلى معسكر الأعداء لسوء الحظ لم تنفجر القنابل، كانت كلها مغشوشة، صفقات الأسلحة الفاسدة تجارة دولية، تقتسم القيادات الربح فيما بينها. سقطت أسيرًا بين أيدي الأعداء تشاءموا من منظري فأعادوني إلى قيادتي كنوع من العقاب لها، وضعوني في هذه الخيمة في معسكر السلط.

كلما أرادوا تفجير معسكر في الضفة الأخرى ربطوا حزام القنابل حول صدري وبطني، أنطلق في مهمتي سعيدًا، وعندي أمل وحيد، ألا تكون القنابل مغشوشة لأموت شهيدًا وأدخل الجنة مع الأنبياء، ويحصل أبي بعد موتي على المعاش، كان أبي ينشد موتي فهو رجل فقير يعول أسرة كبيرة. أحيانًا أصدق أن هناك جنة بعد الموت، وأحيانًا تبدو لي الجنة مجرد خدعة من اختراع القيادة، أتعرفين أحدًا في هذه القيادة يا دكتورة؟ القيادة هي القيادة في أي بلد في العالم، هل وقعتِ في حب أحدهم؟ هل وقع أحدهم في حبك؟

– أنا يا غسان؟!

– أيوه! إنتِ! كيف جئتِ إلى هنا يا دكتورة؟ لا أحد يأتي إلى هنا من دون أن يمر على القيادة، دون أن تفحصَه القيادة، إنهم رغم قُبح الملامح، فيهم شيء من الجاذبية، وتشتد الجاذبية بارتفاع المكانة؛ لهذا يحظى القائد بنصيب أكبر من النِّساء ... هل أغراكِ أحدهم بالتطوع والموت في سبيله؟! نعم في سبيله وليس في سبيل الله أو الوطن؛ فالمرأة أكثر ذكاءً من الرَّجل، لا يمكن أن تموت المرأة من أجل كلمة مجردة، بل من أجل شيء ملموس حقيقي؛ مثل جسد رجل له ذراعان يضمانها في الليل، وأنا رجل بلا ذراعين ولا ساقين لم تعد هناك امرأة ترغب في الموت من أجلي.

الساعة تنقضي وراءَ الساعة وأنا جالسة فوق قطعة الحجر بجوار الخيمة، وهو راقد فوق ظهره، صدره يعلو ويهبط بأنفاس متقطعة، تعلوه طبقة من التراب والدم، عينه الوحيدة لا تزال مفتوحة ترمقني في الظلمة وتومض مثل ذُؤابة ضوء توشك على الانطفاء، صوته ينخفض قليلًا، يتقطع، أكاد لا أسمعه، أقرب أذني من فمه.

– استمر ... أنا أسمعك يا غسان.

– صوتك الحنن يكشف أنكِ عرفت في حياتك رجالًا كثيرين، إن صدركِ مثل صدر الأم رقدت فوقَه رءوسٌ كثيرة متعبة، لكنك كنت تطردين الرِّجَال الأطفال الباحثين عن الأم، كنت تبحثين عن رجل مكتمل الرجولة يحمل السلاح ويقتل العدو، تريدين فدائيًّا شجاعًا لا يخاف الموت، تضعين رأسكِ فوق صدره كأنما هو صدر أمك؛ ألهذا جئت إلى هنا يا دكتورة؟!

– لا يا غسان، أنا لا أبحث عن صدر أضع عليه رأسي، لكني بعد الهزيمة لم أعد أطيق الحياة في مدينة القاهرة، الهواء هناك أصبح مشبعًا بالدخان والهزيمة، العيون منكسرة حزينة، حتى جمال عبد الناصر نفسه تهدلت ملامحه وانكسرت عيناه مثل الأسد الجريح.

– سمعت من الزملاء أنكِ كاتبة، هل جئتِ إلى هنا بحثًا عن رواية جديدة؟ كنت في طفولتي أكتب الشعر وكانت هناك لها عينان سوداوان مملوءتان بالأمل والحلم مثل شعاع الشمس، عيناها أراهما بعيني الواحدة تشبهان هذه الطفلة؟

– هل تراني يا غسان؟

– لا يا دكتورة، لا أراك؛ لأن العين الباقية لم تعد ترى، لكني أراك بقلبي، صوتك يذكرني بصوت أمي، أحلم كلَّ ليلة أنني عدت إلى حضن الأم في الوطن القريب البعيد، أحلم بامرأة لها صدر الأم وجسد الأنثى، لكن الأمومة والأنوثة لا يجتمعان في امرأة واحدة، وأنت طبيبة وكاتبة لا يمكن لرجل أن يلمسك إلا إذا كان جريحًا أو موضوع رواية جديدة، أتحلمين مثلي بالموت ودخول جنة عَدْن؟ لكن الجنة خلقت لنا نحن الذكور وليس فيها للإناث دور إلا الجواري الحوريات، أتعرفين هذه الحقيقة يا دكتورة؟

– نعم أعرفها يا غسان؛ لذلك لم أحلم أبدًا بدخول الجنة.

– أنت إنسانة ذكية، كشف زيف الذكورة والأنوثة، تجتازين المحيط الواسع بينهما بخطوة واحدة من قدمك، وأنا أريد منكِ طفلًا يرث ذكاءك قبل أن أموت، أتحققين رغبة إنسان فقد كل شيء من أجل الوطن إلا القدرة على الإنجاب؟!

رأيته يضغط على أسنانه كأنما يكتم ألمًا عميقًا في الجسد، يمر بلسانه على صدره المملوء بالجروح والكدمات، كان يتحرك فوق المقعد ذي العجلات بصعوبة، يريد أن

يتبول، يخجل أن يتبول أمامي، تحت الشعر الأسود الكثيف أسفلَ بطنه كانت المثانة منتفخة ممتلئة حتى الحافَة، يجز على أسنانه من شدة الألم، أسمع صوت اصطكاك الفكين القويين، وأقدام حديدية تصطك بالأرض، شباب فدائيون استيقظوا من النَّوم بدءوا يؤدون التدريبات، ينظفون بنادقهم يملأونها بالرصاص، يطلقونها في الجو، الفجر لم يطلع بعد، وأنا متكورة حول نفسي أمامَ باب الخيمة، أرتدي المعطف الأبيض فوق بدلة الحرب، في جيبي قلم رصاص جاف، في الجيب الآخر مفكرتي اليومية، قد أنزع منها ورقة غير مكتوبة لأكتب عليها اسم دواء، أو كلمة غسان، صوته أصبح ممزوجًا بالعرق والدم. الآن لم يعد جسده يفزعني، لم أعد أراه مشوَّهًا، أحوطه بذراعي كأنما هو طفلي، حملت به وولدته في مكان وزمان لا أدري عنهما شيئًا، إنه يموت بين ذراعيَّ، أنا أحقق له رغبته الأخيرة قبل أن يموت.

مات غسان تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر، وضعوه داخل حفرة في الأرض وأهالوا التراب فوقَه، عدت إلى القاهرة صباح اليوم التالي، كان شريف ينتظرني بالمطار، رآني شاحبة الوجه معفرة الملابس، سألني: ماذا حدث في الأردن؟ قلت: مات غسان يا شريف. قال: من هو غسان يا نوال؟ قلت: شاعر مجهول ربما ينجب طفلًا ذكيًّا في جنة عَدْن يرجم إبليس بالحجارة. ضحك شريف وقال: أهي رواية جديدة؟!

كان ذلك في نهاية صيف عام ١٩٦٨، لم أكن أعرف أنه بعد عشرين عامًا بالضبط سوف يتزايد عدد الأطفال في فلسطين، أطفال من الأولاد والبنات يشبهون غسان، ملامحهم فدائية منحوتة في الصخر، عيونهم يكسوها البريق، أصابعهم قوية، أعدادهم كثيرة أكثر من الأعداء، قلوبهم شُجاعة لا تهاب النار ولا تطمع في الجنة، قلوب أطفال وُلدوا بلا أب ولا أم، يمسك الواحد منهم أو الواحدة منهن حجرًا. قامت ثورة الأطفال عام ١٩٨٨، عُرفت باسم ثورة الحجارة، انتصر الأطفال على الجنود المسلحين، أصبحت ثورتهم حديثَ العالم، كادت موازين القوى تنقلب ضد إسرائيل لولا عملية الإجهاض السرية، المؤامرة الجديدة تحت اسم المفاوضات في أوسلو ومدريد، وكامب ديڤيد الأولى والثَّانية، ولا نكاد نعرف متى تكون الثالثة والرابعة، ربما بعد الموت في يوم القيامة.

الطيران في الحلم

من نافذة الطائرة أُطل على الغابة الصغيرة التي يُسمونها غابة ديوك، عصفت بها رياح المحيط الأطلنطي والهوريكين، خلع عنها الشتاء أوراقها، أشجار البَلُّوط تلمع عارية تحت الشمس، رءوسها حليقة منتظمة في صفوف، كرءوس الجنود في المحافل والمارشات العسكرية. أشجار الأرز مثلثة الرَّأس تومض أوراقها بدوائر الضوء، الثالوث المقدس في عيد المسيح، يسمونه الكريسماس، نحن في اليوم الأخير من الشهر الأخير من عام ١٩٩٦، وأنا في طريق العودة إلى الوطن بعد سنوات المنفى، أشجار الصَّنَوْبَر بسيقانها النحيفة الرشيقة تتمايل مع الهواء مثل راقصات الباليه. من وراء النافذة الصغيرة المستديرة، لوَّحت بيدي أودعهم، أربع من طالباتي واثنان من الطلبة، جاءوا نيابة عن الفصل إلى المطار، عيونهم تلمع فيها الابتسامات والدموع، ينادونني باسم دكتر ساداوي، كريس أصغرهم سنًّا، عمره عشرون عامًا، عيناه زرقاوان بلون مياه المحيط، أكثرهم انتباهًا في فصل الإبداع والتمرد، طويل ممشوق، بشرته بيضاء ملوحة بالشمس، في حفل الوداع بالأمس عزف أغنية على الجيتار من تأليفه وتلحينه:

خذيني معك إلى الشاطئ الإفريقي
يا ابنة النيل عيناك ساحرتان
الليل أقضيه حبيس الإنترنت
وفي الغابة أجري كالحصان
أذناي مسدودتان بالسماعات
رأسي مشدود بالأسلاك
عيناي تنظران ولا تريان

آه يا أستاذة التمرد والإبداع
أريد أن أطير معك في الحلم
إلى حيث أعثر على نفسي من جديد.

إلى جوار كريس كانت تجلس كارولين، تتريض معي أحيانًا في الغابة، تفضل الرسم على الكتابة، في طفولتها كانت مثلي تطير في الحلم، لم تحلم أختها بالطيران أبدًا. سألتني كارولين: لماذا يعجِز بعض النَّاس عن الطيران في النَّوم؟! أهدتني لوحة رَسمت فيها نفسها محَلِّقة في الجو، تحرك ذراعيها في الهواء وتطير كما كنت أفعل في أحلامي بدون أجنحة. وهي فتاة أميركية وُلِدَتْ في مدينة نيويورك، عيناها زرقاوان، نفاذتان، بشرتها سمراء، ولدتها أمها في حي هارلم الفقير، أبوها أسود اللون جنَّدوه في حرب فيتنام ولم يَعُد، حصلت على منحة تفوق وجاءت إلى جامعة ديوك تدرس الرسم والإبداع، تشتغل وأمها في هارلم، تشتغل عاملة في مصنع للبلاستيك، تنفق على البيت وأطفالها الأربعة.

قالت كارولين وهي تودِّعني: سأدخر ثمن التذكرة إلى القاهرة وأزورك يا نوال، أصبحتْ تناديني باسمي، رغم فارق العمر نتبادل الحديث كأنما من عمر واحد، في طفولتها تذهب مع أمها إلى الكنيسة، كانت في العاشرة من عمرها، سرقت من زميلة لها في المدرسة قلمًا ملونًا، كانت تحب الرسم ولم تكن تملك ثمن القلم الملون. سمعت في الكنيسة أن السرقة حرام، وأن الاعتراف ضروري لمسح الذنوب، تسللت من وراء أمها وذهبت إلى القسيس، طلب منها أن تركع وتعترف، أغمضت عينها واعترفت بالسرقة، ربت القسيس بيده على كتفها وقال: غفر الله لك يا كارولين. ثم امتدت يده من كتفها إلى صدرها وبطنها، همس في أذنها: لا تخافي ولا تصرخي أنت فتاة مؤمنة يحبها الله. لكن كارولين صرخت من الألم، عرفت أمها ما حدث، تكتمت الخبر، خرجت كارولين من الحادثة سليمة، لم تحمل بالمسيح مثل العذراء مريم، وفقدت إيمانها بالله والكتاب المقدس.

أول يوم دخلت إلى الفصل سألتُ الطالبات والطلبة: لماذا اخترتم هذا الفصل بالذات؟ قال كريس: أنا أدرس الموسيقى، كنت متمردًا منذ الطفولة، أريد أن أعرف العلاقة بين التمرد والإبداع. وقالت كارولين: أنا أدرس الرسم، في الطفولة كنت أحلم بالطيران، أختي لم تكن تطير في الحلم، أريد أن أعرف لماذا يعجِز بعض النَّاس عن الطيران في الحلم. وقالت طالبة هندية اسمها مايا: قرأت روايتك «فردوس»، وتغيرت حياتي، فوجئت باسمك ضمن الأستاذات في جامعة ديوك، جئت إلى هنا لأكون طالبة من فصلك. بشرتها سمراء، عيناها

سوداوان يكسوهما البريق، شعرها أسود غزير، في نهاية العام الدراسي بدأت تكتب رواية طويلة قبل أن تعود إلى الهند.

كان شريف قد سبقني في السفر إلى القاهرة، قال لي: يمكننا العودة إلى الوطن وقد زال الخطر إلى حد كبير، جاءتنا رسائل تقول إن قائمة الموت لم تعد هناك والأحوال في مصر أكثر هدوءًا. سافر شريف، وبقيت في جامعة ديوك ثلاثة شهور أخرى حتى انتهى العام الدراسي.

الطائرة تحلِّق فوقَ المحيط الأطلسي متجهة شمالًا نحو نيويورك، أول مرة ركبت الطائرة منذ سبعة وثلاثين عامًا، منذ الطفولة كان هناك حلم يتكرر أنني أطير في الجو، أحرك ذراعيَّ كالجناحين وأشعر بجسمي ينفصل عن الأرض ويحلق في السماء، كأنما أمتطي جوادًا له جناحان، أخترق السحب، أجدني في عوالم أخرى وبلاد لا أعرفها، وأتلفَّت حولي في ذعر، أرى الأرض بعيدة راقدة في الظلمة، ومصباح صغير في نافذة وطفلة مؤرقة في الليل ترمق الطائرة في السماء، تلمع في الْخِضَمِّ الأسود كالنجمة.

تشهق جدتي حين أحكي لها الحلم.

– هذه ليست أحلام البنات.

– وماذا تحلم البنات يا جدتي؟

– يحلمن بالعريس وفستان الزفاف.

لكني لم أحلم بالعريس أو فستان الزفاف، وفي كل عيد يشتري لي أبي فستانًا جديدًا، ويشتري لأخي طائرة صغيرة لها زمبلك. كان أخي يلوي الزمبلك بأصابعه حتى يتكسر، يقذف الطائرة في الهواء، لكنها لا تطير، تسقط إلى الأرض، كنت أجلس إلى جوار حُطام الطائرة ثقيلة القلب، أجمع أشلاءها وأُعيد تركيبها لتصبح طائرة من جديد، أركب الزمبلك مكانَه أسفل البطن، أحركه ناحية اليمين دورة واحدة أو دورتين، فجأة تتحرك الطائرة وتحلق في الغرفة، أصفِّق بيديَّ الاثنتين وأصرخ من الفرح، تسمعني جدتي أو إحدى النسوة من عائلة أمي أو أبي، أرى تكشيرة الغضب فوق وجهها، تشد الطائرة من يدي وتلقي بها على الأرض ثم تصرخ: تعالي المطبخ لا وقت للعب!

كنت أفضل اللعب بالطائرة على تقشير البصل والثوم، وأهمس لأمي بأحلامي، كانت أمي في طفولتي تحلم بالطيران مثلي، لكنهم أمسكوها كما تُمْسَك الفرخة قبل الذبح، وساقوها إلى حفل زفاف تحت إيقاع الطبول.

منذ ركبت الطائرة لأول مرة عام ١٩٦٣، لم أتوقف عن السفر، سبعة وثلاثون عامًا رأيت فيها بلاد العالم، كتبت الجزء الأول من رحلاتي في كتاب صدر منذ خمسة عشر عامًا، لم أنشر الجزء الثَّاني بعد، ربما أفعل ذلك بعد الانتهاء من هذا الكتاب الجديد.

الطائرة تحلق بي فوق المحيط الأطلسي متجهة نحو الجنوب بعد الهبوط في نيويورك جاءت المضيفة الأميركية تجرُّ العربة عليها المشروبات، انحنت باسمةً سألتني: ماذا تشربين يا سيدتي؟ قلت: جين تونيك. تذكرت صديقتي بطة منذ ثمانية وثلاثين عامًا حين سمعت منها لأول مرة كلمة «جين تونيك»، كان ذلك بعد موت أبي في فبراير ١٩٥٩، أصبح الجين تونيك مشروبي المفضل، يساعدني قليلًا على الاسترخاء، أنسى قليلًا مشاكل الحياة، أتحرر من مخاوفي الراقدة في قشرة المخ، مخاوف صغيرة مكبوتة منذ الطفولة. رغم عشقي للطيران كنت أخاف من ركوب الطائرة، أراها تسقط وتتحول إلى حُطام. اهتزت الطائرة قليلًا وأنا أقول «جين تونيك»، سمعت الصوت ينبعث من الميكروفون يقول: اربطوا الأحزمة، نمر ببعض المطبَّات الهوائية. كم مرة سمعت هذا النداء خلال رحلاتي في العالم على مدى سبعة وثلاثين عامًا، مئات المرات! آلاف المرات! وفي كل مرة لا يحدث شيء، لا تسقط الطائرة؛ مع ذلك ما إن أسمع النداء حتى أتصورَ أن الطائرة سوف تسقط حتمًا هذه المرة.

أخذت كأسين من الجين تونيك، تبعتهما بزجاجة نبيذ أحمر بوردو، سرى الدفء في أوصالي، شعرت بالنشوة، شحنة من الحياة تدفقت في عقلي وجسدي، تلاشى الخوف من سقوط الطائرة، جاءت المضيفة الأمريكية مرة أخرى بالمشروبات، كانت ابتسامتها مشرقة كالشمس، بدت أجمل امرأة رأيتها في حياتي، قالت بصوت رقيق: ماذا تشربين قبل العشاء يا سيدتي الجميلة؟ رنَّت كلمة «جميلة» في أذني كالموسيقى، منذ الطفولة لم يكن أحد من عائلة أمي أو أبي يقول عني «جميلة»، كنت أسمع أحيانًا كلمة «ذكية»، لكن كلمة «جميلة» لم يكن ينطقها أحد، إلا في وصف واحدة من أخواتي اللاتي ورثن بشرة أمي البيضاء، وأصابعها الناعمة البضة، واستدارات جسمها الممتلئ وعينيها العسليتين الوادعتين، وصوتها الرقيق. كانت هذه هي مقاييس الجمال الأنثوي، أما أنا فقد ورثت بشرة أبي السمراء، والقامة الطويلة النحيفة، العينين السوداوين المرفوعتين لا يطرف لهما جفن، «تندب فيهما رصاصة» بلغة جدتي والدة أمي.

في المقعد المجاور لي بالطائرة كان هناك رجل، صعد من نيويورك لم أنتبه إليه إلا بعد الجين تونيك والنبيذ الأحمر، كنا يرشف النبيذ على مهل مع حبات من الفستق، يقرأ في جريدة الجارديان، ملامحه من الجانب تبدو مألوفة، هذا الأنف المرتفع في كبرياء يشبه أنف

أبي، هذه الجبهة العريضة تشبه جبهة شريف، هذا الشعر الأبيض الغزير أراه في المرآة كل يوم، بشرته مزيج من السمرة والحمرة، رغم الخطوط الغائرة قليلًا حول الفم والأنف تبدو بشرته مشدودة بلا تجاعيد، هذا الوجه رأيته من قبل، ربما فوق الشَّاشة، يكاد يشبه جريجوري بيك، هذه الوسامة الطبيعية غير الذكورية، هذا المزيج من الشَّباب والكهولة والطفولة، الجسم القوي الممشوق مع بياض الشعر واستقرار الملامح، عيناه يكسوهما بريق أشبه بالجنون وهدوء مثل العقلاء والحكماء من الفلاسفة في التَّاريخ، مزيج عجيب! لا أدري أهي ملامحه الحقيقية، أم هو خيالي الجامح وأنا أطير في السماء أرشف الجين تونك والنبيذ الأحمر؟!

رأيته يرمقني بطرف عينه، تظاهرت أنني لا أراه، ربما كان يتأمل شعري الأبيض الغزير مع بشرتي السمراء الملوَّحة بالشمس، ربما لمح البريق الأسود في عيني وأنا أبتسم للمضيفة وأقول: زجاجة أخرى من النبيذ وقليل من الفستق يا سيدتي. ابتسمت المضيفة ووضعت أمامي زجاجة البوردو وصحنًا مليئًا بالفستق والبندق، سمعت صوت أسناني تقرقش بشهية الطفلة، كنت جائعة، أتشمم رائحة العشاء من غرفة الأكل والمضيفة ترص الصواني فوق العربة، جاءني صوته بعد قليل، سمعته بوضوح رغم أزيز الطائرة: إلى أين أنت ذاهبة؟

– إلى القاهرة، وأنت؟

– إلى لندن.

– هل أنتِ إحدى نجمات السينما، ملامحك مألوفة تمامًا، كأنما رأيتك فوق الشَّاشة، لا أذكر اسم الفيلم ولا المخرج، أهو فيليني أو ستانلي كوبريك؟

ضحكت بصوت لم أسمعه بأذني منذ تسعة وثلاثين عامًا كان ذلك في صيف عام ١٩٥٩، بعد موت أبي بخمسة شهور، قرأ المخرج صلاح أبو سيف روايتي «مذكرات طبيبة»، جاءني في زيارة إلى البيت، كان يريد إخراج الرِّوَاية كفيلم سينمائي، ثم قال لي قبل أن ينصرف: إيه رأيك تمثلي إنت دور الدُّكتورة في الفيلم؟!

ضحكت يومَها وقلت: لا يمكن يا أستاذ صلاح. ليه يا دكتورة نوال؟ عندك وجه فوتوجينيك وعندك موهبة كمان ... قلت: موهبة في الكتابة وليس في التمثيل. قال صلاح أبو سيف: الموهبة الفنية هي الموهبة، في الكتابة، في الموسيقى، في التمثيل، على العموم فكري في الموضوع، حاتصل بيكي بالتليفون بعد أسبوع.

كانت مواعيد صلاح أبو سيف دقيقة، جاءني صوته بعد أسبوع بالضبط يسألني عبر الأسلاك: رأيك إيه يا دكتورة نوال؟

– رأيي إن الرقابة حترفض الفيلم.

– أيوه، لكن ممكن نغير بعض المشاهد في السيناريو، كل المخرجين بيعملوا كده.

– لكن، إذا غيرنا حاجة في الرِّوَاية حتبقى رواية تانية وليست مذكرات طبيبة.

– يمكن أقدر أفوت الرِّوَاية من الرقابة، لكن قررتِ إيه بخصوص التمثيل؟

خلال ذلك الأسبوع أخذتُ رأي الصديقات بطة وسامية وصفية، ضحكت بطة وقالت: خذيني معك يا نوال طول عمري أحلم إني أكون نجمة سينمائية. ومطت سامية بوزها في وجهي وقالت: تمثيل إيه وكلام فارغ إيه يا نوال ... دي حاجات غير محترمة في بلادنا. وقالت صفية: أنا متأكدة إن الرقابة حترفض الرِّوَاية، وتبقى المشكلة محلولة.

كان ذلك في يوليو ١٩٥٩، مصر تتأرجح بين اليسار واليمين والوسط والإخوان المسلمين، أعوان عبد الناصر يضربون أي رأي لا يَدِين بالولاء والطاعة، والرقابة على الكتب والأفلام والصُّحف وكل شيء. رفضت الرقابة رواية مذكرات طبيبة. حاول صلاح أبو سيف مرة أخرى بعد عامين، لم ينجح في الحصول على الموافقة. حاول مرة ثالثة عام ١٩٦٦، ومرة رابعة عام ١٩٧٢، ثم سمعت صوته اليائس عبر الأسلاك يقول: المشكلة ليست في الرِّوَاية يا دكتورة، المشكلة في اسم نوال السعداوي.

– ما له الاسم يا أستاذ صلاح؟!

– بيقولوا عليكي شيوعية.

كانت المضيفة قد جاءت بالعربة عليها صواني الطعام، سألتني: سمك أم لحم البقر أم فراخ؟ تحيرت لحظة وقلت: ما رأيك أنتِ؟ ابتسمت وقالت: كله لذيذ يا سيدتي. ضحكت وقلت: هاتي كله! ضحك الشاب الكهل الشبيه بجريجوري بيك الجالس إلى جواري وقال للمضيفة: أظن أن لحم البقر الأكثر لذة يا سيدتي.

– لماذا يا سيدي؟

– لأنه مريض بالجنون.

أطلقت المضيفة ضحكة عالية متحررة من قيود الأرض، ووضعت أمامَه طاجنًا ملتهبًا خارجًا لتوِّه من الفرن، تفوح منه رائحة اللحم المشوي والبازلاء الخضراء، لم أكن بهذه الجرأة لأمرض بجنون البقر، رغم الجين تونيك والنبيذ الأحمر كانت خلية في عقلي لا تزال واعية تمامًا، خاضعة لقيود الأرض والمنطق، تؤكد لي أن السمك المشوي أو الفراخ المشوية أفضل للصحة من اللحوم الحمراء. توقفت عن أكل اللحم الأحمر منذ عامين؛ بسبب ارتفاع الكوليسترول في الدم، وبسبب ما أقرأه في الصُّحف الأمريكية عن مرض جنون البقر في

بريطانيا. كان جريجوري بيك يلتهم طاحن اللحم بشهية الأطفال، أسنانه بيضاء حادة مثل أسنان الذئب، عيناه تلمعان بلون السماء الأزرق تشوبه خضرة الزرع.

– هل قال لك أحد من قبل أنكِ تشبهين صوفيا لورين؟!

– وهل قال لك أحد من قبل أنك تشبه جريجوري بيك؟!

ضحكنا طويلًا وجاءت المضيفة تجر العربة عليها زجاجات الليكور الصغيرة، أنواع من المشروبات المركزة التي يشربها الأثرياء بعد وجبات الطعام كنوع من مسك الختام، أخذ زجاجة صغيرة من الكونياك «ديمي مارتن»، وأخذت أنا زجاجة من الليكور، له نكهة البرتقال، اسمه «كوانترو».

دار بيننا حوار طويل، طوال المسافة ما بين نيويورك ولندن، سبع ساعات ونصف ساعة نتحاور معًا دون انقطاع، نام الركاب جميعًا في الطائرة، إلا هو وأنا، شحنة من الحياة والسعادة تغمرني من قمة الرَّأس حتى بطن القدمين، حالة من الحالات لم أعِشْها منذ كنت في العاشرة من العمر، تشبه الطيران في الحلم، أرمق جناح الطائرة الفولاذي الأسود يشق السحب البيضاء كأنما هو خيال، أو مشهد في فيلم سينمائي، وأنا ألعب دور صوفيا لورين، ولماذا صوفيا لورين بالذات؟ في أول الشَّباب حين كنت طالبة بالسنة الأولى بالجامعة كان بعض الطلبة ينتظرونني أمام مدخل الكلية، أسمع أحدهم يقول: سامية جمال جت أهه! صديقتي بطة كانت تقول إنني أُشبه إستر ويليامز، لكن صفية تقول إنني أشبه صوفيا لورين، أما سامية فكانت تراني عاطلة من الجمال، إلا العينين. فقط عيناك يا نوال، والباقي كله لا شيء، صحراء جرداء. تمط بوزها إلى الأمام وهي تنطق الكلمتين: صحراء جرداء.

تكلمنا سبع ساعات ونصفًا دون أن أسألَه أو يسألَني عن اسم أبي أو جدي، أو جنسيتي أو ديني أو قبيلتي أو عائلتي أو أي شيء آخر من هذا القبيل. بدت كل هذه الأشياء غير ضرورية، المكتوبة في جواز السفر، وما يسمونها عناصر الهوية أو الشَّخصيَّة، بدت في تلك اللحظة كأنما هي أغطية، مجرد أغطية، تُخفي حقيقة الإنسان أكثر مما تظهرها.

وكأنما جزء من الحقيقة بدأ يظهر فوق السطح، مثل جبل الثلج تحت الماء، يظهر بالتدريج مع يقظة ما يسمونه اللاوعي، أو على الأصح غياب الوعي، ربما بسبب الارتفاع الشاهق فوق كوكب الأرض واكتشاف الكواكب الأخرى، أو ربما التغيير الكيميائي داخل خلايا المخ إثر النبيذ والجين تونيك والكوانترو.

– يبدو أنكِ سافرتِ كثيرًا في بلاد العالم.

– وأنتَ أيضًا؟

– سافرت إلى كل بلاد العالم ما عدا البلاد العربية وإسرائيل.

– لماذا؟

– لأني غاضب من حكومة إسرائيل ومن الحكومات العربية، كنت أحد المسئولين في الأمم المتحدة عما يسمونه مشكلة الشرق الأوسط، ثم قدمت استقالتي.

– قدمت استقالتك من الأمم المتحدة؟!

– منذ ثلاثة أيام فقط في اجتماع نيويورك الأخير.

فرد ذراعيه عن آخرهما وملأ صدره بشهيق عميق أعقبه بزفير طويل، وقال: أخيرًا تحررت من سجن الوظيفة بالأمم المتحدة بعد ثلاثين عامًا، عشت ثلاثين عامًا كالسجين، أسيرًا للقوى الدولية ومحكمة العدل ومجلس الأمن، كنت أفكر كلَّ يوم في الاستقالة، لكني لم أكن أملك حريتي، كنت أسيرًا لمؤسسة أخرى داخلَ البيت.

حرَكَته وهو يفرد ذراعيه عن آخرهما ويقول «أخيرًا تحررت من سجن الوظيفة» يكاد يشبه أبي حين فرد ذراعيه عن آخرهما بعد أن أحالوه إلى المعاش وصاح بعد أن أخذ شهيقًا عميقًا أعقبه بزفير طويل: أخيرًا تحررت بعد ثلاث وثلاثين سنة، كنت رهين المحبسين الوظيفة الحكومية وسرير الزَّوجية.

– هل أنت متزوجة؟

– نعم.

– وعندك أولاد وبنات؟

– ابنة واحدة وابن واحد، وأنت؟

– عندي ثلاث بنات، تخرجت الكبرى من كلية الصيدلة؛ لكنها لم تحب رائحة الأدوية فالتحقت بفرقة موسيقية في سويسرا، الابنة الوسطى درست الأدب المقارن ثم سافرت إلى باريس، حيث تزوجت زميلًا لها من جنوب إفريقيا، الابنة الصغرى في لوس أنجلوس ضمن حركة نسائية جديدة يسمونها ما بعد الفيمينيست. ضحك بصوت طفولي وقال: أنا مع تحرير المرأة، لكن ابنتي تعيش مع زميلة لها أمريكية، تفخر بأنها «ليزبيان»، أنا لست ضد الحرية الجنسية؛ لكني لا أنجذب للذكور، ربما أكون رجلًا تقليديًّا عجوزًا، وأنتِ؟ ماذا عن ابنتك وابنك؟

– ابنتي تخرجت من كلية الاقتصاد وحصلت على درجة الماجستير والدُّكتوراه، لكنها تركت كل ذلك وتفرغت للأدب وكتابة القصص والمقالات، وابني تخرج من كلية الهندسة واشتغل مهندسًا لمدة أسبوع واحد فقط ثم تفرغ للإخراج السينمائي.

– فانتاستيك! هذا جنون رائع! وأنتِ؟

– أنا تخرجت من كلية الطب وكذلك زوجي شريف، لكنه ترك الطب وتفرغ للأدب وكتابة الروايات، وأنا أيضًا كاتبة روائية.

– أنتم أسرة عجيبة مجنونة، وكلكم تعيشون في القاهرة.

– نعم.

لم يكن سألني عن اسمي حتى ذلك الوقت، ولم أكن سألته عن اسمه، لكني تذكرت أنني قرأت عن استقالة أحد المسئولين بالأمم المتحدة في إحدى الصُّحف قبل هبوط الطائرة في نيويورك، كان هو قد غادر مقعده واختفى قليلًا ربما في دورة المياه. رأيت جريدة الجارديان تطل من الجراب أمام مقعده، بدأت أتصفحها حتى رأيت صورته في إحدى الصفحات، وحوارًا قصيرًا معه عن أسباب استقالته. أعدت الجارديان إلى مكانها في الجراب، عاد إلى مقعده يحمل لفة صغيرة مربوطة بشريط أخضر رفيع، وضعها في حقيبته الصغيرة تحت مقعده، ضحك وقال: لا بد من هدية صغيرة لزوجتي أكفِّر بها عن ذنوبي الكبيرة.

– قرأت الحوار معك في الجارديان.

– ما رأيك؟

– أتفق معك في كل شيء إلا شيئًا واحدا!

– ما هو؟

– كان يجب أن تستمر في موقعك ولا تستقيل؛ لأن شخصًا آخر سوف يحتل مكانَك وينفذ ما يريدون.

– أنا معك، لكني تعبت، ثلاثون سنة وأنا أعيش هذه المأساة، أشارك في هذه اللعبة السِّياسيَّة التي يسمونها اجتماعات الأمم المتحدة، وقرارات مجلس الأمن، وكلها مجرد لعبة للتغطية على جرائم إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية، لم تنفذ إسرائيل قرارات مجلس الأمن، بينما تقوم الأمم المتحدة بنزع أسلحة الدمار الشامل في العراق والبلاد العربية والإفريقية والآسيوية. لم تتحرك لنزع السلاح النووي في إسرائيل؛ لأن الولايات المتحدة ومعها بريطانيا، تريدان أن تكون إسرائيل القوة العسكرية النووية الوحيدة في المنطقة. تملك إسرائيل أكثر من مِائتين وخمسين صاروخًا محمَّلًا برءوس نووية، أين ستوجَّه هذه

الرءوس؟ إلى بغداد ودمشق والقاهرة وطهران وأنقرة وأي بلد في المنطقة لا يَدِين بالولاء والطاعة! وهذه اللعبة السِّياسيَّة التي يسمونها مفاوضات السلام في الشرق الأوسط! أيمكن أن يكون هناك سلام وشعب العراق يموت منه الآلاف يوميًّا من الجوع تحت الحصار لأكثرَ من ثمانية أعوام؟! وهذه الأكذوبة عما يسمونه برنامج النفط مقابل الغذاء؟ هل يُعقل أن فريق التفتيش على أسلحة الدمار الشامل في العراق الذي يضم موظفين في المخابرات الأميركية يعيدون صياغة التقارير كما يشاءون؟! هل يُعقل أن يتم تحميض الأفلام في إسرائيل، هذه الأفلام التي تم تصويرها في العراق بواسطة فريق التفتيش؟ هل يُعقل أن المخابرات الإسرائيلية الموساد كانت تزود فريق التفتيش بالمعلومات عن المواقع الهامة كي يتمَّ تدميرها بالكامل، ولإسرائيل خبرة في هذا منذ ضربت المفاعل النووي في العراق. وهذه المهزلة التي يسمونها تحريك عملية السلام، والمفاوضات المسدودة لتحقيق بعض حقوق الشَّعب الفلسطيني، في الوقت الذي لا تتنازل إسرائيل عن شيء، بل يزداد عدد المستوطنات ويزداد عدد القتلى من الفلسطينيين! وبكل أسف فإن بعض الحكومات العربية تشارك في هذه اللعبة كما شاركت في حرب الخليج عام ١٩٩١.

توقف عن الكلام حين سمعنا الصوت ينبعث في الميكرفون يقول: اربطوا الأحزمة ستهبط الطائرة في مطار لندن، هيثرو.

– أنا أعيش في لندن منذ ثلاثين عامًا، زوجتي إنجليزية وهي أستاذة في الجامعة تدرِّس الفيزياء، شعرها أبيض مثلك وهي في جنيف الآن تحضر مؤتمرًا نسائيًّا، إنها فيمينيست من الموجة الأولى، وهي تحب النِّساء أيضًا، حب بريء، وليس مثل ابنتنا الصغرى في لوس أنجلوس، ثم ضحك، وسألني، هل أنت فيمينست؟!

– هذه كلمة إنجليزية، وفي لغتنا العربية نستخدم كلمات مختلفة، وإن كان المعنى هو تحرير النِّساء، بالطبع أنا مع تحرير النِّساء وتحرير الرِّجَال أيضًا؛ فالمشكلة تتعلق بالنظام الأبوي منذ نشوء العبودية وحتى اليوم.

هبطنا من الطائرة، كانت الساعة في لندن السابعة صباحًا، أخرجت ساعتي الصغيرة من حقيبة يدي، كانت لا تزال حسب التوقيت في «ديرهم» متأخرة عن لندن سبع ساعات. حركت الوقت إلى الأمام بإصبعين اثنين سبع دورات، رأسي يدور دائمًا في تلك اللحظة حين أهبط من الطائرة وأحرك الوقت إلى الوراء أو إلى الأمام، يبدو الوقت لعبة أو أكذوبة دولية أو كونية مثل قرارات الأمم المتحدة. أترنح قليلًا في مشيتي مع الدوران في رأسي أو في الأرض تحت قدمي، ربما بسبب الساعات الطويلة في الجو داخل الطائرة النفاثة، لكن ما هي إلا

لحظة ويعود رأسي ثابتًا في مكانه، والأرض ثابتة تحت قدمي. أدبُّ بقوة على بلاط الممر اللامع الذي يشبه الرخام الأبيض، كعب حذائي مربع متين يشبه كعوب أحذية الرِّجَال، لا ألبس الكعب الأنثوي الرفيع العالي، خطواتي واسعة سريعة، في يدي حقيبة جلدية صغيرة، وهو يمشي إلى جواري بالخطوة الواسعة السريعة، جسمه ممشوق وشعره أبيض غزير، عيناه يكسوهما بريق طفولي، يتلفت حوله في دهشة كأنما يرى مطار هيثرو للمرة الأولى، توقف أمام بوتيك صغير يبيع البطاقات والهدايا التذكارية.

– ما رأيكِ بأن أشتري لكِ هدية صغيرة من لندن؟

– أشكرك، ليس عندي وقت.

– متى تقلع طائرتك إلى القاهرة؟

– الساعة الرابعة مساءً.

– أوهوه! الساعة الآن السابعة صباحًا، أمامَكِ أكثر من ثماني ساعات انتظار، أنا لا أطيق الانتظار في المطارات، وأنتِ؟

– أنا لا أطيق الانتظار أيضًا، لكن معي رواية جديدة كنت أنوي قراءتها في الطائرة.

– ضيعتُ وقتكِ في الكلام؟!

– أبدًا، لقد استمتعت بالحديث معك.

– فاتت سبع ساعات مثل سبع دقائق، لم أشعر بالوقت.

– الوقت أكذوبة كونية مثل قرارات مجلس الأمن.

أطلق ضحكة طفولية، مددت يدي لأودعه لكنه تراجع خطوة إلى الوراء وقال: ولماذا تودعيني الآن وأمامَك ثماني ساعات؟! ما رأيك في فنجان قهوة كابيتشينو وقطعة كرواسان؟ لا أحد ينتظرني في البيت وليس عندي عمل بعد الاستقالة، ويمكن أن أبقى معك قليلًا إن شئت.

دخلنا إلى الكافيتريا، نكهة القهوة تملأني بالانتعاش، أتشمم النكهة، أملأ بها صدري في شهيق عميق، ألامس بطرق لساني رغوة اللبن المغلي الممزوج بالبن، يحترق طرف اللسان من شدة السخونة، مع ذلك لا أغتاظ ولا أتوقف عن تكرار ارتشاف السطح الملتهب، كما كنت أفعل في طفولتي، أرشف الشاي واللبن المغلي، يتصاعد البخار إلى أنفي، أتلقاه فوق وجهي، تمتصه مسام بشرتي، أضم قطعة الكرواسان كأنما هي الفطيرة التي كانت أمي تخرجها من الفرن، وهو يرمقني بعينين يكسوهما البريق، كأنما رأيت هذا البريق وهاتين العينين في مكان وزمان لا أدري عنهما شيئًا، كأنما أنا أجلس في هذه الكافيتريا في مطار

هيثرو منذ زمن بعيد، منذ وعيت الحياة وأصبح عندي ما يسمى الوعي، كأنما سأبقى جالسة هكذا في مكاني إلى آخر الزمن، حتى يتسرب مني الوعي وأموت.

بعد لحظة واحدة أفيق إلى أنني أجلس إلى رجل غريب، تصادف أن جلس إلى جواري في الطائرة من نيويورك إلى لندن، إنني أجلس معه في الكافيتيريا داخل صالة الترانزيت، أقرأ كلمة «الترانزيت» باللغة الإنجليزية، أعرف أنها تعني الانتظار المؤقت الذي سوف ينتهي عاجلًا بعد دقائق أو ساعات قليلة.

– أنت شاردة تمامًا، فيم تفكرين؟!

– هذه الحياة غريبة جدًّا، تصور أنَّ ...

– نعم أتصور أنَّ الصدفة أغرب من الخيال.

– عندنا مثل عربي يقول: ربَّ صدفة خير من ألف ميعاد.

– هي تبدو لنا صدفة، لكنها ليست صدفة، وقد ركبت آلاف الطائرات وجلس إلى جواري آلاف الرِّجَال والنِّساء ... ومع ذلك لم أتبادل كلمة واحدة مع أي منهم، إنها ليست صدفة يا ... فجأة توقف عن الحديث، اتسعت عيناه بدهشة، تصوري لم أعرف اسمك حتى الآن! أنت عرفت اسمي من الجارديان، لكن أصدقائي ينادونني باسم «بيل».

– اسمي نوال يا بيل.

– نافال؟!

– نوال، بالواو.

– ناوال.

– لا توجد ألف بعد النون، نوال.

– نوال؟

– أيوه هذا صح!

– يا له من اسم عجيب، نوال!

أصبح ينطق الاسم على نحو صحيح، لم تكن كلمة «نوال» سهلة النطق لمن لا يتكلمون اللغة العربية، أغلب أصدقائي الأجانب وصديقاتي ينطقون اسمي «نافال» أو ناوال، دائمًا بالألف بعد النون، لكنه أصبح يناديني نوال كأنما يعرف اللغة العربية.

– هل تعرف بعض كلمات عربية يا بيل؟

– كلمات قليلة جدًّا مثل شوكرن.

– شكرًا وليس شوكرن.

– شوكرًا.

– شكرًا، بدون الواو بعد الشين.

– شكرًا.

– أيوه هذا صح.

– شكرًا نوال.

– الاسم يأتي أولًا، نقول: نوال، شكرًا، وليس شكرًا نوال.

– نوال، شكرًا.

أطلق ضحكته الطفولية المعدية، ضحكت وأنا أعلِّمه النطق الصحيح، وهو ينطق الحروف بدقة كأنما سيتكلَّم اللغة العربية حتى الموت، وأنا أضحك كما كنت أضحك في المدرسة الابتدائية في منوف.

– سأقول لكِ سرًّا يا نوال، لو قلتِ تعالَ معي إلى القاهرة سأشتري تذكرة وأركب معكِ الطائرة الساعة الرابعة، لكني أعرف أنك لن تقولي هذا؛ لأنك إنسانة عاقلة، وأنا أيضًا عاقل … لكن هذا العقل جعلني سجين الوظيفة ثلاثين عامًا، هذا العقل قضى على سعادتي في الحياة، ولقد جاءتني بعض الفرص القليلة لأخرج من السِّجن لكنِّي كنت أخاف، منذ عشرة أعوام تقريبًا، قابلت إنسانة مثلك في مؤتمر الأمم المتحدة في جنيف عام ١٩٨٦، كدت أترك كل شيء وأسافر معها إلى ريو دي جانيرو، لكنني تراجعت وعدت إلى السِّجن، مثل المحكوم عليه بقرار مؤبد من قوَّة عليا مجهولة.

– ربما هي مارجريت تاتشر. أطلق ضحكة ثم واصل الحديث: تقريبًا كلَّ عشر سنوات ألتقي بهذا النوع من النَّاس، نساءً أو رجالًا، هذا النوع من الصداقة النادرة التي لا تعرف الفروق المصنوعة بين البشر، لا الجنس ولا الجنسية ولا اللون ولا العِرْق ولا اسم العائلة، فقط الاسم الأول: نوال.

حين نظرت إلى الساعة وجدتها الواحدة والنصف، مضت ست ساعات ونصف ونحن نتكلم دون أن نشعر، كانت الكافيتيريا قد ازدحمت بالمسافرين، ناس يجيئون يجرُّون حقائبهم ثم يروحون، ويأتي غيرهم بحقائبهم ثم يمضون في حياتهم دون أن يتركوا وراءهم أثرًا. أتأمل وجوه المسافرين، رجالًا ونساءً وأطفالًا، كأنما رأيت هذه الوجوه من قبل في كل المطارات، وهذه الحقائب يجرونها فوق العجلات، وهذه الفتاة الجرسونة التي تحمل الصينية فوقها الصحون والأكواب وتجري بين الموائد، وصوت الملاعق، وفرقعات سدادات الزجاجات، وصوت الثلج داخل الكئوس، ورائحة الشواء والطواجن الخارجة من الفرن.

– لا بد أنك جائعة وقد أتى موعد الغداء، أنا شخصيًّا أشعر بجوع غريب، ماذا تشربين قبل الغداء، جين تونيك؟!

حكيت له عن صديقتي بطة وأول مرة أسمع كلمة الجين تونيك منذ سبعة وثلاثين عامًا في عيادتي الطبية، بميدان الجيزة عام ١٩٥٩، بعد وفاة أبي.

– أنت طبيبة يا نوال؟

– نعم، ولكني كرهت المهنة، أغلقت عيادتي منذ سنين طويلة.

– وماذا تعملين الآن؟

– أكتب روايات وقصصًا!

– فانتاستيك! أنت مجنونة يا نوال، وأنا أحب هذا الجنون، أنجذب إليه لأني أفتقده، لقد فقدت جنوني ثلاثين عامًا داخل السِّجن، أصبحت موظفًا بالأمم المتحدة أشارك في مهنة السِّياسة الدولية دون أن أومن بها، وأخيرًا بعد ثلاثين سنة أحرِّر نفسي، لكن بعد فوات الأوان يا نوال، كان حلم حياتي أن أكون موسيقيًّا مثل شوبان أو موتسارت.

– ليس هناك شيء اسمه فوات الأوان، أنت لا زلت في ريعان الشَّباب يا بيل.

– لكني أرى نفسي في المرآة كهلًا عجوزًا.

– المرآة خادعة وكاذبة مثل قرارات الأمم المتحدة! ضحكنا ونحن نرشف الجين تونيك، ثم طلبنا زجاجة النبيذ الأحمر، مع السمك المشوي وطاجن أرز في الفرن، وسلاطة خضراء من الخيار والطماطم والخس.

ثم سمعنا الصوت يعلن في الميكرفون عن توجه المسافرين للقاهرة إلى باب الخروج رقم أربعة، سار معي حتى باب الخروج، توقف لحظة يصافحني، تظاهرت أنَّني لا أرى عينيه، ابتسمت وأنا أشد على يده وأقول: سنلتقي مرة أخرى يا بيل.

– هذا أكيد يا نوال، سأكتب إليك، ومن يدري ربما ترينني في القاهرة قريبًا جدًّا.

استدرت قبل أن أختفي وراءَ باب الخروج، رأيته واقفًا يلوح لي بيده، عيناه فيهما حزن عميق. سرت نحو باب الطائرة بخطوات بطيئة ثقيلة، جلست في مقعدي بجوار النافذة، دخل رجل وجلس في المقعد المجاور لي، وجهه أبيض منتفخ باللحم، كتفاه عريضان مثل مروِّضي الثيران في إسبانيا. خلع الجاكيت وناوله للمضيفة بحركة ذوي السلطة والنفوذ، جلس وملأ المقعد بجسده الضخم، فتح حقيبة سوداء سامسونايت وأخرج منها بعض الأوراق، راح يبحلق فيها بعينين جاحظتين قليلًا، أسند رأسه إلى الوراء، ثم راح في سُبات عميق.

في مطار القاهرة، كان ينتظرني شريف، ومنى وعاطف، الوجوه الثلاثة الحميمة رأيتها تطلُّ عليَّ وأنا أخرج من الباب أجرُّ العربة فوقَها الحقائب، تعانقنا بحرارة الشوق والحب. سرت بينهم أملأ صدري بنسمة الوطن الدافئة. في الليل قبل أن يحوطني شريف بذراعيه حكيت له ما حدث في مطار هيثرو، ابتسم شريف بهدوئه المعتاد وقال: أول ما شفتك في المطار قلت نوال راجعة من مغامرة مثيرة، مشكلتك يا نوال إن كل حاجة بتبان في عينيك. وضحكنا كما كنا نضحك منذ ثلاثين عامًا، حين كنا نحكي عن المغامرات قبلَ الزَّواج.